شوقي أبو خليل

كارل بروكلمان في الميزان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

كارل بروكلمان

في الميزان

الكتاب ٧٤٩
الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٧ م

سورية - **دمشق** - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - برقياً: فكر
س . ت ٢٧٥٤ هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الإفشاء (أوفست): المطبعة العلمية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمَة

☆ « اللهم هيئ لنـا الخير ، واعزم لنـا على الرّشد ، وآتنـا من لـدنـك رحمـة ، واكتب لنـا السّـلامـة في الرّأي ، وجنِّبنـا فتنـة الشّيطـان ، أن يقـوى بهـا فنضعف ، أو نضعف لها فيقوى » . الرّافعي

بسم الله القـائل : ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَـانُهُمُ ٱلَّـذِي بَنَوا رِيبَـةً فِي قُلُـوبِهِمْ إلاَّ أَنْ تَقَطَّـعَ قُلُـوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، [التّـوبـة ١١٠] ، وصلى الله على رسـول الله القائل : « اللَّهمَ أَلهِمْني رُشْدي ، وَأَعِذْني من شَرِّ نفسي » ، وبعد ..

كنت أُحاضر في إحدى الكلّيـات عن مـدارس الاستشراق ، ولـما تكلَّمت عن المدرسة الألمـانيـة ، لفت نظري ثلاثـة من مستشرقيهـا ، هم أَهمٌ أعلامهـا : تيودور نولدكه ، وبروكلمـان ، وريسكـه ، وهـذا الأخير مع سعـة علمـه واتقـانـه للنّحو العربي ، واطِّلاعه على كلِّ الكتب العربيّة المطبوعة حتّى سنـة ١٧٣٦ م ، كان كلَّما أمعن في دراسة الكتب العربيّة ازداد بـالعربيّـة ولوعـاً ، فـاطَّلع على المخطوطـات العربيّة في جامعة ليدن .

لقد أبغض اللاَّهوتيُّون ريسكه أشد البغض ، وحـاربوه فتحطَّمت آمـالـه في الحصول على وظيفة أُستاذ بإحدى الجامعات الألمانيَّة ، وكان عليه أن يقبل وظيفة في مدرسة ثانويَّة ، واعترض رجال الدِّين على تعيينـه مـديراً لمـدرسـة ، لولا أنَّـه

لفت إليه انتباه الوزير الكونت ڤاكربرت ، ووعده بإزالة ما عسى يثيره رجال الدِّين ضدَّ تعيينه مديراً من اعتراضات .

ولم يجد ريسكه ناشراً واحداً يقبل أن ينشر له كتبه في ميدان الدِّراسات العربيَّة ، فاضطر أن ينشر ما نشر من ذلك على نفقته الخاصَّة ، وهو الفقير المعدم .

وتساءلت : لِمَ لَمْ يلقَ ريسكه ، ما لقيه نولدكه وبروكلمان من شهرة ؟

فعدت إلى ترجماتهم ونتاجهم ، فوجدت أن نولدكه وبروكلمان لم يقدّما حقائق تثير رجال الدِّين في أُوربة ، بل قدَّم الرَّجلان ما يرضيهم تماماً ، فرُوِّج لما قدَّما ، ونُشِر ما أَلَّفَا ، فاغتنى الرَّجلان ، وعمت شهرتها الآفاق ، وبلغت عنان السَّماء .

بينما نطق ريسكه بما اقتنع ، وكتب ما أملاه عليه ضميره ، ونشر ما اعتقده بعيداً عن رأي رجال الدِّين وسطوتهم ، فقال : « إن ظهور محمَّد وانتصار دينه هما من أحداث التَّاريخ الَّتي لا يستطيع العقل الإنساني إدراك مداها » ، ويرى في ذلك « برهاناً على تدبير قوَّة إلهيَّة قديرة » .

لقد أبغض اللاَّهوتيُّون ريسكه أشدَّ البغض ، لأنَّه مجَّد الإسلام ، ولم يوافقهم على أكاذيبهم وافتراءاتهم حول محمَّد بن عبد الله ﷺ خصوصاً ، وحول الإسلام وتاريخ الإسلام عموماً ، وفي ذلك يقول فوك : « لقد كان متَّهماً عند اللاَّهوتيين بأنَّه حرُّ التَّفكير ، ولم يسايرهم في ادّعائهم أنَّ محمداً كان نبيّاً زائفاً وغشَّاشاً ، وأن ديانته خرافات مضحكة » ، لذلك لم يحصل على منصب جامعي ، وعُيِّن مدرِّساً في إحدى الثَّانويات ، وثارت ثائرة رجال الدِّين عندما اقتُرِح لإدارة ثانويَّة ، فنُقل إلى متحفٍ للنقود ، لا يرى أحداً ، ولا يراه أحد ، لا يتَّصل بأحد ، ولا يتَّصل به أحد .

☆ ☆ ☆

وعدت إلى كتاب « المستشرقون » للأستاذ نجيب عقيقي ، لأرى ما كتبه عن بروكلمان ـ مثلاً ـ وقد انتشر كتابه « تاريخ الشعوب الإسلاميَّة » في مكتباتنا العربيَّة ، فوجدته في الجزء الثالث ، الصفحة ٤٢٤ وما بعدها يقول عن بروكلمان الذي قدَّم ما يرضي رجال الكنيسة : « وطارت له شهرته في فقه العربيَّة وقراءتها قراءة فصيحة ، وكتابتها كتابة سليمة ، وفي التَّاريخ الإسلامي ، وتاريخ الأدب العربي ، **حتَّى عُدَّ إماماً من أئمتها** » ، وعُيِّن أُستاذاً لها في الجامعات الألمانيَّة ، وانتخب عضواً في المجامع اللُّغوية العربيَّة .

ويقول الأستاذ عقيقي في كتابه أيضاً : « اشتهر بروكلمان بجم نشاطه ، وغزارة إنتاجه الَّذي **اتَّصف بالموضوعيَّة والعمق والشُّمول والجِدَّة ، مما جعله مرجعاً للمصنِّفين في التاريخ الإسلامي والأَدب العربي ، إذ قلَّ من لم يستند إليه أو يتوكَّأ عليه في مصنَّفاته** » .

عجبت من قول الأستاذ عقيقي ، ودهشت من وصفه لبروكلمان « بالإمامة » في التاريخ الإسلامي ، وبالموضوعيَّة والعمق والشُّمول والجِدَّة ، وتذكَّرت أن كتاب « تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة » الَّذي قرأته منذ ربع قرن ، دوَّنت على هوامشه عشرات الملاحظات ، وسجَّلت عشرات الإجابات والرُّدود على افتراءاته ودسائسه ، فعدت إلى الكتاب المذكور دارساً مراجعاً له من جديد ، فزاد عجبي واستغرابي من عربي يصف كارل بروكلمان « بالإمامة » في التَّاريخ الإسلامي ، وبالموضوعيَّة والعمق والشُّمول والجِدَّة ، ويجعله ممن يتَّكِئُ عليه المؤرِّخون العرب في مصنَّفاتهم .

وحتَّى الأستاذ د. حسين مؤنس في مقالته « كارل بروكلمان : مستشرق أسدى للفكر أجلَّ الخدمات » ، والمنشورة في صفحة ٣٧ من العدد ١٣٩ في مجلة العربي يقول بعد حديثه عن « تاريخ الأدب العربي » : « وفي ذلك الوقت كان **كتابه المجيد الثَّاني (تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة) يترجم إلى العربيَّة ، وهذا**

الكتاب ينطق بتقدير بروكلمان للعرب ومشاركته إياهم في كفاحهم للحريَّة والكرامة والرَّخاء » .

لقد شاركنا بروكلمان في كفاحنا للحريَّة والكرامة والرَّخاء .

شاركنا ، عندما كان شعوره مع يهود بني قريظة ، فلم يعترف بخيانتهم أثناء غزوة الخندق وحصار الأحزاب للمدينة المنوَّرة ، فقال ٠ « كان سلوكهم غامضاً » ، ص ٥٤ ، بعد أن قال في ص ٥٢ : إجلاء بني النَّضير « لسبب واهٍ » ، وشاركنا بقوله : « فشل النَّبي في الحديبية ، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهوديَّة الغنيَّة في خيبر » ، ص ٥٦ .

وشاركنا ، بوصفه لأبي بكر الصِّدِّيق : لم يحالفه التَّوفيق في الحكم على الحالة الدَّوليَّة ، ص ٩٠ ، والصِّدِّيق هو الَّذي خطط لانتصار أُمتنا على الدَّولتين العالميتين آنذاك .

وشاركنا عندما جعل انتصار المسلمين في اليرموك ، سببه الأوَّل والأخير « الأرمن الَّذين كانوا يؤلِّفون نصف جيش الرُّوم ، كانوا حاقدين على الدَّولة البيزنطيَّة غير راغبين في القتال » ، ص ٩٥ ، وجعله سبب انتصارات المسلمين في فتوحاتهم في بلاد الشام ومصر ، أمَّا في الهند ، وفي إسبانية ، فيعيد سبب انتصار المسلمين إلى ضعف الحكام ، وتمزُّق تلك البلاد .

وشاركنا كفاحنا عندما قال ص ١٠٠ : « الغزاة العرب يجوسون خلال الدِّيار غانمين مخرِّبين » .

وشاركنا كفاحنا للحريَّة عندما قال مفترياً كاذباً : « وهدم صلاح الدِّين بعد تحرير القدس أماكن العبادة النَّصرانيَّة » ، ص ٣٥٧ ، مع أن التاريخ سجل لصلاح الدين بحروف من نور ، أمره بصيانة وترميم أماكن العبادة النَّصرانيَّة بعد تحرير القدس من أيدي الدُّخلاء الصَّليبيِّين .

وشاركنا في كفاحنا للحريَّة والكرامة والرَّخاء ، عندما وصف مجاهدينا في البحر المتوسِّط ، ضدَّ الغزو الإسباني لشواطئنا العربيَّة في الشَّمال الإفريقي ، بأنَّهم قراصنة ، وأعمالهم قرصنة ، ص : ٤٥٣ و ٤٧١ و ٦٢٠ .

وشاركنا في مشاعرنا ـ لا في كفاحنا ـ عندما وصف الإسلام ص ٦٠٦ بالمبدأ الذي أبلته الأيَّام وطرحته وراءها ظهريّاً .

وشاركنا في كفاحنا عندما اعتبر الغزو الفرنسي للجزائر واستعمارها « فتحاً » ، ص ٦٢٠ ، بينما وصف جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي « بالتَّعصُّب الدِّيني » ، ص ٦٢٥ ، و ٦٢٧ .

وشاركنا في كفاحنا عندما جعل الفتح العربي الإسلامي وتحرير مصر « عبوديَّة » تطاولت ألف سنة ، وأيَّام الاستعمار البريطاني جاء سعد زغلول محرِّراً موقظاً للمصريين ، ص ٧٣٣ .

أيَّةُ مشاركة هذه ، لمن وصف زوراً وبهتاناً « بالإمامة » في التَّاريخ الإسلامي ، وبالموضوعيَّة والعمق والشُّمول والجِدَّة ، وأُسلوب وعبارات التَّهكُّم واضحة في كتابه « تاريخ الشعوب الإسلاميَّة » ؟

سخرية لا تليق بمؤرِّخ عادي ، فكيف نقبلها ، أو نتغاضى عنها وقد جاءتنا من « الإمام » في التاريخ الإسلامي ؟

قال ص ٩٣ : « فقد كان فريق من العرب يعيشون في ظل الامبراطوريَّة البيزنطيَّة ، كما كان فريق منهم يعيشون في ظل الامبراطوريَّة الفارسيَّة ، فمن الضَّروري أن يحمل إليهم إخوانهم المؤمنون بركات الإسلام وآلاءه » .

وقال في ص ١٩٩ : « فالواقع أن المأمون انطلق في سبيله إلى طُوس مباشرة ، ليستمد القوَّة من طريق الصلاة على ضريح أبيه الرَّشيد » .

« ولما كان الإسلام الرَّشيد ينهى عن تصوير الكائنات الحيَّة ، فلم يكن بدٌّ من أن تغطَّى روائع الفسيفساء الذَّهبيَّة الَّتي تزيِّن العقود ، وتمثِّل الفنَّ البيزنطي أحسن تمثيل ، بطبقة من الكلس » ، ص ٤٣٢ .

« أمَّا في المراسيم المتعلِّقة بالشُّؤون المالية ، وفي القرارات المبنيَّة على القانون الدِّيني ، الشَّرع الحنيف ، فقد كان الدَّفترداريَّة ، وقضاة العسكر ، يحملون الطُّغراء أيضاً » ، ص ٤٧٤ ، وكرر في هزء وسخرية (الشَّرع الشَّريف) ، ص ٤٧٩ أيضاً .

السُّلطان عبد العزيز « لا يتَّصل إلاَّ بالدَّراويش ومفسِّري القرآن ، وكان هؤلاء قد حشوا دماغه بأحلام خياليَّة عن عظمة السُّلطان الدِّينية ، وقوَّته الدَّوليَّة » ، ص ٥٧٤ .

« وفي سنة ١٨٥٧ م ظهرت في قبيلة يَنِّي نبيَّة اسمها لالا فاطمة ، فاتبعتها القبائل المجاورة لها .. » ، ص ٦٢٧ ..

هذا بعض هزئه وسخريته ، مع أن الإسلام لم يكن ينتظر كارل بروكلمان ليتحدَّث عن « بركاته وآلائه » ، ولم يكن ينتظره ليقول عنه إنه رشيد ، فالإسلام عرفته الدُّنيا قبل بروكلمان وبعده ، عرفته تشريعاً ما جاراه تشريع آخر في إحقاقه للحقِّ ، وتنفيذه للعدل ، ونظرته للإنسان إنساناً بغض النَّظر عن جنسه ولونه وعقيدته . إنَّه رشيد لأنَّه استطاع أن يقضي على جذور الوثنيَّة في نفوس أتباعه ، فأبعدهم عن الخضوع لغير الله عزَّ وجلَّ ، فحقَّق الوحدانيَّة التي هي أساس الدِّيانات السَّماوية ، بينما نجد العالم من حول الإسلام غارقاً في بحر من الوثنيَّة المقنَّعة من عبادة بشر ، وتقديس لأوثان وصُوَر ..

وبروكلمان يعلم بأنَّ لكلِّ عقيدة فلسفة خاصَّة بها ، ونظرة تنظر للحياة من خلالها ، ومن هذه الفلسفة والنَّظرة ينبع الفنُّ والأدب ، وكلُّ شيء في حياة

أصحاب هذه العقيدة ، ولذلك فإن الفنّ عند المسلمين ، ليس بالضرورة أن يكون هو نفسه عند بيزنطة وغيرها ، ولا يقبل الإسلام أن تبقى فلسفة بيزنطة ، أو فلسفة الفرس ، أو بالأحرى فلسفة أصحاب تلك العقائد البائدة والوثنيّة هي الموجة السّائدة في حركة الفنّ عند المسلمين ، ومن الطّبيعي أن يغطي ما لا يتّفق مع نظرته إلى الحياة ، وأن يحلّ محل ذلك فنٌّ منبثق من صميم المجتمع الجديد ، معبِّراً عمَّا يختلج في نفوس أبناء هذا المجتمع ، ولذلك يمكن لبروكلمان ـ وأمثاله ـ أن يرى لوحات الفسيفساء الرّائعة الّتي يتباكى على جمالها تزيِّن جدران مسجد المسلمين في دمشق ـ المسجد الأموي ـ ، وليته يتباكى على ما هو أثمن من الفنّ ، ألا وهو الإنسان ، الّذي اضطُهد وعُذِّب ونُكِّل به وقُتِلَ على أيدي أبناء جلدته وعقيدته في إفريقية وآسية وأمريكة .

فالسُّخرية والهزء ، يدلاّن على تعصب وحقد ، كنا نتمنّى أن يبتعد عنهما من وُصِفَ (بالإمامة) في التّاريخ الإسلامي ، مع الموضوعيّة والعمق والشّمول والجِدَّة .

والسُّخرية والهزء يكفيان لإبعاد كلمة (المجيد) عن كتاب بروكلمان « تاريخ الشُّعوب الإسلاميّة » ، والّذي لا ينطق بتقدير بروكلمان للعرب ، ولا بمشاركته إيّاهم في كفاحهم للحريّة والكرامة والرَّخاء .

وهذا وحده خطب جلل ، فكيف ببروكلمان ، وقد كتب تاريخنا منطلقاً من التّشكيك ، والرّفض العشوائي ، معتمداً على الرّوايات الضّعيفة الشّاذّة ، والّتي رفضها النُّقاد الباحثون ، واستغربها العلماء المطّلعون ، بل وأشاروا إلى نشوزها ، لكن بروكلمان ـ كغيره من المستشرقين الّذين قدّموا ما يرضي رجال الكنيسة ، ولم يكتبوا حقائق تثيرهم ـ بنى فكره ورأيه مسبقاً في نفسه ، ثمّ جاء إلى وقائع التّاريخ العربي الإسلامي يطوّعها لما يؤيّد فكرته وخطّتهِ المرسومة ، يطمس ، ويضعّف ، ويمرِّض ما دون ذلك ، فقدّم بروكلمان تاريخنا ، موسّعاً الجزئيّة ، متغاضياً عن الكليَّة ، مع تفسيرات عجيبة ، ومواقف غريبة ، وأقوالٍ ينبو عنها الذّوق السَّليم ،

والفكر الموضوعي ، لا العميق والشَّامل ، بل وحتَّى غير العميق ، وغير الشَّامل .

وقبل البدء بدراسة ما افتراه (الموضوعي) بروكلمان على تاريخنا ، وتفنيد ما دسَّه (إمام التَّاريخ الإسلامي) على تراثنا ورجالاتنا ، نذكِّر بأنَّه كان عليه بدل اعتماده على مؤلفات المستشرقين الَّذين سبقوه ، أمثال يوليوس فلهاوزن ، ونولدكه ، ولامانس .. ـ وهذا ما سنفصِّله في خاتمة هذا الكتاب ـ كان يجب عليه الرُّجوع إلى المصادر العربيَّة ، إلى معين تاريخنا ، ليقرأها قراءة شاملة ، ويتمثَّل مادتها تمثُّلاً كاملاً ، ويعيش أجواءها وبيئتها ، وينهل منها بعد تجرُّده من سيطرة اللاَّهوتيِّين ، وهذا بالنسبة للمؤرخ كما لاحظ المستشرق الألماني بيكر C. H. Becker هو الطَّريق الوحيد الصحيح ، لا الطريق الوحيد الممكن لكتابة تاريخ أُمَّة .

لماذا العودة إلى فلهاوزن ، ونولدكه ، ولامانس .. والبعد عن الطَّبري واهماله ، مع ابن الأثير ، وابن سعد .. وأي عذر لبروكلمان ، وهو الَّذي يتقن العربيَّة قراءة وكتابة ؟

فأين الموضوعية ؟

وأين العمق والشُّمول والجِدَّة ؟

وأين تقدير العرب ومشاركتهم في كفاحهم للحريَّة والكرامة والرَّخاء ؟

فإلى « كارل بروكلمان في الميزان » ، وأيُّ ميزان هو ؟ إنَّه ميزان الحقائق التَّاريخية ، ميزان يزن به كلُّ دارس مطَّلع على تاريخنا الإسلامي ، ميزان يزن والأصابع والأهواء بعيدة عن كفَّتيه .

نسأله تعالى التَّوفيق ، وله الحمد أوَّلاً وآخراً .

دمشق في : ١ المحرَّم الحرام ١٤٠٨ هـ
٢٥ آب (أغسطس) ١٩٨٧ م

شوقي أبو خليل

كارل بروكلمان

Carl Brockelmann

[١٨٦٨/٩/١٧ م - ١٩٥٦/٥/٦ م]

☆ وكانت أشد أماني إلحاحاً عليّ أن أعيش فيما وراء البحار على ظهر سفينة ، أو ترجماناً ، أو مبشِّراً دينياً .

كارل بروكلمان مستشرق ألماني ، ولد في مدينة روستوك في ١٨٦٨/٩/١٧ م(١) ، وفي المدرسة الثّانويّة في روستوك بدأت تظهر ميوله إلى الدّراسات الشّرقيّة ، يقول بروكلمان : وفي الصّفوف العُليا - من المدرسة الثّانوية - تجلّت الميول الّتي ستسيطر على حياتي بكل وضوح ، وكانت هناك جمعيّة للقراءة ، تجتمع مرّتين في الأسبوع ، وفي يوم الأربعاء كنا نقرأ مجلة « الجلوبس : الكرة الأرضيّة » ، وفي يوم السّبت نقرأ مجلّة العالم الخارجي Ausland ، وهاتان المجلّتان كانتا أبرز المجلاّت الجغرافية ، وكان ذلك الوقت هو وقت الاكتشافات الجغرافيّة العظيمة في آسية وإفريقية(٢) ، وعن هذا الطّريق ارتبط خيالي بالمشرق ، وكنت أهتم في المقام الأوّل بما يرد فيهما من

(١) مراجع هذه الترجمة :
- موسوعة المستشرقين ، د. عبد الرحمن بدوي ، دار العلم للملايين ، الطّبعة الأولى : شباط (فبراير) ١٩٨٤
- المستشرقون ، نجيب العقيقي ، دار المعارف ، الطبعة الرّابعة ، (دون تاريخ) .
- الأعلام ، خير الدين الزّركلي ، دار العلم للملايين ، الطبعة السّادسة : تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤

(٢) لم يكن هدف الكشوف الجغرافيّة الأوربية في القرنين الخامس عشر والسّادس عشر الميلاديّيْن ، معرفة طريق مباشر إلى بلاد التّوابل في جنوب شرقي آسية فقط ، بل : التبشير بالنّصرانيّة ، والوصول إلى ذهب الهند لتغطية نفقات تجريد حملة صليبيّة جديدة ، انظر : « في طلب التّوابل » تأليف : سونيا ي. هاو ، مشروع ١٠٠٠ كتاب (٩٨) ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، سنة ١٩٥٧

أخبار عن اللُّغات ، ولهذا فإنّني وأنـا لا أزال تلميـذاً في المـدرسـة الثّـانويّـة ، وضعت مشروعـاً لكتـاب نَحْوٍ للهجـة البـانتـو ، التي كان يتكلّم بهـا في المستعمرة البرتغـاليّـة أنجولا ، وقد احتفظت بهذا المخطّط وقتـاً قليلاً ، وكانت أشـدُّ أمـاني إلحـاحـاً عليّ أن أعيش فيما وراء البحـار ، وشجـع على هـذه الأُمنيـة الأحـوال السّـائـدة آنـذاك في روستوك ، ذلك أنّه بسبب انحدار حياة الأعمال في روستوك ، فقد سعى كثيرون من التُّجار إلى العمل فيما وراء البحار[١] .

وكان أمله أن يعمل فيما وراء البحار طبيباً على ظهر سفينة ، أو ترجماناً ، أو مبشّراً دينيـاً ، ولهـذا السّبب كان يحضر دروس الأستـاذ نرجر Nerger معلّم اللُّغـة العربيّة في تلك المدرسة الثّانويّة ، ويقول إنه اتقن العبريّة إلى درجة أنّه استطـاع أن يترجم في امتحان العبريّـة في البكالوريـا نصّـاً عبريـاً عن سِفْر (عموص) غير مشكول ، ترجمة تلقائيّة شفويّة ، كذلك بـدأ يـدرس اللُّغـة الآراميّـة الكتـابيّـة ، واللُّغة السّريانيّة ، وهو لا يزال طالباً في الثّانوي .

وفي ربيع ١٨٨٨ م ، انتقل إلى استراسبورج لحضور محـاضرات نـولـدكـه[٢] ،

---

(١) موسوعة المستشرقين ، ص ٥٧ ، عن ترجمته الذّاتيّة ص ٢٠ ، والّتي فرغ بروكلمان منها في مـدينـة هَلّه ١٤/٩/١٩٤٠ م ، أي قبل ثلاثة أيـام من بلوغـه سن التّـاسعـة والسّبعين ، ونشر هـذه التّرجمـة رودلف زلهيم Rudolf Sellheim ، الأستاذ في جامعة فرنكفورت ، والمشرف على مجلة : Oriens .

(٢) تيـودور نـولـدكـه Theodor Noldeke : [١٨٣٦ ـ ١٩٣١ م] يعـد شيـخ المستشرقين الألمـان غير مُـدافَع ، أتقن العربيّة والسريـانيّة والعبريّـة استطـاع مـع استطـالـة عمره حتّى جـاوز الرّابعـة والتّسعين أن يظفر بهـذه المكانـة ليس فقـط بين المستشرقين الألمـان ، بل بين المستشرقين جميعـاً ، حصل على الـدكتـوراه في ١٨٥٦ م برسـالـة عن تـاريـخ القرآن وهـو في سن العشرين ، وفي عـام ١٨٦١ م عُيِّن معيـداً في جـامعـة جيتنجن ، وكُلِّف بـإلقـاء دروس في التّفسير عن سفر أشعيـا ، ودروس في نحو اللُّغة العربيّة ، ثمّ عُيِّن في جامعـة كيل Kiel أستـاذاً للُغـات السّـاميـة ابتـداء من ١٨٦٤ ، وحتى ١٨٧٢ م ، وفي ربيع ١٨٧٢ م عُيِّن أُستـاذاً في جـامعـة استراسبورج حتّى ١٩٢٠ م ، قضى السّنوات الأخيرة من حياته في منزل ابنه في مدينـة كارلسروهـه Karlsruhe ، حيث توفي في ٢٥ كانون الأوّل « ديسمبر » ١٩٣٠ م .

يقول بروكلمان : « وعنده تعلمت الكثير جداً ، وعند نولدكه كنت أنا الوحيد في معظم المحاضرات » .

ودرس بروكلمان على هوبشمن Hubschmann اللُّغةَ السَّنسكريتيَّة ، واللُّغة الأرمنيَّة مع راهبين أرمنيين ، أرادا الحصول على الدكتوراه على هوبشمن ، كما درس على دومشن Dumischen اللُّغةَ المصريَّة ، قال بروكلمان : وكان يرافقني يهودي غني يُدْعى اشبيجلبرج Spiegelberg ، حصل بعد ذلك على الدكتوراه من جامعة استراسبورج .

وفي ١٨٨٩ ـ ١٨٩٠ م ، كلَّفه نولدكه القيام بدراسة عن : (العلاقة بين كتاب « الكامل في التاريخ لابن كثير » ، وكتاب « أخبار الرُّسل والملوك للطَّبري ») ، ونالت هذه الرسالة الجائزة في ربيع ١٨٩٠ م ، ومكَّنه ذلك من طبعها كرسالة للدكتوراه الأُولى ، فطُبِعت في استراسبورج سنة ١٨٩٠ م .

وأمضى بروكلمان صيف ١٨٩٠ م مدرِّساً خصوصيّاً في بيت العالم الفسيولوجي جلوش Glotz في منزله الرِّيفي في نويدورف Neudorf .

وفي أوَّل تشرين الأَوَّل « أكتوبر » ١٨٩٠ م ، عُيِّن مدرِّساً في المدرسة البروتستنتيَّة في استراسبورج ، أوَّلاً تحت التَّمرين ، وبعد ذلك مدرِّساً مساعداً ، وفي الوقت ذاته ، واصل دراساته العربيَّة ، وبدعوة من نولدكه ـ وكان قد قرأ معه في شتاء ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩ م القسم الأَوَّل من « ديوان لبيد » ، الَّذي نُشِرَ في ڤيينة ـ نَشَر التَّرجمة الألمانيَّة الَّتي قام بها أنطوان هوبر Anton Huber الَّذي توفي مبكِّراً ، وبعد ذلك نشر القسم الثَّاني من هذا الديوان ، وما تبقَّى للبيد من شذرات وترجمه إلى الألمانيَّة ، مستنداً إلى دراسات تمهيديَّة ، أعدها هوبر وهنيرش توربكه ، وصدر ذلك كلُّه في ١٨٩١ م .

ولكن ، ما لبث أن تبيَّن لبروكلمان أنَّه لا مستقبل له في هذه المدرسة

الثَّانوية البروتستنتية ، لهذا قرَّر أن يُعِدَّ نفسه للانخراط في التَّدريس الجامعي ، ومن أجل هذا انتقل في تشرين الثاني « نوفمبر » ١٨٩٢ م إلى برسلاو ، وحصل على دكتوراه التَّأهيل للتدريس في ٢٨ كانون الثاني « يناير » ١٨٩٣ م برسالة عنوانها : « عبد الرَّحمن أبو الفَرَج ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الآثار ، في مختصر السِّيَر والأخبار ، بحث وفقاً لمخطوط برلين » .

وفي تلك الأثناء أيضاً ، كان بروكلمان مشغولاً بجمع مواد لِـ « معجم سرياني » . (صدر في شباط « فبراير » ١٨٩٥ م) .

وكان سخاو[١] Sachau قد دعاه للاشتراك في إعداد نشرة نقديَّة محقَّقة لِـ « طبقات ابن سعد » ، والسَّفر إلى لندن واسطنبول للاطلاع على مخطوطات هذا الكتاب ، فسافر بروكلمان في آب « أغسطس » ١٨٩٥ م إلى لندن ، وفي أيلول « سبتمبر » سافر إلى اسطنبول ، حيث أمضى شتاء عام ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦ م ، ولم يكتفِ بأداء المهمة الموكولة إليه الخاصَّة بطبقات ابن سعد ، بل انتهز الفرصة لنسخ نسخة من « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، وظهر هذا المجلَّد بتحقيقه في برلين ١٩٠٤ م ، وقد طُبع بعناية أكاديميَّة برلين ، الَّتي تولَّت الإنفاق على الكتاب بكل أجزائه .

أمَّا فيما يتَّصل بنشر « عيون الأخبار » ، فقد تولَّى أمره بنفسه ، ووجد في E. Felber في ڤيار ، ناشراً مستعداً لتحمُّل نفقات الطَّبع بشرط أن يقدِّم إليه بروكلمان في الوقت نفسه كتاباً آخر أوفر حظاً من الرَّواج ، لأنَّ النَّص العربي

---

(١) كارل إدوارد سَخَاوْ Karl Edward Sachau [١٨٤٥ ـ ١٩٣٠ م] ، مستشرق ألماني ، عُيِّن في سنة ١٨٧٦ م أستاذاً للُّغات الشرقية في برلين ، ساح في بلاد الشام والعراق ، ومما نشره بالعربية « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، و « تحقيق ما للهند من مقولة » كلاهما للبيروني ، وأربعة مجلدات من « طبقات ابن سعد » ، والمعرَّب من الكلام الأعجمي للجواليقي ، [الأعلام : ٢١١/٥] .

« لعيون الأخبـار » لا يهم إلاَّ القليل من المتخصِّصين في المكتبـات العـامَّـة ، وكان هـذا الشرط ، أو الاقتراح الشَّرط ، هو الَّـذي دفـع بروكلمـان إلى تصنيف كتـابـه « تـاريـخ الأدب العربي » Geschichte der Arabischen Littereatur ، وقـد ظهر النِّصف الأوَّل من الجـزء الأوَّل في ١٨٩٧ م ، والنِّصف الثَّـاني في ١٨٩٨ م ، والجـزء الثاني في ١٩٠٢ م . ثمَّ أعاد بروكلمان طبع الطبعة الأُولى في مجلَّـدين مع توسعـات كثيرة ، وجعلها متمشِّية مع طبعة الملحق هذه في ليدن ١٩٤٣ ـ ١٩٤٩ م ، وهكـذا أصبح الكتاب في وضعه النِّهائي مؤلَّفاً من خمسة مجلَّدات : المجلَّد الأوَّل والثَّاني هما الأصل ، والمجلَّدات الثلاثة الباقية هي الملاحق .

وفي ربيـع ١٩٠٣ م دُعي بروكلمـان ليكـون أُستـاذاً ذا كرسي في جـامعـة كينجزبرج ، وبقي في هـذا المنصب حتَّى ١٩١٠ م ، وهنـا أَلَّف كتـابـه « موجـز النحو المقارن للُّغات السَّامية » .

وفي ١٩١٠ م دُعي ليشغل أستاذاً في جامعة هالَّه Halle ، حيث بقي فيها إلى سنة ١٩٢٢ م .

وفي ١٩٢١ م عُرِض كرسي الدِّراسات الشَّرقيَّة في جامعة بون على بروكلمان ، كما عرض عليه الكرسي الَّذي كان يشغله سخاو ، ففضل كرسي برلين ، لأنـه رجـا أن يجد في برلين أنسب الظروف والإمكانات لمواصلة عمله ، لكن لم تتحقَّق آماله ، ولم يستطـع الانتقـال لـلإقـامـة في برلين لمـدة يـومين في الأسبـوع طـوال فصلَيْن دراسيين ، ولهذا تخلَّى عن منصبه في برلين بعد عام من تعيينه ، وعاد إلى جـامعـة برسلاو ، وفي صيف ١٩٣٢ م انتخب مديراً لجامعة برسلاو ، لكنه حـدث في أثنـاء إدارتـه أن قـام الطلاب النـازيـون بمظـاهرات ضـد تعيين الأسـتـاذ Cohn ـ وهـو يهودي ـ مما أدّى إلى إغلاق الجامعة لمدَّة ثلاثة أيَّام ، ولما كان بروكلمان قـد حـاول الدِّفاع عن حريَّة الجامعة في اختيار الأساتذة ـ أيّـاً كانت ديـانتهم ـ فـإنَّـه اضطر إلى الاستقالة من منصبه مديراً للجامعة في شهر آذار « مارس » ١٩٣٣ م ، بعـد أن

استولى النَّازيُّون على السُّلطة في ٣٠ كانون الثاني « يناير » ١٩٣٣ م ، لكنه احتفظ بكرسي الأُستاذيَّة في الجامعة ، وفي خريف ١٩٣٥ م تقاعد ، وانتقل في ربيع ١٩٣٧ م إلى مدينة هالَّه ، لأنه أراد الاستفادة من مكتبة « الجمعية الشَّرقيَّة الألمانيَّة » .

وكان بروكلمان في الفترة من ١٨٩٥ إلى ١٩١٤ م يتناول بالتَّعليق ما يصدر عن تاريخ الإسلام من مؤلَّفات ، وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة عاد ليكتب المجلَّد الكبير « تاريخ الشُّعوب الإسلامية » Geschichte der Volker und Staaten وقد ظهر سنة ١٩٣٩ م ، وهذا الكتاب يعطي صورة شاملة لتاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة كلِّها منذ بداية الإسلام حتَّى ١٩٣٩ م معتمداً على يوليوس فلهاوزن[١] ، وليون كيتاني[٢] .. فيما يتعلق بتاريخ صدر الإسلام والدَّولة الأُمويَّة ، والَّذي ترجمه إلى العربية سنة ١٩٤٩ الأستاذان منير بعلبكي ونبيه فارس ، كما ترجم إلى التركيَّة والهولنديَّة والفرنسيَّة .

وتُرجم إلى الانكليزيَّة ونُشِر في ١٩٤٧ م مع فصل عن الحوادث من ١٩٣٩ إلى

---

(١) يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤ ـ ١٩١٨ م) ، مستشرق ألماني ، درَّس اللاَّهوت ، ثمَّ اللُّغات الشرقيَّة في مدينة هالَّه ، أشهر كتبه « تاريخ الدَّولة العربيَّة من ظهور الإسلام إلى نهاية الدَّولة الأُمويَّة » ، ترجمه د. محمد عبد الهادي أبو ريدة إلى العربية ضمن سلسلة « الألف كتاب : ١٣٦ » القاهرة : ١٩٥٨ ، فنبَّه إلى « أن آراء مؤلف هذا الكتاب تحسب عليه وحده » ، لانحرافه في نظرياته عن الحقيقة ، وله تأليف عن الأسفار المقدسة ، ذهب فيها مذهب الإباحيين ، [انظر مقدمات الترجمة العربية « لتاريخ الدولة العربية » ، والأعلام : ٨/٢٦٠] .

(٢) لِيُون كيتاني (١٨٦٩ ـ ١٩٢٦ م) ، مستشرق إيطالي مؤرخ ، أمير ، كان يحسن سبع لغات منها العربيَّة والفارسيَّة ، قام برحلات إلى الشَّرق ، ولا سيا الهند وإيران ومصر والشَّام ، ألَّف كتاب تاريخ الإسلام ، وطبع منه سنة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٨ ثمانية مجلَّدات ضخمة ، انتهى فيها إلى سنة ٤٠ للهجرة ، وكان يرجو أن يُفسح في أجله ليكمل القرن الأوَّل للإسلام في ٢٥ مجلَّداً ، [الأعلام : ٥/٢٥٠] .

١٩٤٧ كتبه يهودي متعصّب متميّز يدعى M. Perlmann ، شوّه فيه القضيّة الفلسطينية[١] .

وكان على بروكلمان في ١٩٤٥ بوصفه متقاعداً من جامعة برسلاو أن يعمل مؤقّتاً في منصب محافظ لمكتبة « الجمعيّة الشّرقيّة الألمانيّة » ، فصرف كل همّه لإعادة تنظيمها ، واستعادة مانُقِل من كتبها ومخطوطاتها ، وفي صيف ١٩٤٧ عُيِّن أستاذاً شرفياً ، وألقى دروساً ومحاضراتٍ - بناء على رغبته - في التُّركيات ، فدرَّس لطلابه اللُّغة التركية الحديثة ، وقرأ معهم كتب التاريخ العثماني القديمة ، وفسَّر وثائق تركية ، وألقى محاضرات في تاريخ الدَّولة العثمانيّة ، كما ألقى في الوقت ذاته ، دروساً في اللُّغات السريانيّة ، والأكديّة ، والآشوريّة ، والبابليّة ، والحبشيّة ، والقبطيّة ، وشرح مصادر مكتوبة بالسريانيّة تتعلّق بتاريخ الإسلام ، ونصوصاً يهوديّة آراميّة ، مع دروس في الفارسيّة الحديثة ، والفارسيّة الوسطى ، والأرمنيّة ، وهكذا كان بروكلمان يتقن إحدى عشرة لغة شرقيّة هي : العربيّة ، السريانيّة ، العبريّة ، الآشوريّة ، البابليّة ، الحبشيّة ، الفارسيّة الوسطى ، الفارسيّة الحديثة ، الأرمنيّة ، التركيّة ، القبطيّة ، إلى جانب إتقانه لليونانيّة ، واللاّتينيّة ، والفرنسيّة ، والإيطاليّة ، والإنكليزيّة ، والإسبانيّة ..

وفي صيف ١٩٥٣ تقاعد بروكلمان للمرّة الثّانية ، لكنه واصل التّدريس مع ذلك ، وفي أثناء قدّاس ليلة عيد الميلاد في كانون الأوّل « ديسمبر » ١٩٥٤ أُصيب بنزلة برد كانت عاقبتها وخيمة على صحته ، بيد أنّه استمر في عمله مستعيناً بواحد من أواخر طلاّبه ، هو د. كونردفون رابناو Rabenau ، فاستطاع أن يتمّ كتابه

---

(١) قال يوهان فوك Johann Fuck في مقالة عن بروكلمان (في ZDMG جـ ١٠٨ ، ١٩٥٨ ، ص ١٢ : « وأبدى فيها رأياً يخالف تمام المخالفة رأي بروكلمان » !! [موسوعة المستشرقين ، ص ٦٥] .

الأخير في « نظم اللُّغة العبريَّة » ، وقد ظهر هـذا الكتـاب بعـد وفـاتـه الَّتي كانت في : ١٩٥٦/٥/٦ م .

انتخب بروكلمـان في مجـامـع : برلين ، وليبزيـج ، وبـودابست ، وبـون ، ودمشق ، وجمعيات آسيويَّة كثيرة .

☆ ☆ ☆

أهم مؤلَّفاته[1] :

بمناسبـة بلوغ بروكلمـان سن السَّبعين ، صنَّف أوتو اشبيس Otto Spies سنـة ١٩٣٨ ثبتاً بمؤلَّفات بروكلمـان ، وكان هـذا الثبت الأسـاس في ثبت أوفى بمؤلَّفـات بروكلمان يشمل على خمس مئة وخمسة وخمسين رقماً بين تأليف كتـاب أو تحقيق أو مقالة أو بحث أو سيرة .. وأهمها :

- العلاقة بين كتاب الكامل في التـاريخ لابن كثير ، وكتـاب أخبـار الرُّسل والملوك للطبري ، رسالة الدكتوراه ، جامعة ستراسبورج ، ١٨٩٠ م .

- ديوان لبيـد مترجم عن طبعـة ڤيينـة ومـزوَّد بحـواشٍ ، والقسم الثـاني من ديوان لبيد المنشور وفقاً لمخلَّفات الدكتور أ. هوبر ، طبع في ليدن ١٨٩١ م .

- كتـاب تلقيـح فهـوم أهـل الآثـار في مختصر السِّيَر والأخبـار ، تـأليف عبـد الرَّحمن أبي الفَرَج ابن الجـوزي ، رسـالـة الأستـاذيـة ، جـامعـة برسلاو ، ١٨٩٣ م .

- المعجم السرياني ، طبع في برلين ١٨٩٥ م .

(١) عن « المستشرقـون » ، ص ٤٢٤ ومـا بعـدهـا ، و « المنتقى من دراسـات المستشرقين ، دراسـات مختلفة في الثقافة العربية » ، جمعها ونقلها إلى العربيَّة وعلَّق عليها د. صلاح الدين المنجد ، الجزء الأول ، ص ٢٦ وما بعدها ، ونحن نورد أعلاه أهم ما كتب أو حقَّق .. خصوصاً مـا يهم تـاريخنـا ولغتنا وتراثنا العربي الإسلامي .

ـ كتاب الوفا في فضائل المصطفى عن مخطوط ليدن ، طبع في ليبتسك ، ١٨٩٥ م .
ـ تاريخ الآداب العربية ، المجلّد الأوّل ، طبع في ڤيمار ١٨٩٨ م .
ـ رسالة في لحن العامّة للكسائي ، ١٨٩٨ م .
ـ مقالة في مؤلفات ابن المقفّع المختصّة بعلم البيان والبلاغة ، ١٨٩٩ م .
ـ كتاب عيون الأخبار تأليف ابن قتيبة ، الجزء الأوّل ، طبع في برلين ١٩٠٠ م .
ـ مختصر تاريخ الآداب العربية ، طبع في ليبتسك ، ١٩٠١ م .
ـ بيان عربي في جزيرة مالطة ، ١٩٠١ م .
ـ تاريخ الآداب العربية ، المجلد الثاني ، طبع في ڤيمار ١٩٠٢ م .
ـ كتاب عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، الجزء الثاني ، ستراسبورج ١٩٠٣ م .
ـ فهرست المخطوطات العربيّة والفارسيّة والتركية والعبرانية الموجودة في مكتبة برسلاو البلدية ، طبع في برسلاو سنة ١٩٠٣ م .
ـ كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ، المجلد الثامن الخاص بسِيَر النِّساء ، ليدن ١٩٠٤ م .
ـ الأجرومية العربية لسوتسين ، الطبعة الخامسة المصحَّحة والمحقَّقة ، طبع في برلين ١٩٠٤ م .
ـ في كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجُمحي ، مقالة في كتاب الدراسات الشرقية المقدّمة إلى نولدكه ، ١٩٠٥ م .
ـ كتاب عيون الأخبار ، تأليف ابن قتيبة ، الجزء الثالث ، ستراسبورج ، ١٩٠٦ م .
ـ تاريخ الآداب النّصرانيّة في الشّرق : الآداب السريانية والعربية النصرانية ، ليبتسك ، ١٩٠٧ م .

- كتـاب المفصّـل في علم النحـو والصّرف المقـارن للُّغـات السّـاميّـة ، المجلـد الأوّل : علم الأصوات والصّرف ، برلين ، ١٩٠٧ م .
- كتـاب عيون الأخبـار ، تـأليف ابن قتيبـة ، الجزء الرّابع ، ستراسبورج ، ١٩٠٨ م .
- فهرست المخطوطـات الشّرقيّـة - من دون العبرانيّـة - المـوجـودة في مكتبـة همبورج البلديّة ، القسم الأوّل : المخطوطات العربيّة والفارسيّة والتُّركيـة والملقيّـة والقبطيّة والسّريانيّة والحبشيّة ، همبورج ، ١٩٠٨ م .
- مختصر كتـاب علم النَّحـو والصّرف المقــارن للغــات السّــاميّــة ، برلين ، ١٩٠٨ م .
- الأجروميـة العربيّـة لسـوتسين ، الطَّبعــة السّــادســة المنقّحــة ، برلين ، ١٩٠٩ م .
- ملاحظـات شتّى عن تـاريخ الآداب العربيّـة ، مجموعـة دراسـات مقـدّمـة للأستاذ ديرنبورج ، ١٩٠٩ م .
- تاريخ الإسلام من بدئه إلى الوقت الحاضر ، دراسة في كتاب تاريخ العـالم المنشـور لبفلـوجــك - هــارتـونــج ، المجلــد الثــالث ، ص ١٣١ - ٣١٩ برلين ، ١٩١٠ م .
- كتـاب المفصّـل في علم النّحـو والصّرف المقـارن للُّغـات السّـاميّـة ، المجلّـد الثّاني ، علم النحو ، طبع في برلين من سنة ١٩١١ - إلى سنة ١٩١٣ م .
- تصحيحات كتاب عيون الأخبـار ، تـأليف أبي محمّـد عبـد الله بن مسلم بن قتيبة الـدينوري ، المطبوع في مطبعـة دار الكتب المصريّـة سنـة ١٣٤٣ - ١٣٤٩ ، مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ، مجلد ١٤ ، ص ١١١ - ١٢٦ ، سنة ١٩٣٦ م .
- تأريخ الآداب العربيّة ، الذّيل الأوّل ، ليدن ، سنة ١٩٣٧ .
- تأريخ الآداب العربيّة ، الذّيل الثاني ، ليدن ، سنة ١٩٣٨ .

ـ تأريخ الشعوب والدُّول الإسلاميَّة ، مونخن وبرلين ، سنة ١٩٣٩ .
ـ تأريخ الآداب العربيَّة ، الذَّيل الثالث ، ليدن ، سنة ١٩٤٢ .
ـ وشارك في « دائرة المعارف الإسلامية » بالمقالات التَّالية :

في المجلَّد الأوَّل : عبد الغني ، عبد القادر البغدادي ، العبدري ، الأبيوردي ، أبكاريوس ، أبو العيناء ، أبو عمرو ، أبو الفَرَج الأصبهاني ، أبو فراس ، أبو المحاسن ، أبو نعيم ، أبو نواس ، أبو شامة ، أبو عبيد ، أبو زيد ، عدي بن الرقاع ، العيدروسي ، عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعونيَّة ، الأخضري ، الأخفش ، الأعلم أبو الحجَّاج الشنتمري ، علي بن جهم السامي ، علي بن ميمون ، علي بن ظافر ، علي خان ، آلوسي زاده ، الأعمش ، الآمدي ، الأنباري ، العنحوري ، الأنطاكي ، عنتر بن شداد ، عرب فقيه ، الآداب العربية (مضمَّن في مقالة « جزيرة العرب ») ، العسكري ، الأزهري ، البيضاوي ، البيهقي ، بختيشوع ، الباقلأني ، البكري ، ابن العبري ، البيروني ، البرزالي ، بقطر ، البخاري ، البلقيني ، البوريني ، البرزُلي ، البستي ، إبراهيم بن محمَّد الدَّسوقي ، داود ، الدّواني ، الدّمشقي ، الدينوري ، الجنَّابي ، الجواليقي ، الجوبري ، الجرجاني ، الجويني ، (١٩١٣ م) .

وفي المجلَّد الثَّاني : الفاكهي ، فارس الشّدياق ، الفاسي ، الفهري ، الفيروزابادي ، الغزولي ، الحلبي ، ابن عبد ربه ، ابن أبي حجلة ، ابن عساكر ، ابن عطاء الله ، ابن أعثم الكوفي ، ابن بطوطة ، ابن الجوزي ، ابن حبان ، ابن قتيبة ، ابن نُباته ، ابن السراج ، ابن سُرَيْج ، عمران بن قحطان السدوسي ، القاضي الفاضل ، الكلبي ، كليلة ودمنة ، القلقشندي ، القليوبي ، كمال الدين ، الكرابيسي ، كرشوني ، القسطلاني ، القفطي ، الكندي ، الكسائي ، قدامة ، (١٩٢٧ م) .

وفي المجلّد الرّابع : السّعدي ، السيد الحميري ، سالم ، السُّكري ، الثّعالبي ، عشاق ، الوشاء ، اليعقوبي ، يوسف خاص الحاجب ، الزّمخشري ، (١٩٣٤ م) .

وفي المجلّد الثّالث : لبيد ، المدائني ، الميداني ، مقامة ، المقريزي ، مثل ، الماوردي ، الميورقي ، مهري ، ميخائيل صباغ ، مسعر بن مهلهل أبو دلف ، المبرد ، محمّد مرتضى ، المرتضى الشّريف ، النجاشي ، النهرواني ، النسوي ، النووي ، العَليمي ، الرّاغب الأصفهاني ، (١٩٣٦ م) .

☆ ☆ ☆

وبعد ..

فإلى تفنيد ودحض افتراءات ودسائس وأغاليط .. بروكلمان ، والتي سنوردها حسب تسلسل ورودها في صفحات (**تاريخ الشعوب الإسلامية**) ، وذلك بعد تصنيفها في خمس فصول هي :

١ ـ افتراءات بروكلمان على تاريخنا العربي الإسلامي حتى وفاة الرسول ﷺ .

٢ ـ افتراءات بروكلمان على عصر الخلفاء الراشدين .

٣ ـ افتراءات بروكلمان على العصر الأموي .

٤ ـ افتراءات بروكلمان على العصر العباسي .

٥ ـ افتراءات بروكلمان على تاريخنا الحديث .

☆ ☆ ☆

افتراءات بروكلمان

على تاريخنا العربي الإسلامي

حتى وفاة الرسول ﷺ

يقول بروكلمان :

« وابتداء من الألف الثالث قبل الميلاد ، شرعت جماعات من شعوب الجزيرة العربيَّة ، تندفع نحو الشَّمال في فترات من القحط بالغة الخطورة ، فإذا بالبابليِّين يَغْشوْن العراق ، ويقتبسون فيه ثقافة السُّومريين ، وإذا بالكنعانيين واليهود والآراميين يهبطون سوريَّة وفلسطين ، ويستعيرون مع الفينيقيين ثقافة الجنس المعروف بجنس الشَّرق الأدنى .. » ، ص : ١٥ .

ونحن نتساءل : هل وُجِدَت اليهوديَّة ، وبالتَّالي اليهود ، في هذه الفترة من التَّاريخ القديم ؟

وهل كانت اليهوديَّة واليهود في قلب جزيرة العرب ، حتَّى يقال خرج اليهود من جزيرة العرب مع الكنعانيين والآراميين[١] ؟

---

(١) طبعاً لم يخرجوا ، ولم يكونوا في الجزيرة العربية ، ونظريَّة كمال صليبي في كتابه « التوراة جاءت من جزيرة العرب » ، نظرية ميتة منذ نُشرت ، ومن أقوى الرُّدود عليها ونقضها : مقال الشيخ حمد الجاسر في « دراسات يمنيَّة » العدد ١٩/١٩٨٥ ، ومما قاله : « الصليبي لم يفرِّق بين أسماء المواضع وأسماء أفخاذ العشائر ، ومنهجه في البحث خاطئ ومبني على أوهام ومقارنات متناقضة » .
ومقال الدكتور محمود زايد في « دراسات يمنيَّة » العدد المذكور حيث قال : متى كانت التوراة مرجعاً تاريخياً لأرض التوراة ؟ التوراة محرَّفة ، وآخر التَّحريفات وقعت قبل أشهر فقط ،=

هل عُرِفَت اليهوديَّة قبل النَّبي موسى ؟
فمتى وجد موسى وأين كان ؟

لقد أصبح بحوزة العلماء معلومات وافية عن الهجرات العربيَّة القديمة من شبه جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب ، جميعها ثابتة ومؤكَّدة ، استناداً إلى النُّصوص والوثائق المكتشفة حديثاً ، وكلها تؤكِّد بما لا يترك مجالاً للشَّك أنَّ العرب القدماء ، هم الَّذين سادوا منطقة الشَّرق الأوسط ، ومن ضمنها فلسطين .

ويميِّز الباحثون بين أربع تسميات ، هي : العبرانيُّون ، الإسرائيليُّون ، الموسويُّون ، اليهود .

فالعبرانيُّون طائفة من القبائل العربيَّة في شمال جزيرة العرب في بادية الشام ، في الألف الثانية قبل الميلاد ، وكانت كلمة عبري مرادفة لابن الصَّحراء ، أو ابن البادية بوجه عام ، ولم يكن للإسرائيليين والموسويين واليهود أيُّ وجود بعد ، ويتَّضح من ذلك أنَّ عصر إبراهيم الخليل ، عصر عربي بذاته ، ليست له أيَّة صلة بعصر اليهود[1] .

أمَّا مصطلح « إسرائيل » ، فالمقصود به يعقوب حفيد إبراهيم الخليل ، وأبناؤه هم بنو إسرائيل الَّذين ورد ذكرهم في الأسفار ، ودورهم محصور في منطقة حَرَّان[2] ، حيث وطنهم الأصلي الَّذي ولدوا ونشؤوا فيه . أما فلسطين ، فهي

= ومقال السيد مفيد عرنوق في « المنبر » تحت عنوان : « اليهود ليسوا عرباً ، وعسير ليست يهودية » ، ونظرية صليبي تدل اليهود ، من حيث يدري أو لا يدري ، على الطريق المؤدِّية إلى تحقيق مطامعهم التَّوسُّعيَّة .

(١) العرب واليهود في التَّاريخ ، د. أحمد سوسة ، ص ٨٦ وما بعدها .

(٢) حَرَّان : قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرُّها يوم ، وبين الرَّقَّة يومان ، وهي على طريق الموصل الشَّام وآسية الصغرى ، [معجم البلدان : ٢/٢٣٥] ، فهي شمالي أرض الجزيرة السورية ، ضمن الأراضي التركية حالياً .

أرض غربتهم ، وقد وجدوا في القرن السَّابع عشر قبل الميلاد ، وهو نفس عهد إبراهيم الخليل ، وانتهى هذا الدّور الّذي ظهرت فيه تسمية « إسرائيل » بعد أن هاجرت أُسرة يعقوب إلى مصر ، وانضمت إلى يوسف عليه السَّلام ، واندمجت وذابت في البيئة المصريَّة كُلِّياً .

ثمَّ جاء دور « قوم موسى » في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، والموسويُّون كما تدل الأحداث ، هم من الجنود الفارّين على أرجح الاحتمالات ، تصحبهم جماعة كبيرة من بقايا الهكسوس ، وهؤلاء كانوا يدينون هم والنَّبي موسى بدين التَّوحيد الخالص ، الَّذي دعا إليه أخناتون فرعون مصر ، وهو غير دين اليهود الَّذي يدعو إلى عبادة الإله « يَهْوَه » الخاص بهم ، بوصفهم الشَّعب المختار ، وقد نسبه كتبة التوراة في وقت لاحق إلى موسى زوراً[1] .

ويستدل الباحثون من المدوَّنات التَّاريخيَّة القديمة ، على أن موسى كان قبل أن يوحى إليه بالنبوَّة ، قائداً مصرياً ، نشأ وتربّى في البلاط الفرعوني ، قاد حملة إلى الحبشة ، وشريعته لم يعثر على أيِّ أثرٍ لها ، ثُمَّ أخذ الموسويُّون بلغة كنعان وثقافتها وتقاليدها ، ومارسوا حتَّى ديانتها الوثنيَّة في أكثر فترات وجودهم بين الكنعانيين وسكان فلسطين العرب القدماء الأَصليين ، وانحرفوا عن ديانة موسى وشريعته ، هؤلاء هم الَّذين صاروا يُعْرَفون فيما بعد باليهود[2] .

فتسمية « يهود » ظهرت في القرن السَّادس قبل الميلاد ، وهي التَّسمية الَّتي أُطلقت على بقايا جماعة يهوذا الَّذين سباهم نَبُوخَذْنَصَّر[3] إلى بابل في القرن السَّادس قبل الميلاد ، وقد سمُّوا كذلك نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة ، وقد اقتبس هؤلاء قبيل السَّبي لهجتهم العبريَّة المقتبسة من الآراميَّة ، وبها دوَّنوا

(١) العرب واليهود ، د. أحمد سوسة ، ص : ٨٨

(٢) المرجع السَّابق ، ص : ٨٩

(٣) نبوخذ نصَّر (البابلي) : [٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م] .

التَّوراة الَّتي بين أيدينـا في الأَسر في بـابل ، أَي بعـد زمن موسى بثماني مئـة عـام ، لـذلـك صـارت تعرف هـذه اللَّهجـة (بـآراميَّـة التَّوراة) ، وقـد استعملوا الحرف المسمَّى بـالربـع ، وهـو مقتبس من الخـط الآرامي القـديم ، وهـذه بـلا شـك غير الشَّريعة الَّتي أُنزلت على موسى عليه السَّلام ، ويمكن أن نُطْلِق عليهـا اسم (توراة اليهود) ، لتمييزها عن (توراة موسى)[1] .

وبعد هذا كله.. لماذا يقحم بروكلمان اليهود بين الكنعانيين والآراميين ؟

إنَّنا سنلمس ـ بوضوح ـ تحيُّز بروكلمان إلى جانب اليهود ، وذلـك في فقرات أخرى أيضاً !!

☆ ☆ ☆

« ولا تزال بعض الأحـاديث تسمح للعربي الـدَّاخل في الإسـلام أَن يقـول في دعائه « اللّهم ارحمني ومحمَّداً ، ولا ترحم معنا أحداً » ، ص : ١٨ .

ماذا يقصد بروكلمان بقوله : بعض الأحاديث ؟

في تراث العرب المسلمين ، إذا قيل « الأحاديث » ، يكون المفهوم منها أقوال رسول الله ﷺ ، فمتى سمعنا بحديث يقول بهذا الدُّعاء .

وعبارة : « اللهم ارحمني ومحمَّـداً ، ولا ترحم معنـا أحـداً » وردت في حـديث عن أبي هريرة ، قـال : « قـام رسـول الله ﷺ إلى الصَّلاة ، وقمنـا معـه ، فقـال أعرابي وهـو ـ أي رسـول الله ﷺ ـ في الصَّلاة : اللهم ارحمني ومحمَّـداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، فلمَّا سَلَّم النَّبيُّ ﷺ قال للأعرابي : لقد حجَّرت واسعاً ، يريـد رحمـة الله » .

---

(١) المرجع السَّابق ، ص : ٨٩ أيضاً .

وفي فتح الباري ، كتاب الأدب ، الحديث ٦٠١٠ : [١٠/٤٣٨ و ٤٣٩] ، أنّه الّذي بال في المسجد ، وأنّه ذو الخويصرة . أو الأقرع بن حابس . وفي كتاب الوضوء ص ٣٢٤ : فتناوله النّاس بألسنتهم .. قاموا إليه فزجروه ، وعند البيهقي : فصاح النّاس به . وهدّأ ﷺ الموقف ، فقال الأعرابي : اللّهم ارحمني ومحمّداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، فردّ ﷺ العبارة بقوله : « لقد حجّرت واسعاً »[1] .

ولا ندري كيف فهم بروكلمان ـ وهو الّذي لا ينقصه فهم ـ من هذه العبارة ، أن الأحاديث تسمح للعربي الداخل في الإسلام أن يقول في دعائه : اللّهم ارحمني ومحمّداً ، ولا ترحم معنا أحداً ؟!

☆ ☆ ☆

« وليس من شك في أن زوال هذه الرقابة القويّة عن الحدود ، قد يَسّر الفتح الإسلامي لتلك البلاد أيضاً فيما بعد »[2] ، ص : ٢٤ .

ونحن نسأل بروكلمان : منذ متى كانت الرّقابة القويّة ؟ ومتى ضعفت ، ولماذا ؟

ونذكّره بأنّ المسلمين انتصروا في جزيرتهم العربية على أبناء عمومتهم ، ولم

---

(١) وخاض فيليب حِتّي في كتابه « تاريخ العرب المطوّل » بهذه العبارة أيضاً ، انظر ردنا عليه في ص ١٢٣ في كتاب : « موضوعيّة فيليب حِتّي في كتابه تاريخ العرب المطوّل » .

(٢) هذا الرأي وجدناه أيضاً عند جرجي زيدان في روايته « فتاة غسان » عندما جعل سبب انتصار المسلمين اختلال أمور الفرس والروم ، وتهدُّم حصونهم وقلاعهم ؟! « جرجي زيدان في الميزان ، ص ٤٢ وما بعدها » . ووجدناه أيضاً عند فيليب حِتّي عندما قال في تاريخه المطوّل ، ص ١٩٤ : « ولقد يسّر الفتح للعرب أسباب منها أن فارس وبيزنطة كانتا قد وهنتا بسبب الحرب فيهما أجيالاً طوالاً ، فاضطرتها هذه الحرب إلى إرهاق رعاياهما بضرائب قاسية أدّت إلى نفورهم » .

يكونوا في حرب من الحروب يوماً ، أضعاف عدوِّهم ، بل العكس صحيح ، مع أن البنية الجسديَّة واحدة ، والبيئة واحدة ، والظروف واحدة .

ولم يدخل المسلمون حرباً وهم أكثر عَدداً وعُدداً من عدوِّهم في جبهتي الرُّوم والفرس ، ألا يكفي أن مائة ألف متنصِّر كانوا مع الرُّوم في اليرموك ؟!

هذا .. وترتيبات الرُّوم والفرس عريقة ، وإمداداتهم وعتادهم عظيمان ، فمن يدرس جبهات القتال الروميَّة والفارسيَّة يجد خبرة سابقة ، وتجربة عريقة .

ولم يحارب المسلمون الرُّوم ثمَّ الفرس ، بل فتحوا جبهتَيْن في آن واحد ، يرموك مع قادسيَّة ، مصر مع نهاوند ..

لقد حاربوا دولتين كل منهما أغنى منهم بالرِّجال والمال والخبرة الطويلة السَّابقة ، فلماذا يغمط بروكلمان وينقص من روعة الفتح الإسلامي ؟

ولن نجعل الجهل بتاريخنا جواباً عن تساؤلنا !!

☆ ☆ ☆

« ومن هنا قدَّس العرب القدماء ضروباً من الحجارة في سَلْع[1] وغيرها من بلاد العرب ، كما يقدِّس المسلمون الحجر الأسود القائم في زاويةٍ من الكعبة في مكَّة » ، ص ٢٥/٢٤ .

« وفي وسط مكَّة تقوم الكعبة ، وهي بناء ذو أربع زوايا .. يحتضن في إحداها الحجر الأسود ، ولعله أقدم وثن عُبِد في تلك الدِّيار » ، ص ٣١ .

كان على بروكلمان أن يعرف مكانة الحجر الأسود عند عرب الجاهلية ، وسبب تقديسهم له ، وسبب بقاء تقديسه بعد الإسلام .

(١) سَلْعٌ : السُّلوع : شقوق في الجبال ، واحدها سَلْع وسِلْع . وسَلْعٌ : جبل بسوق المدينة ، قال الأزهري : سلع موضع بقرب المدينة ، [معجم البلدان : ٢٣٦/٣] .

وكان عليه أن يميِّز بين الوثن والصَّنم من جهة ، وبين الحجر الأسود الَّذي لم نسمع في الرِّوايات التَّاريخيَّة شيئاً عن عبادة العرب له .

لقد اتَّخذ العرب آلهتهم في الجاهليَّة من أشياء لاتحصى ، ومع ذلك لم يَرِد مطلقاً أن الحجر الأسود كان ضمن آلهتهم ، بل كانت له منزلة محترمة ، لأنَّه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة ، وبناء على ذلك ، الإسلام لم يقر « وثنيَّة » كانت في الجاهليَّة ، واستلام الحجر الأسود في الحج يرجع إلى اعتبار رمزي ، لا إلى تقديس الحجر ذاته ، لقد أعادت قريش بناء الكعبة ، واختلفت بطونها على من يعيد الحجر إلى مكانه ، وأقبل محمَّد الأمين قبل البعثة بخمس سنوات ، فدعوه لرجاحة عقله ، وحبِّهم له ، فهو « الأمين » . ليفصل في الأمر ، فبسط رداءه ، ووضع فيه الحجر ، وجاء من كل بطن رجل ، حمل من طرف الرِّداء ، حتَّى أوصله عليه الصلاة والسَّلام إلى موضعه ، فوضعه بيده الشَّريفة ، وأنهى مشكلة حرجة[١] .

وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً أمام هذا الحجر ، وقال : إنِّي أعلم أنَّك حجر لاتضر ولا تنفع ، ولولا أنِّي رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك .

ولهذا فليس تقبيله واجباً على النَّاس ، ولا يشترط بالحاج تقبيله ، وسبب احترامه : أنه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة ليس غير . ولم يكن في يوم من الأيام وثناً يعبد ، لا في الجاهليَّة ، ولا في الإسلام .

☆ ☆ ☆

« لسنا نعلم عِلْمَ اليقين ، السَّنة الَّتي وُلِدَ فيها النَّبيُّ .. وليس يبدو أنَّ عشيرته ، هاشم ، قد لعبت دوراً على شيء من الامتياز في مكَّة ، والواقع أن

---

(١) ابن هشام : ١٧٩/١ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٢٨٠/١ ، البداية والنِّهاية: ٢٩٨/٢ ، الطَّبري : ٢٩٠/٢

الرِّوايات الإسلاميَّة قد سعت إلى أن تحيط النَّبي بهالـة من التَّمْجيـد منـذ اللَّحظـة الأُولى ، ولكن هذا لا ينفي حقيقة مقرَّرة ، وهي أَنَّ أُسرته كانت تعاني في الحقبـة الَّتي وُلِدَ فيها ظروفاً قاسية جداً .. » ، ص : ٣٢ .

ما كان محمَّد ﷺ من أُسرة مغمورة أو مجهولـة ، وجـاءت ولادتـه ﷺ وسـط ظروف جعلتهـا ولادة مشهـورة ، يتحـدَّث النَّـاس عنهـا ، من زواج أبيـه وسفره ووفاته ، وكفالة جدِّه له ، وهو زعيم قومه .. كلٌّ ذلك جعل من هذه الولادة أمراً مشهوراً محدَّداً ، وربط الرُّواة ولادته ﷺ بحـادث مهم ، هو حملـة الأحبـاش على مكَّة المكرَّمة ، فذكروا ولادته ﷺ في عام الفيل .

هذه حقائق تاريخيَّة ثابتة ، ولأمر ما في نفس بروكلمان يتجاهلها !!

أمَّا قول بروكلمان : « والواقع أن الرِّوايات الإسلامية قد سعت إلى أن تحيط النَّبيَّ بهالة من التَّمجيد منذ اللَّحظـة الأُولى » ، فقول يشتم منـه صليبيَّـة وقحـة ، وكأَنَّ النَّبي ﷺ إنسان عادي مغمور ألصقت به الرِّوايات الإسلاميَّـة مـا ليس فيـه من المجد .

الرِّوايات الإسلاميَّة لم تسعَ ، الواقع هو الَّذي سجَّل عظمة محمَّـد بن عبـد الله ﷺ منذ اللَّحظة الأُولى ، وبذور ذلك المجد ، أثمرت فتوحاً وحضـارة خـالـدة من قلب الصِّين إلى قلب فرنسة ، وما زال هذا المجد باقياً يكبر في نفوس مئات مئـات المـلايين من المسلمين في كل بقـاع الأرض ، وعـدد غير قليـل من فـلاسفـة وعلمـاء ومؤرخي الغرب ، جعلوه ﷺ أعظم عظماء التـاريخ ، ولو لم يكن على حـظٍّ من المجد والعزَّة والعناية الإلهيَّة منذ اللَّحظة الأُولى ، لما كانت القرون التَّاليـة خـالـدة بحضارة معينها كتاب الله ، وسُنَّة رسوله .

أمَّـا « أنَّ أُسرتـه كانت تعـاني في الحقبـة الَّتي وُلـد فيهـا ظروفـاً قـاسيـة جداً .. » ، فهذا مرفوض أيضـاً ، فقـد كانت أُسرتـه تعمل بـالتجـارة ، وهي بين

عسر ويسر شأن كلّ عامل جادٍّ مكافح ، ولكن يجب أن يعلم بروكلمان أن شرف أُسرته ﷺ وعظمتها ومكانتها لم ينشأ من مال وغنى ، بل جعل الله عزَّ وجل شرف نبيِّه بأنَّه من خيرهم نفساً وبيتاً ، وهذا أبو سفيان الَّذي كان من أعلى قريش عندما سأله هرقل : كيف نسبه فيكم ؟ يجيب بالصِّدق والأمانة لأنَّه يخشى أن تحفظ عنه كذبة في العرب : محض ، أوسطنا نسباً[(١)] ، فقال هرقل : وكذلك يأخذ الله النَّبي إذا أخذه ، لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً .

وبذلك يتقرَّر دون أدنى شك أنَّ محمَّداً ﷺ كان رفيع النَّسب ، وليس المراد بشرف النَّسب أن تكون عشيرته ذات مال كثير ، وأن يكون قد نال منهم تركة مثرية كبيرة ، فإن المال لا يكون نسباً ، وقد كان عمُّه أبو طالب كبير البطحاء وشريفها ، وكان مع ذلك في المال قلاًّ ، والنَّبيُّ ﷺ مع علوِّ نسبه بين العرب كان فقيراً ، وكان يتيماً ، وكان يرعى الغنم ، فليس علو النسب والشَّرف ملازماً لكثرة المال ، أو قوَّة البطش ، أو عظمة السُّلطان ، إنَّما شرف النَّسب أن يكون من كورة يعلو آحادها عن التَّناقص[(٢)] .

☆ ☆ ☆

« ولسنا نملك بيِّنة موثوقاً بها عن حياة النَّبيِّ الأُولى إلاَّ هذه الآيات القرآنيَّة من سورة الضُّحى (٩٣ : ٦ ـ ١١) : ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ، وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدى ، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى** ﴾ .. » ، ص ٣٣ .

إنَّ من هو أقل بكثير من الرَّسول الكريم ﷺ كشاعر أو خطيب أو وجيه في قبيلة .. يذكر الرُّواة عن نشأته ومراحل حياته الشَّيء الكثير ، فكيف بمحمد ﷺ ، وهو حفيد عبد المطَّلب زعيم قومه ؟

(١) فتح الباري : ٢٤/١ ، الطبري : ٨٥/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ١٤٤/٢

(٢) خاتم النَّبيين ﷺ ، الإمام محمد أبو زهرة : ٨٢/١

وماذا يقصد بروكلمان بالبيّنة الموثوق بها في تلك الفترة من حياة الجاهليّة ؟

وهل يطلب بيّنات مماثلة عند دراسته لحياة شخصيّات أُخرى من تلك الفترة ؟ فالرواية الشّفهيّة هي الطّريقة الّتي يتناقل بها عرب الجاهليّة أخبارهم .. وجاءت الآيات الكريمة لتؤكّد ما كان يتحدّث به النّاس عن نشأة رسولهم ﷺ .

☆ ☆ ☆

« وتذهب الرّوايات إلى أنّه اتّصل في رحلاته ببعض اليهود والنّصارى ، أمّا في مكّة نفسها ، فلعلّه اتّصل بجماعات من النّصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حدٍّ بعيد ، ومع الأيّام أخذ الإيمان بالله يعمر قلبه ، ويملك عليه نفسه ، فيتجلّى له فراغ الآلهة الأُخرى ، ولكنه على ما يظهر ، اعترف في السّنوات الأُولى من بعثته بآلهة الكعبة الثّلاث اللّواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله ، ولقد أشار إليهنّ في الآيات الموحاة إليه بقوله : تلك الغرانيق العُلَى ، وإنّ شفاعتهن ترتضى » ، ص ٣٤ .

دسٌّ رخيص ..

« اتّصل ﷺ في رحلاته ببعض اليهود والنّصارى » . عبارة تثبت إقحام بروكلمان لكلمة « يهود » بشكل غير علمي ، وكلمة « رحلاته » كلمة لا تحمل الحقيقة ، فرسول الله ﷺ سافر مرّة مع عمّه أبي طالب إلى بُصْرى الّتي كانت موطناً لصوامع الرُّهبان المنصرفين لعبادتهم ، ومنهم بَحِيرى الّذي كان على علم بالتّوراة والإنجيل . ثم سافر مرّة أُخرى مع ميسرة ، خادم خديجة بنت خويلد .

وهنا يتساءل المرء : لماذا خرج بَحِيرى من صومعته ؟

ويكون الجواب : لأن قافلة قريش نزلت قرب صومعته ، ولأنه رأى غمامة تظل محمَّد بن عبد الله .. فقال رجل من قريش لما رأى بَحِيرى : والله إن لك يا بحيرى لشأناً اليوم ، ما كنتَ تصنع هذا بنا ، وقد كنّا نمرُّ بكَ كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟

وتأخر ﷺ عن طعام دعا إليه بحيرى ، وبقي عند الرّواحل ، ثمّ دُعِيَ فاختصّه بحيرى بعنايته ، واستحلفه باللاّت والعُزّى - على مذهب قريش - فقال ﷺ : لا تسألني باللاّت والعُزّى شيئاً ، ثمّ نظر بحيرى إلى ظهره ﷺ فرأى خاتم النُّبوة بين كتفيه ، وسأل بحيرى أبا طالب : من يكون ؟ فأجاب : ابني ، بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً ، أبو طالب : فإنّه ابن أخي ، بحيرى : فما فعل أبوه ؟ أبو طالب : مات وأُمّه حبلى به ، قال بحيرى : صدقت ، ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر من اليهود[1] ، فإنّه كائن لابن أخيك شأن عظيم .

هذا هو اللّقاء « والاتّصال » في رحلاته ببعض اليهود والنصارى ، محمد غلام صغير[2] ، واللّقاء علني بوجود كلّ أفراد القافلة التجارية دون استثناء .

ويتساءل العاقل الموضوعي : هل يمكن أن يتلقّى محمد الغلام الصغير شيئاً يذكر في هذا اللقاء[3] ؟ .

ويتساءل أيضاً : لماذا لم يجمع بحيرى قومه الرُّوم من حوله ، فيغلب من سواهم ، بعد أن يدّعي هذه العلوم والمبادئ والأفكار .. الّتي قدّمها لمحمد ؟

وهل بحيرى رئيس أكاديميّة لتخريج الأنبياء ، والكتب المعجزة ؟!

وزمن الزّيارة قصير ، وحجم القرآن الكريم حجم كبير ، والطفل أُمّيٌّ ، لو اختار قارئاً متعلّماً شاباً ؟!

---

(١) لأنّهم يريدون النّبيّ من نسل إسحاق ، لا من نسل إسماعيل .

(٢) كان عمره ﷺ تسع سنوات ، كما في : الكامل في التّاريخ : ٢٣/١ ، والطّبري : ٢٧٨/٢ ، والرّوض الأُنف : ٢٠٦/١ ، وعيون الأثر : ٤٠/١ ، أما في الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي : ١٣١/١ : « لما خرج أبو طالب إلى الشّام . خرج معه رسول الله ﷺ في المرّة الأولى وهو ابن اثنتي عشرة سنة » .

(٣) قال عدد من المستشرقين ، مثل : سيديو ، نورمان دنيال ، لوبون .. : القرآن من تأليف الرّاهب بحيرى ، أعطاه محمّداً أثناء وجوده في بلاد الشام .

وما العلاقة بين محمَّد وبحيرى ؟ مانوعها ؟ ولماذا اختار طفلاً من مكة ؟!

وقريش حاضرة ، لو أعطاه شيئاً لقالت لرسول الله ﷺ عندما قال : إنني رسولٌ مرسل من عند الله ، إنك أخذت ماتقول من بحيرى وبوجود رجال كثر منا[1] .

وأحداث مابعد الهجرة مثلاً ، أين كان منها بحيرى ؟

والإعجاز الغيبي والعلمي في القرآن الكريم ، فوق طاقة البشر ، وبحيرى بشر طبعاً !!

ومن أين لبحيرى هذا الإعجاز اللُّغوي ؟ ولو كان القرآن من إنتاج بحيرى ، لأمكن محاكاته ، والتَّحدي قائم في كل زمان ومكان ، فهل استطاع بشر محاكاته ؟!

وهنا نؤكد .. أنَّ بحيرى هو المستفيد الأوَّل والأخير من لقائه بمحمَّد بن عبد الله ، فلولا هذا اللِّقاء ، لاندثر اسمه كما اندثرت أسماء أُلوف الرُّهبان المنصرفين في صوامعهم للعبادة ، من قبل بحيرى ومن بعده.

أمَّا قول بروكلمان : « أمَّا في مكَّة نفسها ، فلعله اتَّصل بجماعات من النَّصارى ، كانت معرفتهم بالتَّوراة والإنجيل هزيلة إلى حدٍّ بعيد .. » .

دسٌّ أرخص ..

أين هي الجماعات النَّصرانيَّة في مكَّة ؟ ومن هم أشهر رجالها ؟

وهل ماجاء به محمَّد ﷺ يؤكِّد ويثبت صحَّة ماكان يعتقد به النَّصارى من تثليث ، أو تأليه للمسيح عليه السَّلام ؟

---

(١) ولقال ذلك هرقل وملك غسّان أيضاً عندما دعاهم ﷺ إلى الإسلام ديناً سماوياً موحى به من الله إليه .

وإن قيل : علّمه ورقة بن نوفل ، ذلك الفكر النّصراني الكبير ، الّذي « أعطى محمّداً مفاتيح السّماء ، فدخل وأقفل الباب ، ورمى بالمفاتيح في رمال الصّحراء ، فما تبعه أحد » ، و« محمّد كان لا يملك بين يديه سوى إنجيل القس ورقة ، وهو لا يؤمن بألوهية ولا بصلب ، فصدّقه ودعا إليه قومه »[1] .

وأبسط ردٍّ على هذه الخيالات :

توفي ورقة بن نوفل سنة ٦١١ م = ١٢ قبل الهجرة[2] ، فأين آراؤه وأفكاره وتوجيهه من الأحداث التي رافقت الإسلام ونبيَّ الإسلام من سنة ١٢ قبل الهجرة ، إلى سنة ١١ هجريَّة ؟ ومن كان يعلِّم محمداً أثناء هذه الأعوام ؟

ولماذا لم يدَّعِ ورقة هذا المجد لنفسه ؟

ولماذا لم يصنِّع ورقة عشرات الأنبياء ؟

والإعجاز العلمي ، ونبوءات القرآن الكريم ، أين قدرة البشر منها ؟

ولو علمه ﷺ ورقة ، ماآمن بمحمَّد رسول الله قرشي واحد !!

ويتابع بروكلمان سماديره قائلاً : « ومع الأيَّام أخذ الإيمان بالله يعمر قلبه ، ويملك عليه نفسه ، فيتجلَّى له فراغ الآلهة الأُخرى » .

هل سُمِع أو عُرِف أو نُقِلَ عن أحد من المسلمين الأوائل ، وهم معروفون بالاسم ، أنَّه دُعِيَ إلى الإيمان بأحد الأوثان أو الأصنام ؟

العكس هو الصَّحيح ، فمحمَّد ماسجد لصنم قط ، ولا تقرَّب إلى صنم قط ، ولا أقسم بصنم قط ، لاقبل البعثة ولا بعدها ، فالبداية واضحة جليَّة جريئة في

---

(١) من كتاب « قس ونبي » المنحول لاسم خيالي هو : أبو موسى الحريري ، والّذي اعتمده إلياس المر في كتابه « الإسلام بدعة نصرانيّة » .

(٢) الأعلام : ١١٥/٨

تأكيدها على وحدانيَّة الله ، وعدم وجود أيَّ شريك له في أُلوهيَّته : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ ، [سورة الإخلاص] .

أما حكاية الغرانيق الَّتي يذكِّرنا بها بروكلمان ، فهي حكاية باطلة مرفوضة ، لضعف نَقَلَتِها ، واضطراب روايتها ، وانقطاع إسنادها ، فلو وقعت لارتد كثيرون ممَّن أسلموا ، وهذا مالم يكن .

سُئِل ابن حزيمة عن هذه الحكاية ، فقال : من وضع الزَّنادقة ، وقال البيهقي : هذه القصَّة غير ثابتة من جهة النَّقل ، ورواية البخاري عارية عن ذكر الغرانيق ، وفي تفسير ابن كثير ٢٢٩/٣ ، إن حديث الغرانيق مرسل ، والحديث المرسل حديث سقط منه الصَّحابي ، وفي مصطلح الحديث قاعدة تنصُّ على أَن إرسال الحديث سبب لضعفه . ومما يضعف الحكاية أيضاً ، ويؤكد أَنَّها موضوعة ، اختلاف النَّص عند الَّذين وضعوها في كتبهم ، ومن هذه الرِّوايات :

تلكَ الغرانيقُ العُلَى ، وأَنَّ شفاعتهن لترتجى
تلكَ الغرانيقُ العُلَى ، وأَنَّ شفاعتهن ترتضى
وإنَّ شفاعتها لترتجى ، وإنَّها لمع الغرانيق العُلَى
وإنَّهنَّ الغرانيق العُلاَ ، وإن شفاعتهن لترتجى

هذا .. والعرب لم يصفوا آلهتهم بالغرانيق قطعاً[1] ، لم يأتِ لهم في نظم ، ولا في خطب ، ولم يكن ذلك جارياً على ألسنتهم .

يقول د . عمر فروخ رداً على بروكلمان في إيراده لهذه الحكاية[2] : وأمسك

(١) في اللِّسان ، مادة : غرنق « ٢٨٦/١٠ » : الغُرْنُوق : النَّاعم المنتشر من النبات ، أو الأبيض الشَّاب النَّاعم الجميل ، أو طائر الكُرْكي .

(٢) هامش ص ٣٥ في كتاب : تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة .

المبشّرون ، وبعض المستشرقين بهذه الرّواية ، وزعموا أنّ الرّسول ﷺ إنّما فعل ذلك لما قاومه مشركو مكّة ، فأحبّ أن يتقرّب منهم ، فمدح آلهتهم فعدّوا هذا تراجعاً عن تشدّده في التوحيد ومهاجمة الأصنام ، ولقد وجدت أن أحسن ردٍّ على هذه الفرية ما ذكره العالمُ الهندي مولانا محمّد علي[(١)] :

قال : إن هذه الرّواية وردت عند الواقدي وعند الطّبري ، ومع ذلك فإنّها لا ظلّ لها من الحقيقة ، فإنّ كلّ عمل من أعمال رسول الله ﷺ مناقض لمثل هذا الاتجاه ، أضف إلى ذلك أنّ الواقدي معروف بسرد الإسرائيليات وبسرد الخرافات ، وكذلك الطبري معروف بالجمع الكثير ، وباستقصاء الرّوايات مهما كان حظها من الصّحة ، على أننا لو رجعنا إلى رواية محمد بن إسحاق ، أو إلى صحيح البخاري ، وهو الذي لم يغادر من حياة الرّسول ﷺ شيئاً إلاّ ذكره ، لما رأينا لقصة الغرانيق أثراً ، وابن إسحاق جاء قبل الواقدي بأربعين سنة ، وقبل الطّبري بنحو مئة وخمسين سنة أو تزيد ، أمّا البخاري ، فقد كان معاصراً للواقدي ، ومع ذلك لم يذكر القصة ، والواقدي معروف عند المحدّثين بأنّه يضع الأحاديث ، وأنّه غير ثقة فيما يروي . ولم يذكر هذه الحكاية أحدٌ من رواة الحديث .

☆ ☆ ☆

« فكان - ﷺ - يضج في أعماق نفسه هذا السُّؤال : إلى متى يمدُّهم اللهُ في ضلالهم ، ما دام هو عزّوجل قد تجلّى ، آخر الأمر ، للشعوب الأُخرى بواسطة أنبيائه ؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنّه مدعوّ إلى أداء هذه الرّسالة ، رسالة النُّبوّة ، ولكن حياءه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوّته فترة غير قصيرة ، ولم تتبدّد شكوكه إلاّ بعد أن خضع لإحدى الخبرات الخارقة في غار حراء ، ذلك بأن

---

(١) عن : The Holy Qurán, Second Edition. Lahore 1920, P. 1016, note, 2382

طائفاً تجلّى له هناك يوماً ، هو الملك جبريل ، على ما تمثّله محمّد فيما بعد » ، ص ٣٦ .

من أين توصّل بروكلمان إلى هذا التّساؤل في نفس الرّسول ﷺ قبل بعثته ؟

ولماذا هذا الدّس : وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنّه مدعو إلى أداء هذه الرّسالة ، رسالة النُّبوّة ، ولكن حياءه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوّته ..؟

وهل يقول بروكلمان أن مثل ذلك حدث للنّبي موسى ، وللنّبي عيسى عليهما السّلام ؟ أمْ أن ذلك لم يحدث إلاّ لمحمّد ﷺ ؟

وماهو المقصود من إحدى الخبرات الخارقة ؟ نحن نسمع بحادثة خارقة ، أما خبرة خارقة ، فما سمعنا بها ، وكأنّ بروكلمان منعه « خجله غير الفطري » ، من أن يقول : وتلقّى محمّد ﷺ الوحيَ بواسطة الملاك جبريل .

☆ ☆ ☆

« وفضلاً عن ذلك فقد كره أفراد هذه الطبقة الحاكمة أن يروا إلى محمّد ، وهو الّذي ينتسب إلى بيت دون بيوتهم مقاماً ، على رأس جماعة تشكّل ، على صغرها ، دولة ضمن دولة ، ومن هنا كان عليه - ﷺ - أن يدفع كيد خصومه في آيات تزايد عنفها مع الأيّام ، حتّى لقد انتهت إلى أن تصبح لعنات عليهم ، ولقد سمّى عمّه أبا لهب نفسه في إحداها » ، ص ٣٨ .

إنّ تناقضاً واضحاً في هذا القول يتجلّى عند القراءة الأُولى ، كيف يعتبر بروكلمان أن هناك طبقة حاكمة ناقمة على محمّد ﷺ ، الّذي ينتسب إلى بيت دون بيوتهم مقاماً ، لأنّه شكّل ما يشبه دولة ضمن دولة ، فكيف يكون عمّه أبو لهب ، وهو من بيت محمّد ﷺ وليس من بيت الطّبقة الحاكمة ، إلى جانب تلك

الطَّبقة ، ولم يكن إلى جانب ابن بيته . وابن طبقته ؟ ونحن - مع بروكلمان على علم بما كان عليه العرب من عصبيَّة قبليَّة ، وعصبيَّة عائلية !!.

وعبارة « دولة ضمن دولة » تصوُّر خاطئ ، أين كانت هذه الدَّولة الَّتي يتحدَّث عنها بروكلمان ؟ وكيف يريدنا أن نصدِّق ما يقول ، ونحن نعلم علم اليقين ، أنَّ محمَّداً ﷺ لم يكن من أُسرة أقل شأناً من غيرها في مكَّة ؟ بل كان من أُسرة هي في مقدِّمة أُسَر مكَّة منزلة ومكانة ، ويكفي أن يقال : إنَّه حفيد عبد المطَّلب ، فهو من أُسرة سدنة الكعبة ، وقادة قوافل التجارة .

« وهو - ﷺ - الَّذي ينتسب إلى بيت دون بيوتهم مقاماً » نأسف لصدورها عن مطَّلع مثل بروكلمان ، « دون بيوتهم مقاماً » ، كيف ؟ وجَدُّه قُصَي سدانة البيت الحرام ، فهو بيت العرب الدِّيني . ومستقر شرفهم ، إليه يحجُّون ، وبه يؤمنون ، وله إمرة مكة كلها ، حيث أَمْنُ العرب المتنازعين في بواديهم ، لقداستها في نفوسهم ، وحيث قريش أعلى العرب فكراً ، وأشرفهم نسباً ، وأفصحهم لساناً ، وله الحجابة ، مفاتيح البيت بيده ، وله اللِّواء ، عقد راية الحرب ، وله رئاسة « دار النَّدوة » ، دار الشُّورى لقريش ، ثمَّ لكل العرب من بعد ذلك ، والَّتي كانت تعقد في دار قصي ذاته .

ولجده عبد المطلب رئاسة قريش ، استحقَّها بقوة نفسه ، ورفيع خلقه ، وسماحته ، في طلعته يُمْن وعزيمة وقوَّة ، مع هدوء وطيب في غير هوان ، وهو الَّذي حفر زمزم - بعد أن ردمتها جُرهم - برؤيا صادقة مكرَّرة ، فرأى ﷺ في حضانته عزَّ الرِّجال ، وحكمة الشُّيوخ ، وعطف الأُبُوَّة .

وأُمُّه ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، تشبه البتول في سموِّها وصبرها

لقد كان الأجدر ببروكلمان - وهو العالِم الذي لا تغيب عنه مثل هذه الحقائق

يقيناً ـ أن يقول : « وهو الّذي ينتسب إلى بيت من أرفع بيوتهم مقاماً » ، كي لا يهبط مستوى ما قدم من نتاج وأفكار في أعين المطّلعين أو الباحثين .

☆ ☆ ☆

« أمّا الشّعائر الدّينيّة الأُخرى ، كالدعاء إلى الله ، وبخاصّة في الصّلوات اللّيليّة ، الّذي كان محمّد يمارسه في حرارة على منوال الزُّهاد النّصارى ، فكانت تعتبر مسائل خاصّة » ، ص ٣٨ .

يحرص بروكلمان على إقحام وزجّ اليهود مرة ، والنّصارى مرّة أُخرى ، أو كليهما معاً .

« على منوال الزُّهاد النّصارى » ، عبارة مرفوضة ، إذ ليس في الإسلام رهبانيّة تشبه رهبانية زهاد النّصارى ، لا من قريب ولا من بعيد ، فلا رهبانيّة في الإسلام .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال : أوصني ، فقال : سألتَ عما سألتُ عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أُوصيك بتقوى الله ، فإنّه رأس كلِّ شيء ، وعليك بالجهاد فإنّه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله ، وتلاوة القرآن ، فإنه روحك في السّماء ، وذكرك في الأرض[١] .

وعن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنهما ، قال : لما كان من أمر عثمان بن مظعون ، الّذي كان ممن ترك النِّساء ، بعث إليه رسولُ الله ﷺ فقال : يا عثمان ، إنّي لم أُومر بالرَّهبانيّة ، أرغبت عن سُنّتي ... إنّ لأهلك عليك حقّاً ، ولنفسك عليك حقاً[٢] ...

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٨٢/٣

(٢) سنن الدّارمي : ١٣٣/٢

وفي رواية : دخلت خولة بنت حكيم[1] على عائشة وهي باذّة الهيئة[2] ، فسألتها : ما شأنك ؟ فقالت : زوجي - وهو عثمان بن مظعون - يقوم اللّيل ، ويصوم النّهار ، فدخل النّبيُّ ﷺ ، فذكرت عائشة ذلك له ، فلقي ﷺ عثمانَ ، فقال : يا عثمان ، إنَّ الرَّهبانيَّة لم تُكْتَب علينا ، أفَمالك فيَّ أُسوة ، فوالله إنِّي أخشاكم لله ، وأحفظكم لحدوده[3] .

☆ ☆ ☆

« وقد يكون - ﷺ - مديناً ببعض هذه الأخطاء للأساطير اليهوديّة الّتي يحفل بها القصص التلمودي ، ولكنه مدين بذلك ديناً أكبر للمعلِّمين المسيحيين الّذين عرّفوه بإنجيل الطفولة ، وبحديث أهل الكهف السّبعة ، وحديث الإسكندر ، وغيرها من الموضوعات الّتي تتواتر في كتب العصر الوسيط ، وكان إلى جانب ذلك قصص عربيّة ، كتلك الّتي تتحدّث عن هلاك قبيلة ثمود ، الّتي قد يكون وضع لها قصّة النّبي صالح الثّانويّة كملحق ضروري ، وههنا ، في هذه القصص نجد أن أُسلوبه ينزع إلى أن يكون أكثر إسهاباً وأقل توقُّداً ، كما نجد أنّه كان يوشّح هذه القصص بمناقشات خطابيّة تدور على محور إثبات وجود الله بمختلف الدّلائل التي تقدّمها الطّبيعة » ص : ٣٩ .

نستغرب مثل هذه الأقاويل من إنسانٍ يضفي على نفسه ، وعلى كتاباته ، الصّفة العلميّة والموضوعيّة ، فهل درس بروكلمان سيرة النّبيِّ العربي ﷺ دراسة تفصيليّة دقيقة ، قبل أن ينبري للكتابة عنه ؟ ولو أنّه فعل ذلك ، ما ظنُّه كتب عن محمَّد بن عبد الله ﷺ وكأنّه درس اليهوديّة وكتبها وأساطيرها وآدابها في

(١) وهي خولة بنت حكيم السُّلَمية ، غير خولة بنت حكيم الأنصاريّة ، انظر أُسد الغابة : ٩٣/٧

(٢) باذّة الهيئة : رثّة الثياب ، وسيئة الحال ، [اللّسان : بذذ] .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٢٢٦/٦

إحدى مـدارس اليهود ، أو في كُلِّيَّـة لاهوتيَّـة لهم ، أو كأنَّـه نشـأ وترعرع في بيئـة يهوديَّة ، ونسي بروكلمان ـ أو تناسى ـ أنَّ خصومـة المشركين لـه في مكَّـة ، كانت أشد من خصومته له ، ومع ذلك ما سمحت لهم أخلاقهم أن يصلوا إلى هذه الدَّرجة من الـدَّس والكـذب والاختلاق ، ولو عرفـوا شيئـاً قليـلاً من ذلـك لما قصَّروا في استغلاله ، وهم الَّذين لم يتركوا باباً ، ولا ثغرة ، ولا مجـالاً من قريب أو بعيـد ، إلاَّ وحاولوا استغلاله لمهاجمة محمَّد ودعوته .

ومن يقرأ النَّص السَّابق يتصوَّر أن محمَّـداً ﷺ عـاش في رومـة ، وفي إحـدى مدارس الفاتيكان ، أو في إحدى البعثات التبشيريَّة الَّتي ملأت الـدُّنيـا عـدا أرض الحجاز ، حيث نشأ محمَّد ﷺ وترعرع ، وما رأى حوله إلاَّ صوراً مشوَّهة من بقيَّة ديانـة إبراهيم عليـه السَّلام ، وصوراً أقوى وأوسع من الوثنيَّـة لا حصر لأصنـامهـا وأوثـانهـا ، فهل كان هُبَل يعلم قصص التَّلمـود في مكَّـة ، أمْ كانت الـلاَّت والعُـزَّى تعلِّم الإنجيل لأطفال مكة ؟

إن التَّعصُّب والحقد ، وإن وُجِد العِلْم ، يصلان بالإنسان إلى الـدَّرك الأسفل من الجهل والضَّلال .

☆ ☆ ☆

« كان لا يعتبر ، في ذلك الوقت ، أنَّ دينـه ـ ﷺ ـ يختلف اختلافـاً كبيراً عن النَّصرانيَّـة ، فقـد وجَّـه أتبـاعــه إلى أراضي النَّجــاشي ، أقرب ممثّـل سيــاسي للنصرانيَّة يمكن أن يحتمي به » ، ص ٤٠ .

إنَّ توجيه محمَّد ﷺ لأتبـاعـه إلى أرض النجـاشي النّصراني ، لا تعني أبـداً أن محمَّداً ﷺ كان يعتبر دينـه الجـديـد ـ الإسلام ـ غير مختلف عن النَّصرانيَّـة ، وكان الأقرب إلى العقل والمنطق والواقـع أن يقـول بـأنَّ النَّبيَّ العربيَّ محمَّـداً ﷺ رأى في النَّجاشي والأحباش أُنـاسـاً يعتنقون دينـاً سماويـاً ، ممـا يجعلهم يقـدِّرون المؤمنين

بدين سماوي ، خصوصاً وأنَّ ما بيدهم من كتب دينيَّة ، قد بشَّرت على لسان المسيح عيسى عليه السَّلام بنبيٍّ يأتي من بعده ، ومن الطَّبيعي والبدهي ، ألاَّ يجد المسلمون من النَّصارى إلاَّ الحبَّ والمودَّة والحماية ، فكلاهما حملة رسالة سماويَّة ، والمسلمون يعظِّمون السَّيِّد المسيح ، ويبجِّلون أُمَّه الطَّاهرة البتول .

قال ﷺ لمن هاجر فارّاً بدينه من اضطهاد قريش : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإنَّ بها ملكاً لا يُظْلَمُ عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتَّى يجعل الله لكم فَرَجاً ممَّا أنتم فيه »[1] ، فخرج المضطهدون وهم يعلمون سبب خروجهم .

وقالت أُمُّ عبد الله بنت أبي حَثْمة لعمر بن الخطاب قبل إسلامه عندما قال : إنَّه الانطلاق يا أُمَّ عبد الله ؟ قالت رضي الله عنها : نعم ، والله لنخرجنَّ في أرض من أرض الله ، إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتَّى يجعل الله لنا مخرجاً[2] .

وقال جعفر بن أبي طالب للنَّبي ﷺ طالباً منه الفرار بدينه من الاضطهاد : « يا رسول الله ! ائذن لي أن آتي أرضاً أعبد الله فيها لا أخاف أحداً »[3] ، وقال جعفر للنجاشي مبيِّناً سبب هجرة المسلمين إليه : « فلما قهرونا وظلمونا ، وشقُّوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واخترناك عن سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيُّها الملك »[4] .

هذا هو سبب الهجرة واضحاً جلياً ، من فم رسول الله ﷺ ، وفم من هاجر .

وإتماماً للحقيقة نقول[5] :

---

(١) الكامل في التَّاريخ : ٤٥/٢

(٢) حياة الصَّحابة : ٥٢٨/١ ـ ٥٢٩

(٣) حياة الصَّحابة : ٥١٥/١

(٤) حياة الصَّحابة : ٥٢٠/١

(٥) تاريخ الإسلام : ٨٧/١ ، انظر : الجلسة السَّابعة عشرة « قضية الهجرة إلى الحبشة » في كتاب : الإسلام في قفص الاتهام .

إنَّ النَّبي ﷺ لم يفكِّر أن تكون الهجرة إلى إحدى القبائل العربيَّة ، لأنَّها كانت ترفض دعوته في مواسم الحجِّ إما مجاملة لقريش ، أو تمسُّكاً بدينها الوثني .

كما أنَّه ﷺ لم يفكِّر أن تكون الهجرة إلى موطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين ، لأنَّ كُلاًّ من الجاليتين اليهوديَّة والمسيحيَّة كانت تنازع الأُخرى وتنافسها على النفوذ الأَدبي ببلاد العرب ، فهما والحال هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً ، لاسيما إذا كان من العرب الَّذين كانوا يحتقرونهم ويقولون فيهم : « ليس علينا في الأُميين سبيل » .

أمَّا اليمن ، فقد كانت مستعمرة فارسيَّة ، ولم يكن الفرس يدينون بدين سماوي ، فلم يطمئن الرَّسول ﷺ إلى الالتجاء إليهم ، وقد برهنت الأَيَّام على بُعْدِ نظره عليه السَّلام ، فعداوة كسرى تجلَّت عندما كتب إلى باذان عامله في اليمن : « ابعث إلى هذا الرَّجل الَّذي بالحجاز رَجُلَيْنِ جَلِدَين من عندك ، فليأتياني به »[(١)] .

وكذلك كانت للحيرة محاذيرها ، حيث كان لقريش صلات وثيقة معها ، ومصالح متبادلة ، وزيارات في أوقات منتظمة ، فإذا علمت قريش بوجودهم فيها طلبتهم ، كما حاولت ذلك مع النَّجاشي ، الَّذي رفض تسليمهم لتسامحه وقوة خلقه .

☆ ☆ ☆

« وكان على أَبي لهب أَن يحلَّ محل أَخيه أَبي طالب في حماية النَّبيِّ ، على الرَّغم من خصومته له ، وعلى الرَّغم من أَنَّ النَّبيَّ لعنه في إحدى السُّور » ، ص ٤١

النَّبيُّ ﷺ لم يلعن أَحداً ، وما ورد بحقِّ أَبي لهب إنَّما هو آيات قرآنيَّة تلاها

(١) الطَّبري : ٦٥٥/٢ ، الكامل في التاريخ : ١٤٥/٢

النَّبي ﷺ ، بعد أن نزل الوحي بها عليه ، وكانت بنزولها معجزة إلهيَّة ، تؤكِّد سوء منقلب أبي لهب وزوجه في الآخرة ، ولو اعتنق أبو لهب ، أو زوجه ، الإسلام لما صحَّ ما ورد بحقه فيها .

فسورة المسد : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ، وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ** ﴾ ، إعجاز إلهي غيبي ، لقد عَلِم سبحانه ، أن أبا لهب وزوجه لن يقولا ، ولو نفاقاً بلسانهم : « لا إله إلاَّ الله ، محمَّد رسول الله » ، ومحمَّد ﷺ ، لو لم يكن القرآن الكريم وحياً ، ما علم ذلك ، ولا جعل نفسه ودينه في موقف حرج ، ينقض مضمون سورة من سوره !!

☆ ☆ ☆

« وفي آذار سنة ٦٢٠ ، إبَّان موسم الحج التَّالي ، حاول محمَّد أن ينشر دعوته بين جماهير العرب المتدفقين على مكَّة كالسَّيل ، من أطراف الجزيرة كلِّها ، وفيما هو منصرف إلى ذلك التقى أفراداً من قبيلة الخزرج المقيمة في المدينة[(١)] ، وكان في المدينة جالية كبيرة من اليهود ، بينها وبين الوثنيين ضغائن متطاولة ، فكانت في أغلب الظَّن تتوعَّد الوثنيين بقرب ظهور المسيح ، الَّذي سينتقم لها من مضطهديها ، ومن هنا أَلِفَ المدنيُّونَ فكرة الرَّسول الإلهي ، فدخلوا في الإسلام ، لأنَّهم كانوا قبل كلِّ شيء مُعَدِّين للأفكار الدِّينيَّة ، بحكم الوضع في مدينتهم ، إعداداً يختلف كلَّ الاختلاف عن إعداد المكِّيين الآخذين بأسباب النِّعمة والتَّرف » ، ص ٤٢

---

(١) يستعمل بروكلمان كلمة « المدينة » بدلاً من كلمة « يثرب » قبل الهجرة ، وذلك من قبيل « مجاز الأوَّل » ، ففي سورة يوسف ٣٦ : ﴿ **وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجنَ فَتَيانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً** ﴾ ، أي يعصر عنباً سيؤول إلى خمر .

ثمَّ قال بروكلمان عن بيعة العقبة الأُولى : « فاجتمعوا بمحمَّد في العقبة ، وهي مجازٌ بين منى ومكَّة ، وهناك فَرَضَ عليهم أركان الإسلام ، ثمَّ وجَّههم إلى المدينة مرَّة ثانية ، بعد أن أرسل معهم مقرئاً يجيد تلاوة القرآن » ، ص ٤٤

رسول الله ﷺ لم يفرض الإسلام على أحد ، وإنَّما عرض على هذه الجماعة من أهل يثرب الإسلام ، فاقتنعوا بما عرضه عليهم ، وآمنوا به رسولاً ، وما السُّلطة الَّتي كان يملكها ﷺ آنذاك ليفرض أركان الإسلام على النَّاس فرضاً ؟!

وعندما امتلك الإسلام سلطةً ، وشكَّل دولة بعد الهجرة ، مافرض الإسلام على أحد : ﴿ **لاإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ** ﴾ ، [البقرة : ٢٥٦] ، ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ ، [الكهف : ٢٩] ، ﴿ **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ الْمُبِينُ** ﴾ ، [النَّحل : ٨٢] .

والرِّواية التَّاريخيَّة الصَّحيحة تقول[١] :

لقد كان الخزرج في يثرب ، وكان يهود يثرب يقولون لهم إذا كان بينهم شيء : إن نبيّاً مبعوث الآن ، قد أطل زمانه ، فنتّبعه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وفي موسم الحجِّ ، لقي ﷺ رهطاً من الخزرج عند العقبة[٢] ، فقال لهم : أفلا تجلسون وأكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عزَّ وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض : يا قوم ،

---

(١) ابن هشام : ٥٤/٢ ، الطَّبري : ٣٥٥/٢ ، الكامل في التَّاريخ : ٦٧/٢ ، عيون الأثر : ١٥٥/٢

(٢) العقبة : بين منى ومكَّة ، تبعد عن مكَّة نحو ميلين ، عندها اليوم مسجد ، ومنها تُرْمى جمرة العقبة ، [معجم البلدان : ١٣٤/٤] .

تعلمون والله إنَّه للنَّبيُّ الَّذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنَّكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقالوا : إنَّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشَّر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم اللهُ بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الَّذي أجبناك إليه من هذا الدِّين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعزَّ منك[1] .

ثمَّ انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين ، وقد آمنوا وصدَّقوا ، وأرسل ﷺ مصعب بن عمير[2] معهم معلِّماً ، يفقههم في الدِّين ، فلما قدموا يثرب ، ذكروا لقومهم رسولَ الله ﷺ ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور « الأنصار » إلاَّ وفيها ذكر عن رسول الله ﷺ .

ورجع مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكَّة ، وخرج المسلمون معه إلى الموسم ، مع حجَّاج قومهم من أهل الشِّرك ، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة ، من أواسط أيَّام التشريق ، فلما فرغ الحجُّ ، قدموا إلى رسول الله ﷺ ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، أُم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأُم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي ، فتكلَّم رسول الله ﷺ ، وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغَّب في الإسلام ، ثم قال : « أُبايعكم على أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراءُ بن معرور بيده ﷺ ، وقال : نعم ، والَّذي بعثك بالحقّ لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه أُزُرَنا[3] ، فبايِعْنا يا رسول الله ، فنحن أبناء الحروب ، وأهل

(١) سُمِّيت بيعة العقبة الأُولى « بيعة النِّساء » ، لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي أوَّل امرأة بايعت .

(٢) أبو عبد الله مصعب بن عمير ، من السَّابقين إلى الإسلام ، شهد بدراً وأُحُداً ومعه لواء رسول الله ﷺ ، استشهد بأُحُد وعمره أربعين سنة ، وفيه نزلت ، وفي أصحابه من المؤمنين : ﴿ **رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ..** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

(٣) تكنِّي العرب عن المرأة بالإزار ، وتكنِّي أيضاً بالإزار عن النَّفس ، وتجعل الثوب عبارة عن لابسه ، أي نمنع أزرنا يحتمل الوجهين معاً .

الحلقة[1] ، ورثناها كابراً عن كابر[2] .

فلما قدم الأوسُ والخزرج إلى يثرب ، أظهروا الإسلام بها ، وأصبح الجوُّ مهيّأ لهجرة الصَّحابة ، ولهجرة رسول الله ﷺ[3] .

هذه هي خلاصة الرِّوايـةِ التَّـاريخيَّـة الصَّحيحـة ، فـأين : « وهنـاك فَرَضَ عليهم أركان الإسلام » ؟ كما يدَّعي بروكلمان !!

☆ ☆ ☆

ثُمَّ أُضيف إلى مسـاكن النَّبيِّ فيما بعـد خبـاءٌ ذو أثـاث فخم قـد فُرِشَت أرضـه بالبُسْط ، لاستقبال وفود القبائل استقبالاً لائقاً ، ولقـد ظلَّ هـذا الخبـاء ، طوال حياة النَّبيِّ ، الفناء الَّذي يجتمع فيه المؤمنون لأداء الصلوات اليوميَّة » ، ص ٤٥ .

تناقض يفضح الدَّس ، فكلمة خباء ، وجملة فُرِشت بـالبسـط لاتتنـاسب مع وضعه ، ذو أثاث فخم ، فماذا يقصد بالأثاث الفخم ؟

هل يقصد بروكلمان بـذلـك السِّجـاد العجمي ، والفرش الوثيرة ، وثريـات « الكريستال » ؟ فأين هذا من كلمة البسط ، وليته شرح لنـا مـاأراده من جملـة « الأثاث الفخم » ؟

وكتب السِّيرة ، والَّتي هي مصـدرنـا ومرجعنـا في حيـاة رسـول الله ﷺ ، وهـذا أمر طبيعي، فكلُّ أُمَّـة تنهل أحـداث تـاريخهـا من مصـادرهـا ، وهـذا من حقِّها ، وخصوصاً إذا كانت هـذه الأُمَّـة قـد قـدَّمت منهج البحث العلمي للعـالم ، فكتب السِّيرة ـ الصَّادقة الموثوقة ـ رسمت صورة البساطة إلى أبعـد حـدودهـا ، في

---

(١) الْحَلْقَة : اسم لجملة السِّلاح والدُّروع ، [اللِّسان : حلق] .

(٢) لذلك سُمِّيت بيعة العقبة الثانية : بيعة الحرب .

(٣) الهجرة حدث غيَّر مجرى التَّاريخ ، ط ٣ ، ص ٤٧

داره ، وفي لباسه ، وفي مأكله .. ومن حقنا القول : إنها أصدق من بروكلمان ، وبروكلمان يعلم ذلك !!

☆ ☆ ☆

« ولقد كان أهل الصُّفَّة هؤلاء ، يشكِّلون حَرَسَ الرسول ، كما كانوا عاملاً مساعداً جداً على تعزيز نفوذه بين أتباعه ومواطنيه الجدد » ص : ٤٥ .

يكتب بروكلمان متأثِّراً بالبيئات الَّتي يعيش فيها ، أو يسمع عنها ، من الملوك والحكام الَّذين يختفون وراء حرسهم وحجَّابهم ، ونسي بروكلمان أنَّ على المؤرِّخ أن ينتقل إلى الفترة الَّتي يكتب عنها زماناً ومكاناً وبيئةً ومجتمعاً ونفسيَّة وأخلاقاً ، ولو أنَّه فعل ذلك عندما كتب عن عهد الرَّسول ﷺ ، لعرف أنَّه لم يكن لدى محمَّد ﷺ حرس خاص يدور معه حيثما دار ، ويقف وينام على باب داره عندما يأوي إليها .

لقد كان كلُّ أهل الصُّفَّة حراساً ، ولكن للإسلام وسلامة انتشاره .

أمَّا عبارة : « كما كانوا عاملاً مساعداً جداً على تعزيز نفوذه بين أتباعه ومواطنيه الجُدُد » ، فهي عبارة تصوِّر أهل الصُّفَّة ، على أنَّهم أداة تسلُّط ، وعلى مَنْ ؟ على المسلمين « أتباعه ومواطنيه الجُدُد » ، ودحض هذا الكلام ونقضه ، أسهل من سهل ، فبروكلمان لم يورد حادثة واحدة تؤيد افتراءه من ناحية ، وأحداث التَّاريخ تناقض ماادّعى من ناحية ثانية .

إن أهل الصُّفَّة كما يقول ابن سعد في طبقاته الكبرى : « كان أهل الصُّفَّة ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ ، لامنازل لهم ، فكانوا ينامون على عهد رسول الله ﷺ في المسجد ، ويظلُّون فيه مالهم مأوى غيره ، فكان رسول الله ﷺ يدعوهم إليه باللَّيل إذا تعشَّى فيفرّقهم على أصحابه ، وتتعشَّى

طائفة منهم مع رسول الله ﷺ »[1] ، وقال واثلة بن الأسقع : « رأيتُ ثلاثين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، يصلُّون خلف رسول الله ﷺ في الأُزُر[2] ، أنا منهم » .

فأهل الصُّفَّة هم فقراء المهاجرين ، كان مجموع عددهم ـ رضي الله عنهم ـ أربع مئة رجل ، يأوون إلى موضع مظلَّل في مسجد المدينة ، يسكنونه ويتعلَّمون القرآن ، وأهل الصُّفَّة هؤلاء ، صادرت قريش دورهم في مكَّة ، ونهبت محتوياتها وباعتها ، وهذا ظلم يضاف إلى ظلمهم في مكَّة قبل الهجرة .

لما سبق ، بدأ ﷺ حرباً اقتصاديَّة ضد قريش ، بدأتها هي في شِعبِ أبي طالب ، وخصَّ ﷺ قريشاً في حربه وليست قبيلة أُخرى ، فالحرب معلنة بين المسلمين وقريش ، وقريش تعلم ذلك ، فهي الَّتي أهدرت دم رسول الله ﷺ عند الهجرة ، فأوجدت بذلك ظروفاً حربيَّة ضد المسلمين المهاجرين ، فمن هؤلاء المهاجرين كانت السَّرايا الأُولى خارج المدينة المنوَّرة ، فعهد الأنصار حماية النَّبي ﷺ في المدينة المنوَّرة ، لا خارجها ، أو ضواحيها .

هؤلاء هم أهل الصُّفَّة الَّذين لم يشكِّلوا حرس الرسول .

والَّذين لم يكونوا عاملاً مساعداً جداً على تعزيز نفوذه ﷺ بين أتباعه ومواطنيه الجُدُد كما يدَّعي بروكلمان .

☆ ☆ ☆

« وأغلب الظَّن أنَّه كان يرجو ، عقب وصوله إلى المدينة ، أن يدخل اليهود

---

(١) طبقات ابن سعد : ٢٥٥/١

(٢) جمع إزار ، وفي الحديث : إزْرَةُ المؤمن إلى نصف السَّاق ، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، [اللِّسان : أزر] .

في دينه ، وهكـذا حـاول أن يكسبهم من طريق تكييف شعـائر الإسلام ، بحيث تتّفق وشعائرهم في بعض النّواحي » ، ص ٤٦ .

التّـاريخ الموثّق لا يُكْتَب اعتماداً على الظنّ ، ولـو قـال بروكلمـان : « أغلب الظّن » ، لتقديم فكرة ، فكل مافيها غير صحيح يقيناً ، إنّ شعائر الإسلام ، وكل ما يتعلّق بتشريعه - عبادات ومعـاملات - إنّما كانت تستنـد إلى آيـات يُوحى بها من الله تعـالى إلى رسولـه الكريم ، فلم يكن الرّسول ﷺ يكيِّف الشّعـائر ليكسب اليهود إلى دينـه الجـديـد ، أمّـا إذا وجـد بروكلمـان بعض التّشـابـه بين اليهوديـة والإسلام ، فما ذلك إلاّ لكون اليهودية في أُصولها ديانـة سماويـة اعتمـدت التوحيـد مبـدأ ، ولكنهـا حُرِّفت بعـد ذلـك ، وكـذلـك شـأن المسيحيّـة معها ، فـالقـواسم المشتركة بين هذه الدِّيانات السّماويّة من الأُمور الطّبيعيّـة ، وليس ذلـك من عمل أنبياء هذه الدِّيانات ، بل من أُصولها المشتركة ، وينابيعها الواحدة[1] .

☆ ☆ ☆

« ولسنـــا نعرف حتّى الآن مـــاإذا كان محمَّـــد قـــد اقتبس هـــذه الفريضـــة - الصِّيام - عن إحدى الفرق الغنوستية ، أم عن المـانيين الّـذين نفـذ مبشروهم إلى

(١) ويعلّق د. عمر فروخ على ماسبق من كلام بروكلمان ، في هامش ص ٤٦/٤٧ ، بما يلي :
[ولقد عالج ﷺ قضيّة اليهود بطرق مختلفة ، ولكنه لم « يبدّل شعائر الإسلام حتّى يرضى عنهـا اليهود » ، ويزعم المؤلّف أنّ الرّسول شرع صلاة الجمعة تشبُّهـاً بـاليهود ، مع أنـه بعـد أسطر سيقول بأنّه خالفهم في السّماح للمسلمين بالعمل قبل صلاة الجمعة (الظُّهر) وبعدهـا ، إنّ فكرة « الجمعـة » مخالفة تمام المخالفة لما عند النّصارى واليهود معاً ، إنّها ظاهرة اجتماعية لادينيّـة ، ولـذلـك لا تجوز صلاة الجمعة إلاّ في المصر (البلد) الّذي يجتمع في مسجده أربعون رجلاً بالغـاً ، وإلاّ لم تجب الجمعـة في ذلك البلد ، بينما اليهود « يسبتون » منذ عشيّة السّبت إلى مساء السّبت لا يعملون عملاً .
إنّ الرّسول ﷺ قد علم أنّ التوراة مبدّلة لأن فرق اليهود كانت مختلفة ، وأنّ السّـامريين (اليهود الّذي يسكنون اليوم في نابلس) يقولون إنّ لديهم توراة هي الصّحيحة ، بينما التّوراة الّتي يملكهـا سائر اليهود غير صحيحة ، ثمّ إنّ في العهد القديم أساطير كثيرة ، فإذا كان محمد ﷺ قـد رفضهـا ، فإنّه قد فعل ذلك على أساس علمي ، و« رفض الخطأ ليس جهلاً »] .

بلاد العرب أيضاً ، فقد كان لا يعرف شيئاً ، أو يكاد ، عن الحرّانيين في العراق ، الّذين كانوا يصومون كذلك في شهر آذار ، تمجيداً للقمر » ، ص : ٤٨ .

سيبقى بروكلمان لا يعرف ، ولا يمكن له أن يعرف هو وأمثاله ماداموا في أبحاثهم ودراساتهم غير موضوعيين ، ويندفعون في كتاباتهم بدافع الحقد والتّعصب ومجانبة الواقع والحقيقة .

وهل ينظر بروكلمان وأمثاله إلى أركان عقيدة دينهم يهوديةً كانت أو مسيحيّة بمثل هذا المنظار ؟ وهل يحاول أن يجد مصادر التّثليث أو التّعميد أو الخلاص والفداء .. التي كانت قبل المخلّص يسوع ، عند أصحاب العقائد الوثنيّة القديمة ؟ أم إنّ هذه النظرة لا تخطر له ببال إلاّ عند دراستهم للإسلام ونبيّه .

هل كان الصّيام عند المسلمين بدعة لم تعرفها الدّيانات السّماويّة السّابقة من يهوديّة ومسيحيّة ؟

وهل عرفت شعوب أُخرى أنواعاً مختلفة من الصّيام ؟

فإذا كان الأمر كذلك ، فهل نقول إنّ الصّيام عند المسيحيين بدعة وثنيّة ، أو بدعة يهودية ؟ علماً بأنّ الصّيام بمعنى الامتناع عن شيء أو أشياء من الطّعام والشّراب والسّلوك ، هو أمر تشترك فيه كل الشّعوب على اختلاف أديانها وعقائدها ، ولكن لكل منها ما يختص به في صيامها ، والصّيام في الإسلام ولدى المسلمين نوع يختلف كل الاختلاف عن بقيّة ألوان الصّيام الأُخرى .

فهل يحتاج الأمر إلى أن نبحث عن مصدر يكون محمّد ﷺ قد اقتبس هذه الفريضة عنه ؟ وما دمنا عرفنا أنّها فريضة ، وأطلقنا عليها هذه التّسمية ، فهي إذن من الفروض الّتي فرضها الله عز وجل كغيرها من الفروض الأُخرى كالصلاة والزّكاة والحج ..

☆ ☆ ☆

وعن بدر الكبرى قال بروكلمان : « وعددهم فيا تقول الرّوايات يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلمين ، واعتزم محمَّد أن يتربَّص لأبي سفيان في بدر ، وهو موضع على طريق القوافل ، ذو ماء سائغ للشّاربين ، وبدلاً من أن يجد حامية ضعيفة ، ألفى جيشاً قوياً كامل العدة ، يخرج للقائه[1] ..

وكان موقف النَّبي من اليهود أقسى وأعنف ، وكان على بني قينقاع ، وهم من الصّاغة ، أن يستشعروا ، قبل غيرهم ، قوّته وحزمه ، فلم يكد ينقضي شهرٌ على معركة بدر ، حتّى وجّه محمّد رجاله عليهم لقتلهم ، في الظاهر رجلاً مسلماً كان قد قتل يهودياً ، إثر خلاف جرى بينهما ، فاضطرهم إلى الاستسلام » ، ص : ٥٠/٥١ .

اعتقد أن مؤرخاً عالماً ومنصفاً لا يمرُّ بدراسته لحادثة مهمة كحرب يهود بني قينقاع من قبل المسلمين أصحاب الدّين الجديد بهذه السُّهولة والسَّطحيَّة ، وكان من أوّل واجباته أن يعود إلى دراسة طبيعة العلاقة بين اليهود والمسلمين ، وأن يلقي ضوءاً على مواقف اليهود من المسلمين ، وأن يكشف عن أعمال بني قينقاع تجاه المسلمين المخالفة للوثيقة « المعاهدة » الموقَّعة من الطرفين منذ استقرار محمَّد ﷺ في المدينة .

---

(١) ويتحدّث بروكلمان في ص ٤٩ عن « الرَّغبة في الغنيمة عند فقراء المؤمنين ـ أهل الصُّفَّة ـ الّذين عرفوا طعم الفاقة الملحّة » ، ثم تكلَّم عن سريَّة باغتت قافلة لقريش فأصابت غنائم عظيمة عادت بها إلى المدينة (يتحدَّث بروكلمان هنا عن سريَّة عبد الله بن جحش) ، ولكن هذا النَّقض للقانون الخُلقي القبلي ، لم يلبث أن أثار عاصفة من الاستنكار في المدينة نفسها » .
ويعلّق د. فروخ في هامش الصفحة ذاتها قائلاً : لقد عرض لرسول الله ﷺ أن يقاتل في الأشهر الحُرَم على أساس واحد : « لا يجوز » أن يبدأ المسلمون القتال في الشهر الحرام ،. ولكن « يجب » أن يدافع المسلمون عن أنفسهم حتّى في الشّهر الحرام ، إن القرآن الكريم يذكر ذلك صراحة ، ولكن المؤلّف يحب أن يتهكَّم فقط ، ويعلل الأمور تعليلاً ناقصاً ..
فبدء القتال في الشّهر الحرام إذن حرام ،. ولكن رد العدوان واجب .

أمَّـا إطـلاق الأحكام ، كأن يقـول : كان مـوقف النَّبي من اليهـود أقسى وأعنف ، فـذلـك ليس من صفـات المـؤرخين العلمـاء المنصفين ، وهـل يُقْبَـلُ من مؤرِّخ أن يجعل سبب إجلاء بني قينقاع عن مساكنهم قتلهم لرجل مسلم ؟ ألا نجد لكل حادث تاريخي سبباً مباشراً ، وأسباباً حقيقيَّة غير مباشرة ؟ لكنـه التَّعصُّب والحقد ، ينحرفان بالإنسان حتَّى ولو كان عالماً عن جادة الحقِّ ، وعن الموضوعيَّة في بحثه ودراسته !!

والحقيقة التَّاريخيَّة الَّتي يعلمها بروكلمان ، تقول :

قـال ﷺ : « هـذه عير قريش فيها أمـوالهم ، فـاخرجـوا إليهـا لعـل الله ينفلكموها »[١] ، وأبو سفيان يعلم علم اليقين ، أن هناك حربـاً معلنـة بين المسلمين وقريش ، لـذلـك حين دنـا من الحجـاز تحسَّس الأخبـار[٢] ، وسـأل من لقي من الرُّكبان تخوُّفاً على عير قريش ، حتَّى أصـاب خبراً من بعض الرُّكبـان : إن محمَّـداً قد استنفر أصحابـه لـك ولعيرك ، فحـذر عنـد ذلـك ، واستـأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى مكَّة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمَّداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم إلى مكَّة مسرعاً[٣] .

فرسول الله ﷺ لم يتربَّص لأبي سفيان ، بل أراد قطع الشريان الاقتصـادي لقريش الَّتي بدأته بالعداوة والحرب .

وسبب إجلاء بني قينقاع بعد بدر الكبرى ، يعود إلى ما يلي[٤] :

---

(١) ابن هشام : ١٨٢/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٥٣/١ ، ابن سعد : ١٢/٢ ، البدايـة والنهـايـة : ٢٥٦/٣ ، الطَّبري : ٤٢٧/٢

(٢) تحسس بالحـاء أن تتسمع الأخبـار بنفسـك ، والتَّجسس هو أن تفحص عنهـا بغيرك ، في الحـديث الشَّريف : « لا تجسَّسوا ولا تحسَّسوا » .

(٣) ابن هشام : ١٨٢/٢ ، الاكتفاء : ٨٧/١

(٤) الاكتفاء : ٩٩/١ ، الطَّبري : ٤٨١/٢ ، البداية والنهاية : ٣/٤

لما جاء البشيران ـ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ـ إلى المدينة بفتح الله عزَّ وجلَّ ، وقَتْل من قُتِل من المشركين ، قال كعب بن الأشرف اليهودي : ويلكم أحقٌّ هذا ، أترون أنَّ محمَّداً قتل الَّذين يُسَمِّي هذان الرَّجلان ، وهؤلاء أشراف العرب ، وملوك النَّاس ، والله لئن كان محمَّد أصاب هؤلاء القوم ، لبطنُ الأرضِ خيرٌ لنا من ظهرها ، ولمَّا تيقَّن الخبر ، خرج حتَّى قدم مكَّة ، وجعل يحرِّض على رسول الله ﷺ ، وينشد الأشعار ، ويبكي على قتلى بدر من قريش ، ثمَّ رجع كعب إلى المدينة فشبَّب بأُم الفضل بنت الحارث[1] ..

وتمادى اليهود بعدها ، لما قدمت امرأة مسلمة بحلية تريد بيعها بسوق بني قينقاع ، فجلست إلى صائغ منهم ، فعمد الصَّائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحك الصَّائغ ومن عنده ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصَّائغ فقتله ، ووثبت اليهود على المسلم فقتلوه .

وقال اليهود بعد بدر : « لم يلقَ محمَّد من يحسن القتال ، ولو لقينا لاقى عندنا قتالاً لا يشبهه قتال أحد ، يا محمَّد ، إنَّك ترى أنَّا كقومك ؟! لا يغرَّنَّك أنَّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنَّا والله لئن حاربتنا لتعلمنَّ أنا نحن النَّاس » .

إنَّها عداوة بدأها اليهود منذ وصول رسول الله ﷺ والمهاجرين إلى المدينة المنوَّرة ، وكانت بغياً وحسداً ، على الرَّغم من أنَّه ﷺ وادعهم وعاهدهم ، إنها حرب ، حاول ﷺ دفعها بشتَّى الصُّور ، وعلى الرَّغم من وقوعها ، فقد كانت ردّاً على تطاول وتحدٍّ وتحريض منهم .

فأين الحقيقة من قول بروكلمان : « فلم يكد ينقضي شهرٌ على معركة بدر ،

---

(١) انظر الأبيات في الطَّبري : ٤٨٨/٢ ، والَّتي مطلعها :
أراحِلٌ أنتَ لم تَحْلُل بمنقبةٍ ... وتاركٌ أنت أمَّ الفضلِ بالحَرَمِ !

حتّى وجّه محمّد رجاله عليهم لقتلهم في الظاهر رجلاً مسلماً ، كان قد قتل يهودياً إثر خلاف جرى بينهما ، فاضطرهم إلى الاستسلام » ؟!؟

☆ ☆ ☆

يقول بروكلمان : أُحُد على ما تقول الرِّوايات ثلاثة آلاف رجل ، ثم يقول عن المنافقين :

« ولكن همَّة المؤمنين ما لبثت أن اعتورها الضَّعف أمام هذا الجيش القوي » ، ص : ٥١ .

من أيِّ المصادر أو الرِّوايات توصَّل المؤرِّخ بروكلمان أن همَّة المؤمنين قد اعتورها الضَّعف أمام جيش المشركين القوي ؟ هل كان ذلك في بداية المعركة مع العِلْم بأن المؤمنين خرجوا إلى لقاء أعدائهم ولم يقبعوا في ديارهم ، والخروج دليل همة وليس العكس ؟ أم هل كل ذلك بعد بداية انتصار المؤمنين ، والانشغال بجمع الغنائم ، وعمليَّة التفاف الفرسان بقيادة خالد بن الوليد بعد نزول رماة المسلمين من قمَّة الجبل ، فكان من الطَّبيعي أن يحدث ارتباك في صفوف المسلمين ، وليس ضعفاً في همَّتهم ، فقد بقيت همَّتهم همة أبطال يطلبون الشَّهادة في سبيل الله ، وهم يصدُّون الأذى عن قائدهم ورسولهم ﷺ .

الضَّعف لم يعتورهم من وقوفهم قُبَالة جيش قوي ، تغيُّر الموقف في أُحُد جاء من القاعدة القائلة : « عند فَقْد المبادأة يستحيل تحقيق النَّصر » ، فبعد النَّصر وهزيمة قريش وتنكيس لوائها ، فارق الرُّماة مكانهم قائلين : انهزم المشركون ، فما مقامنا هنا ، وكان التفاف خالد بعدها ، فلحظة واحدة يمكنها أن تحدِّد مصير المعركة .

وكانت غزوة حمراء الأسد في يوم الأحد ١٦شوّال ٣ هـ ، أي في اليوم الذي

تلا تاريخ معركة أُحد مباشرة[1] ، أكبر دليل على حفظ معنويات جنود المسلمين مرتفعة عالية .

☆ ☆ ☆

« وكان على محمَّد أن يعوِّض هذه الخسارة الَّتي أصابت مجده العسكري من طريق آخر ، ففكَّر في القضاء على اليهود ، فهاجم بني النَّضير لسبب واهٍ ، وحاصرهم في حيِّهم .. » ص : ٥٢ .

لم يكن محمَّد ﷺ يبحث عن مجد عسكري ، لأنه لم يكن قائداً عسكرياً بالمعنى الَّذي يعرفه النَّاس في القادة العسكريين ، لأنَّه كان قبل كلِّ شيء نبيّاً رسولاً ، يأتمر بأمر ربِّه ، وينفِّذ ما يُوحى به إليه ، فالمجد عنده حين تعلو كلمة الله ، وينتصر شرعه ، فالرِّبح والخسارة في ميزانه تختلف عنها في موازين الآخرين .

وما رآه بروكلمان سبباً واهياً في مهاجمة محمَّد ﷺ ليهود بني النَّضير ، لم يكن كذلك ، وهذا السَّبب هو السَّبب المباشر ، والبحث العلمي الموضوعي يقتضي من المؤلِّف الباحث أن يعود إلى دراسة علاقات اليهود بالإسلام ورسوله ، ومواقفهم منه ليتعرَّف على الأسباب الحقيقيَّة وغير المباشرة لمحاربة بني النَّضير ، وما كانوا يشكِّلون من خطر على المسلمين ، وعلى قاعدة الإسلام الوحيدة ، وهي المدينة المنوَّرة ، خصوصاً بعد أعمالهم الَّتي فيها نقض صريح للمعاهدة المعقودة بينهم وبين المسلمين ورسولهم ﷺ .

أمَّا غزوة بني النَّضير ، فسببها كما تذكر كتب التاريخ الموثوقة[2] ، والَّتي لا يجهلها بروكلمان ما يلي :

---

(١) كانت أُحُد السَّبت ١٥ شوَّال ٣ هـ .

(٢) الاكتفاء : ١١١/١ ، السِّيرة النَّبوية لابن كثير : ١٠٨/٣ ، الطبري : ٥٥٠/٢ ، عيون الأثر : ٤٨/٢ ، ابن هشام : ١٠٨/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ١١٩/٢ ، البداية والنِّهاية : ٧٤/٤

خرج ﷺ إلى بني النَّضير ، وهم قوم من اليهود بالمدينة ، يستعينهم في دية للجوار الَّذي كان رسول الله ﷺ قد عقده معهم ، والَّذي نصَّ على أن يعاونوه في الديات ، وكان مع رسول الله ﷺ نفر من أصحابه[1] ، فقالوا له : نعم ياأبا القاسم ، نعينك على ماأحببت مما استعنتِ بنا عليه ، وقد آن لك أن تزورنا ، وأن تأتينا ، ولكن حتَّى تُطْعَم وترجع بحاجتك ، وكان ﷺ جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم ، فخلا بعضهم ببعض ، وقالوا : إنَّكم لن تجدوا الرَّجل على مثل هذه الحالة ، فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت ، فيُلْقي عليه صخرة فيريحنا منه ، وقال اليهود عندما رأوا قلَّة أصحابه ﷺ : نقتله ، ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكَّة فنبيعهم من قريش ، ساعدهم في موقفهم هذا نتائج غزوة أُحُد العسكريَّة ، والَّتي جاءت لصالح قريش ، ووعود المنافقين بزعامة عبد الله بن أُبي بن سلول ، وأملهم بإمدادهم من قبل بني قريظة وحلفائهم من غطفان ..

فأين هذه الحقائق من قول بروكلمان : « فهاجم بني النَّضير لسبب واهٍ » ؟ .

لقد طرح الإسلام في لحظاته الأُولى في المدينة المنوَّرة مبدأ عاماً ثابتاً على مرِّ الزَّمن ، ألا وهو المؤاخاة والتَّسامح والعيش معاً مع الأديان الأُخرى ، مع الاحترام الكامل لعقائدها ، ولم يجعل ذلك شعاراً مرفوعاً ، بل منهجاً أثبتته الوقائع والأعمال .

الإسلام دين قوي ومتسامح معاً ، ولكنه ماجعل التَّسامح موقفاً مهتزًّا يتلقَّى بسببه الضَّربات والمؤامرات من قريش واليهود ، بل جعل للتَّسامح قوَّة تحميه . فأمام عدوان بني النَّضير وتآمرهم ، أُخرجوا من المدينة المنوَّرة ، فالرَّحمة هنا لامحلَّ لها في موقفين متباينين ، تناقضت فيهما التَّصوُّرات ، طرف متسامح

(١) كانوا دون العشرة ، السِّيرة الحلبيَّة ٢/٢٧٧

يطرح المحبّة والتّعاون والتّعايش بأمان ، وطرف حاقد ماكر ناكث للعهد ، ينفّذ التآمر والقتل .

إنّ تصرُّفات اليهود سيطرت عليها روح الحفاظ على الامتيازات الّتي تمتّعوا بها ، عندما كان العرب فِرَقاً وقبائل متنافسة ، ولكن هيهات أن تنجح هذه الرُّوح في ظلّ الإسلام ، فما كان من عند الله يُمضِهِ[1] .

فهل هاجم رسولُ الله ﷺ بني النَّضير لسببٍ واهٍ ؟

بروكلمان نفسه لا يعتقد ذلك ، ولكن الحقد والصّليبيّة أنطقته به !!

والقوانين الدّوليّة ـ قديمها وحديثها ـ تجيز المعاملة بالمثل ، المعاملة بالمثل مبدأ مقرّر في القانون الدّولي ، وهذا المبدأ مقيّد في الإسلام بالفضيلة ، وبروكلمان يعلم ذلك ، وفي العاقبة الغادر خاسر دوماً ، والناكث للعهد خاسر ، وبنو قريظة هم الّذين بدؤوا العداء والإفناء واستئصال المسلمين بمالأتهم الأحزاب ، فكانت صفقة خاسرة ، لأنّهم نبذوا عهودهم في أشد ساعات الحرج والشّدة .

وعندما حاصر ﷺ اليهود ، من الملاحظ أنّهم لم يسألوه : لماذا هذا الحصار ؟! أو لماذا هذه الحرب ؟! وبالتّالي لماذا هذا القصاص ، وهذا العقاب ؟!

والجواب على هذا السُّؤال في عبارة واحدة موجزة قصيرة : « إنّهم أدرى بما صنعوا » .

وبعد هذا كله ، هل كان سلوك بني قريظة غامضاً ؟ أُقسم أنّه ليس غامضاً حتّى في ذهن بروكلمان ، ولكنه التّعصب ، أو الخبث ، أو الطّعن بأُمتنا وتاريخها .. أو كلُّها معاً ، فبروكلمان لا يجهل الوثائق الّتي تثبت نكثهم لعهدهم ،

---

(١) (الخندق) من سلسلة غزوات الرّسول الأعظم ، ص : ٣٥/٣٤

وتآمرهم ضد الإسلام ونبيِّ الإسلام والمسلمين !!

☆ ☆ ☆

« وفي نوَّار من سنة ٦٢٨ حاول النَّبيُّ أن يعوِّض من فشله الظاهري في الحديبية[(١)] ، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهوديَّة الغنيَّة في خيبر » ، ص : ٥٦ .

أوَّلاً : أين الدَّليل على أن النَّبيَّ ﷺ فشل في الحديبية ؟

في الحديبية ، جعل رسول الله ﷺ أمام ناظريه هدفاً واضحاً يريد تحقيقه ، ألا وهو إيقاف الحرب ، وحقن الدِّماء للتَّفرُّغ للدعوة ، وتبليغ الإسلام ، ونشر التوحيد بين القبائل بالحكمة والموعظة الحسنة ، مع الاعتراف الرَّسمي الخطِّي من قريش بهذا الحق .

فالهدنة مع قريش ستفسح المجال لتحقيق هذا الهدف داخل الجزيرة العربيَّة وخارجها ، وجاءت الوقائع مؤيِّدة ، والنتائج محقِّقة صحَّة وجهة نظره ﷺ ، والأثر كبير حتَّى على قريش ذاتها ، لأنَّه ﷺ دخل مكَّة في عمرة القضاء ، مما جعل أفراداً كُثُراً من أبنائها يعيدون حساباتهم ، كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص .

قال الزُّهري[(٢)] في صلح الحديبية : « فما فُتِح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنَّما كان القتال حيث التقى النَّاس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ،

---

(١) وذكر بروكلمان في ص ٦٨ أيضاً : « إخفاقه - ﷺ - في صلح الحديبية » .

(٢) محمَّد بن سعد بن منيع الزُّهري : [١٦٨ - ٢٣٠ هـ / ٧٨٤ - ٨٤٥ م] ، مؤرخ ثقة ، قال الخطيب في تاريخ بغداد : محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة ، وحديثه يدل على صدقه ، فإنَّه يتحرَّى في كثير من رواياته ، أشهر كتبه : الطَّبقات الكبرى ، [الأعلام : ٦/٧] .

وأمن النَّاس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكَلَّم أَحَدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلاَّ دخل فيه ، ولقد دخل تينك السَّنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر »[1] .

قال ابن هشام : والدَّليل على قول الزُّهري أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألفٍ وأربع مئة في قول جابر بن عبد الله ، ثمَّ خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف .

فصلح الحديبية اعتراف رسمي موقَّعٌ من قريش ، بأنَّ رسول الله ﷺ ومن معه قوة مستقلَّة متميِّزة ، وصنو قريش زعيمة القبائل ، وهذا يعني أيضاً أمام كلِّ قوى جزيرة العرب ، أن قريشاً قد اعترفت رسمياً بمن كانت تريد استئصاله ، مما جعل القبائل العربيَّة تعيد حساباتها ، لقد أيقن العرب جميعاً ـ من أسلم ومن لم يُسلِم بعد ـ أنَّ قوة جديدة ، بفكر جديد ، وتنظيم اجتماعي جديد ، ورابطة جديدة خلَّفت وراءها العصبيَّة القَبَلِيَّة ، قد أثبتت وجودها في جزيرة العرب ، ويتحتَّم على كلِّ العرب التفكير جدِّياً بها كأمر واقع من ناحية ، وكفكر منطقي سليم من ناحية ثانية .

كأمر واقع أثبت وجوده ، وبالتَّالي لقد غيَّر ميزان القوى لصالحه بعد الحديبية .

وكفكر منطقي سليم سفَّه الأصنام والأوثان والشِّرك .. وانتهج التوحيد المطلق لله عز وجل .

لقد أثمر صلح الحديبية بأسرع مما كان يُتَوقَّع ، وبأعجب مما كان يتصوَّره إنسان ، لقد أزاح قريشاً ـ العقبة الكأداء في طريق الإسلام منذ ظهوره ـ من

---

(١) وهذا القول أيضاً في : الاكتفاء : ١٢٩/١ ، ابن هشام : ٢٠٦/٣ ، البداية والنهاية : ١٧٠/٤ ، الطَّبري : ٧٩/٣

طريق الدَّعوة ، وسيحطِّم عنادها وجحودها مما سيجعلها تفكِّر بحل يحفظ لها ماء وجهها ، فأيٌّ فشل ، وقد دخل في الإسلام في سنتين من صلح الحديبية ما دخل فيه قبلاً ؟!.

ثانياً : ما سبق كان عن « الفشل الظاهري في الحديبية » الَّذي ادَّعاه بروكلمان ، والَّذي جعل غزوة خيبر تعويضاً ، « فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة الغنيَّة اليهوديَّة في خيبر » .

وهذا الرأي ، يدل بشكل قاطع على تحيُّز بروكلمان إلى اليهود ، مع بعده عن الموضوعيَّة والبحث العلمي المجرَّد من التَّعصُّب والهوى ، أتراه لا يعلم أن يهود خيبر قد ذهبوا إلى قريش يحرِّضونها على النَّبيِّ والمسلمين ؟ أما قالوا لقريش : إنا سنكون معكم عليه حتَّى نستأصله[1] ؟ .

عجيب ، غريب .. أتراه لا يعلم أن وفد اليهود برئاسة حيي بن أخطب جعل لغطفان تحريضاً على الخروج لقتال المسلمين ، نصفَ تمر خيبر كل عام ؟.

نعجب لهذا الأسلوب في قراءة تاريخنا العربي الإسلامي وكتابته ، فتاريخهم الأُوربي الكنسي يقرؤونه ويكتبونه غير هذه القراءة والكتابة المخصَّصة لنا !!.

إن قرَّر التَّاريخ أن تحالفاً يهودياً برئاسة خيبر ، ضمَّ يهود تيماء وفَدَك ووادي القرى مع غطفان ، تحت زعامة سلام بن مشكم ، هدفه غزو المدينة واستئصال الإسلام وأهله ، أَصمَّ بروكلمان ومن على شاكلته آذانهم .

« الاعتداء أمر ممقوت لا الحرب ، وليست كل حرب اعتداء » ، إن حبَّ القتل للقتل ذاته خُلُق رفضه الإسلام ، حارب سفك الدِّماء ، وجعله غريزة

(١) الاكتفاء : ١١٣/١ ، عيون الأثر : ٥٥/٢ ، ابن خلدون : ٢٩/٢ ، البداية والنهاية : ٩٢/٤ ، ابن هشام : ١٢٧/٣ ، الرَّوض الأُنف : ٢٧٦/٣ ، الطبري : ٥٦٤/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ١٨١/٣

مزجورة ، ولكنها ليست مبادة لحاجتها في أوقات مناسبة ، أُولاها الدّفاع عن النَّفس في الحرب الوقائيَّة .

الإقلاع عن الحروب أمر حسن لا شك فيه ، ولكن هل الذِّلة وقبول التّآمر والاعتداء أمرٌ حسن ؟ .

فلو عاش اليهود في خيبر ، واحترموا حقوق المسلمين ، وأزالوا من نفوسهم التآمر والاعتداء والتَّعالي ، فلا حرب ، أمَّا أن يقبل المسلمون الظلم والتآمر والجور بحجَّة أن الحرب أمر ممقوت فلا ، خصوصاً وأن موقف الإسلام من الدِّينين السَّماويين معروف جلي ، وواضح ثابت ، لا يخفى على بروكلمان ، فتسامح الإسلام معروف ، وسعة صدره حقيقة واقعة .

☆ ☆ ☆

« والواقع أن تحريم الخمر كان يهدف إلى تقييد الشُّعراء الَّذين كانوا كثيراً ما يتغنون بمجالسهم الخمرية المعربدة » ، ص ٥٣ .

كيف يجيز كاتب أو مؤرِّخ لنفسه أن يقرِّر أسباباً كما يحلو له ؟ وخصوصاً في أُمور دينيَّة لم يتركها المشرِّع لبروكلمان أو لغيره ، ليشرح أسبابها ، ويقرر واقعها ، بل وردت حولها آيات كريمة ، وأحاديث نبويَّة توضِّح وتقرِّر وتبيِّن ، وهل انتظر المسلمون إلى أن جاء بروكلمان ليبيِّن لهم الواقع في تحريم الخمر ؟.

ومَنْ قال له إن تحريم الخمر كان الهدف منه تقييد الشُّعراء وعربدة المخمورين منهم ؟

ومن الجدير بالملاحظة ، أن آيات تحريم الخمر لم تأتِ مرتبطة بالشُّعراء ومجالسهم .

ونتساءل : هل يفعل بروكلمان ذلك يا ترى حين يكتب ـ إذا كتب ـ عن

اليهوديَّة والمسيحيَّة وما حُرِّم فيهما ؟ أم يحترم نصوصهما ؟ أم أن التَّحريف والدَّس لا يجوز عنده إلاَّ إذا كان موضوع الدِّراسة يدور حول الإسلام وشريعته ؟!!

☆ ☆ ☆

وبعد أن تكلَّم بروكلمان عن غزوة الأحزاب « غزوة الخندق »[1] دون أن يذكر دور اليهود التّآمري فيها ، يقول :

« وفي اليوم نفسه هاجم المسلمون بني قريظة الَّذين كان سلوكهم غامضاً » ، ص : ٥٤ .

فلماذا أغفل بروكلمان الكلام عن دور اليهود عند كتابته عن غزوة الأحزاب ؟ علماً بأنَّ لليهود دوراً كبيراً ورئيسيّاً في تحريض المشركين والتَّجميع لغزو المسلمين في المدينة المنوَّرة ، ثم كان لهم دور آخر في التآمر على المسلمين خلال حصار المدينة ومن داخلها ، ممَّا شكَّل خطراً كبيراً على المسلمين لو نجحت مؤامرتهم . فهل يجوز لباحث موضوعي ، وفي دراسة تاريخيَّة علميَّة ، أن يغض الطَّرف وأن يتجاهل دور اليهود عند بحثه ودراسته لموضوع غزوة الأحزاب ؟

ومن ثَمَّ ، لماذا اعتبر بروكلمان سلوك يهود بني قريظة غامضاً ، علماً بأنَّ جميع الرِّوايات تُجْمِعُ على الموقف المعادي للإسلام ورسوله منذ بداية الدَّعوة ؟ وتجلَّت مواقفهم المعادية بحوادث كثيرة ، وكان أخطرها تآمر بني قريظة على المسلمين أثناء حصار المدينة في غزوة الأحزاب ، ولو تحقق لهم ما أرادوا في مؤامرتهم ، لتمَّ القضاء على الإسلام وأهله نهائياً .

ولم يقم رسول الله ﷺ بأي إجراء ضدهم إلاَّ بعد أن تأكَّد من نقضهم للعهد معه ، وهنا نسأل بروكلمان ومن على شاكلته : ماذا تفعل الدُّول الحديثة اليوم

(١) غزوة الأحزاب في شوَّال ٥ هـ .

حين تكتشف مؤامرة داخليَّة تهدِّد مصير الدَّولة ووجودها ؟ ألا يكون السَّحق والإبادة والموت جزاء القائمين بها ؟.

غزوه بني قريظة قصاص عادل لخيانة علنيَّة ، مع نقض معاهدة موقَّعة تعهَّدوا بموجبها دعم المسلمين إذا داهمهم عدو : « وإنَّ بينهم النَّصر على من حارب أهل هذه الصَّحيفة[1] ... » ، فانحازوا إلى جانب العدو ، ومتى ؟ عندما رأوا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة ، فظنوا أن الأمر قد انتهى ، واستُؤصل المسلمون عن آخرهم .

هذا ، وبعد صلح الحديبية ، ومهادنة قريش ، كان لابُدَّ من توحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام ، ومن الصَّعب تحقيق ذلك ، والخطر ما زال جاثماً في شمالي المدينة تترأسه خيبر للقضاء على الإسلام والمسلمين .

ويمكننا أن نجمل أسباب غزوة خيبر بما يلي :

١ ـ العداوة المستمرة الَّتي أعلنها حُيَيّ بن أخطب ، وتبنَّاها قائد يهود خيبر سلام بن مشكم .

٢ ـ رجوع النَّبي ﷺ من الحديبية دون عمرة ، فظن اليهود أن ضعفاً حلَّ بالمسلمين .

٣ ـ اتِّصال اليهود بغطفان يحرِّضونهم على المسلمين ، مقابل نصف ثمار خيبر وتمرها .

٤ ـ الحلف المعقود برئاسة خيبر ، والَّذي أراد مداهمة المدينة .

٥ ـ تحريض اليهود لقريش ، وسفرهم إلى مكَّة ليقولوا لزعماء قريش : إنَّا سنكون معكم عليه حتَّى نستأصله ، فقال لهم أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحب النَّاس إلينا من أعاننا على عداوة محمَّد .

---

(١) ابن هشام : ١٠٧/٢

ولن ينتظر رسول الله ﷺ والمسلمون حتَّى يفاجئهم اليهود (بزعامة خيبر) في المدينة ، وعلى ذلك ، كان هدف غزوة خيبر : القضاء على تآمر اليهود وحلفهم المبرم ضد المسلمين ، وإنهاء تأليبهم القبائل ضد رسول الله ﷺ[1] .

وبعد ، ما أثبته بروكلمان أهو الجهل بحقائق التَّاريخ ، أم المعرفة بها والدَّس عن عِلْم ومعرفة ؟ الأخيرة أرجح وأثبت على بروكلمان وأمثاله !!

☆ ☆ ☆

« وعندما بلغ محمَّد الكعبة طاف بها سَبْعاً على راحلته ، لامساً الحجر الأسود بعصاه في كلِّ مَرّة ، وبذلك ضمَّ هذا الطَّقس الوثني إلى دينه .. » ، ص : ٦١ ، وفي ص : ٧٦ يقول : « ولعل هذا الحجر أقدم الأوثان الَّتي عرفتها مكَّة قبل الإسلام ، وهو يشبه الحجارة المقدَّسة الأُخرى الَّتي كثيراً ما نجدها عند السَّاميين .. » .

كنا نتمنى لو أن كاتباً كبيراً ، ومؤلِّفاً في التَّاريخ مثل بروكلمان يكلِّف نفسه مشقَّة الرُّجوع إلى المصادر الرَّئيسيَّة ، وخصوصاً وهو يتقن العربية ، وكتابته حول أُمور خطيرة تتعلَّق بعقيدة يعتنقها مليار إنسان من سكان الكرة الأرضيَّة .

ليس غريباً أن يجهل أُوربي المعاني المتعلِّقة بالحجر الأسود وأصله ، وموقف الإسلام والمسلمين ورسولهم منه ، لكن الغريب أن يتصدَّى للكتابة حول هذا الموضوع إنسانٌ له صفة علميَّة ، ثمَّ يكتب جهلاً فاضحاً ، ودسّاً رخيصاً .

لقد تكلَّمنا عن الحجر الأسود في صفحات سبقت ، ونضيف : إن الصِّبية الصِّغار في عالم المسلمين يعرفون بما لا يقبل الشَّك أنَّ الإسلام جاء حرباً على الوثنيَّة بجميع أشكالها وألوانها وصورها ، والحجر الأسود ليس وثناً ، ولا صنماً ،

---

(١) غزوة خيبر « من سلسلة غزوات الرَّسول الأعظم » ، ص ٣٢/٣٣

ولا يعبده المسلمون ، وإنَّما لـه صفـة من الاحترام والتَّقـديس ، لأنَّـه يحمل ذكرى عقيـدة التَّـوحيـد منــذ بُنيت الكعبــة في عهــد إبراهيم وإسماعيـل ، فكيف يجيز بروكلمان لنفسه أن يقول : وبذلك ضمَّ هذا الطَّقس الوثني إلى دينه ؟

☆ ☆ ☆

وعن تبوك يقول بروكلمان : « ولسنـا نعرف على اليقين مـا الَّـذي دعـاه إلى انتهـاج هـذه السَّبيل في ذلـك الوقت بـالـذات ، فقـد يكون قصـد إلى أن يشغـل أتباعه المدنيِّين الَّذين كانوا لا يزالون في حال من عدم الارتيـاح بعـد توزيع غنـائم حنين .. حتَّى إذا بلغ تبوك ، وهي واحة تزهو بما ينبت فيهـا من حنطـة ونخيل قرب الحدود البيزنطيَّـة ، توقَّف بعـد أن نـالَ منـه الجهـد ، واستشعر وطـأة السِّن العالية » ، ص : ٦٥ .

« لسنا نعرف » .. ما الَّذي دعاه إلى انتهاج هذا السَّبيل ؟ نستغرب أن يعمد مؤرِّخ أو عـالم أو كاتب يحترم نفسـه إلى تجـاهل مـا يرد في المصـادر والمراجع حـول حـادثـة معيَّنـة ، وأن يلجـأ بـدلاً من ذلــك إلى التَّخمين والظَّن والاحتمال ، وأن يقول : « قد يكون قصد إلى أن يشغل أتبـاعـه المـدنيِّين الَّـذين كانوا لا يزالون في حال من عـدم الارتيـاح بعـد توزيع غنـائم حنين .. » ، أيكون الارتيـاح أشـد ، والحالة أفضل حين يغزو بهم في فصل القيظ ، والحر لا يطاق ، والهـدف من الغزو دولة الرُّوم ومن يحالفها من قبائل غسَّان ؟

أيكون الأمر من السُّهولة والبساطـة إلى هـذه الـدَّرجـة في تفكير رجل يقود شعباً ، ويحمل مسؤولية ، ويؤسس دولة ، فيغامر مغـامرة خطيرة من أجل عـدم ارتياح أتباعه بشأن توزيع الغنائم ؟ مع أنَّهم بكوا خشوعاً وإيمـانـاً حتَّى أَخْضَلُوا لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ربّاً ، ورسوله قَسْماً ، رضينا برسول الله قَسْماً وحَظّـاً ، ونال الأنصار وساماً خالداً على مرِّ الزَّمن ، عنـدمـا قـال ﷺ : « اللّهم أنتم أحبُّ

النَّاس إليّ ، الأنصار حبُّهم إيمان ، وبغضهم نفاق ، اللّهم اغفر للأنصار ، ولأبناء الأنصار ، ولأبناء أبناء الأنصار ، ولنساء الأنصار ، ولنساء أبناء الأنصار ، ولنساء أبناء أبناء الأنصار[1] » .

أليس الأجدر بالباحث والعالم أن يوسّع دائرة البحث ، ليصل إلى الأسباب المختلفة لكل حادثة من حوادث التَّاريخ ؟ ويحسن به أن يكون دقيقاً في تعابيره ، فلو قال : قرب حدود بلاد الشَّام ، كان أقرب إلى الصِّحة والدِّقة من قوله : قرب الحدود البيزنطية ، ففي بلاد الشَّام إمارة عربية تحت النُّفوذ البيزنطي هي إمارة الغساسنة .

وهل رأى بروكلمان رواية واحدة تعيد أسباب التَّوقُّف والانسحاب إلى ما نال منه من الجهد ، ووطأة السِّن العالية ؟

☆ ☆ ☆

« مرض النَّبي بداء الملاريا ـ على الأرجح ـ وكان من أمراض المدينة المألوفة ، وعلى الرَّغم من أن سِنِيَّه لم تكن قد تجاوزت السّتين ـ على الأكثر ـ فقد تطرَّق الضَّعفُ إلى نشاطه بسببٍ من المصاعب الَّتي حفلت بها سنواته الأخيرة ، وبسبب من الحياة الزَّوجيَّة الواسعة الَّتي عاشها » ، ص : ٦٧ .

أهو الجهل أمْ الدَّس الرَّخيص المكشوف ، والتَّجاهل لحقيقة الموضوع المتعلِّق بحياة الرَّسول ﷺ ؟

ولما كان هذا الكلام صادراً عن كارل بروكلمان ، فإنَّنا نستبعد الجهل !! وليته قرَّر أن يكون موضوعياً نزيهاً ينشد الحقيقة ، ولو فعل ذلك لأدرك أن

(١) انظر : الطبري : ٩٤/٣ ، ابن خلدون : ٤٨/٢ ، البداية والنهاية : ٢٥٧/٤ ، عيون الأثر : ١٩٤/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦٧٥/٣ ، ابن هشام : ١٠٦/٤ ، الكامل في التَّاريخ : ١٨٤/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٤١/٣ ، الرَّوض الأُنُف : ١٦٩/٤ ...

ما يفكّر به ، أو يقصد ويرمي إليه ـ هو وأمثاله ـ أبعد ما يكون في حياة رسول الله ﷺ .

لقد عاش ﷺ ثلاثاً وستين سنة ، وهذا المتوسّط الطبيعي للأعمار آنذاك ، وحتى في أيامنا هذه ، أما عبارة « الحياة الزّوجيّة » ، فتعبير بعيد عن التاريخ والعلم ، وهو تكهُّن لا يمكن الوصول إلى حقيقته ، أضف إلى ذلك أن الرسول مرض في آخر حياته ، بما لا صلة له بما يذهب إليه بروكلمان ، وهذه هي الحقيقة التّاريخيّة[1] :

بعد فتح خيبر[2] ، جعلت زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم تسأل : أي الشّاة أحب إلى محمّد ؟ فيقولون : الذِّراع ، فعمدت إلى عنزٍ لها فذبحتها وسلختها وطبختها ، ثمّ عمدت إلى سُمٍّ لا يلبث أن يقتل من ساعته ، فسمّت الشاة[3] ، وأكثرت في الذّراعين والكتف ، فلما غابت الشّمس ، صلى رسول الله ﷺ المغرب بالنّاس ، فقدّمت له الشّاة ، فسألها ﷺ عن السّبب ، فأجابت : يا أبا القاسم ، هديّة أهديتها لك ، فأمَرَ بها ﷺ فوضعت بين يديه ، وبعض أصحابه حضور ، وفيهم بشر بن البراء بن معرور ، فقال رسول الله ﷺ : ادنوا ، فقعدوا ، وتناول رسول الله ﷺ الذّراع ، أو الكتف ، فانتهش منه ، فلما ازدرد ﷺ لقمة ازدرد بشر ما في فيه ، فقال ﷺ : ارفعوا أيديكم ، فإن هذه الذراع تخبرني أنّها مسمومة ، فقال بشر : والّذي أكرمك ، لقد

---

(١) كما جاءت في كتبنا التّاريخيّة الموثوقة .

(٢) غزوة خيبر : المحرّم ٧ هـ / آب ٦٢٨ م .

(٣) لأخبار الشّاة المسمومة راجع : الاكتفاء ١٣٢/١ ب ، السّيرة الحلبيّة ٦٣/٣ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير ٣٩٤/٣ و ٣٩٨ ، ابن خلدون ٣٩/٢ ، الطّبري ١٥/٣ ، الوفا بأحوال المصطفى ٧٦٧/٢ ، الرّوض الأنف ٦٢/٤ ، البداية والنّهاية ٢٠٨/٤ ، الكامل في التّاريخ ١٥٠/٢ ، السّيرة النّبويّة والآثار المحمديّة ٢٥٠/٢

وجـدت ذلـك في أكلتي ـ أي في لقمتي ـ الَّتي أكلت ، فما منعني أن ألفظهـا إلاَّ أن أُنغِّص عليك طعـامـك ، فلما أكلتَ مـا في فيـك ، لم أرغب نفسي عن نفســك ، ورجوت أن لا تكون ازدرتها ، فلم يقم بشر من مكانه حتَّى عـاد لونـه كالطَّيلسـان ـ أي أسود ـ وماطله وجعه سنة ثم مات .

ثم أرسـل ﷺ إلى تلك اليهوديَّة ، فقـال : « أسممت هـذه الشَّـاة ؟ » ، فقالت : من أخبرك ؟ قال : « أخبرتني الَّتي في يدي » ، وهي الـذِّراع ، قـالت : نعم ، قال : « ما حملك على مـا صنعت ؟ » قـالت : بلغت من قومي مـا لا يخفى عليـك ، قتلت أبي وعمِّي وزوجي ، ونلت من قـومي مـا نلت ، فقلت : إن كان مَلِكاً استرحنا منه ، وإن كان نبياً فسيخبره ، « إن كنت نبياً فلن تضرّك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك » .

ودخلت أُخت بشر بن البراء[1] على رسـول الله ﷺ في مرضـه الَّـذي مـات فيه ، وبقي رسول الله ﷺ ثلاث سنين حتَّى كان وجعه الَّذي توفي فيه ، فقال : « مازلتُ أجِـدُ من الأكلـة الَّتي أكلتُ من الشَّـاة يوم خيبر عَـداداً ـ معـاودة الألم ـ حتَّى كان هذا أوان انقطاع أبهري[2] » .

فهذا هو سبب مرضه ووفاته ﷺ لا « الحياة الزَّوجيَّة الواسعة الَّتي عاشها » .

☆ ☆ ☆

« ولقد كان يُعْلِن أحكامه السِّياسيَّة في المدينة بوصفهـا جزءاً من القرآن ، أي جزءاً من الوحي الإلهي » ، ص : ٦٨ .

---

(١) وفي الطَّبري ، أن أم بشر هي الَّتي دخلت على رسول الله ﷺ .

(٢) وفي روايـة : « مـازالت الأكلة الَّتي أكلتُ بخيبر تُعَـادُّني فهـذا أوان انقطـاع أبهري » ، وتعـادُّني : تراجعني ويعاودني ألم سمِّها ، والأبهر : عرق مستبطن القلب ، قال ابن مقبل :

وللفـــــؤادِ وجيبٌ تحتَ أَبْهَرِهِ ... لَـدْمَ الـوليـدِ وراء الغيبِ بـالحجر

إن ما كان يمليه رسول الله ﷺ على أصحابه من كتبة الوحي ، ثبت لدى العدو والصّديق ، والمؤمن به وغير المؤمن ، هو غير حديثه ﷺ العادي ، فجميع آيات القرآن الكريم ، إنّما هي آيات أُوحي بها إليه ، وسمعها منه مباشرة أصحابه الّذين كتبوها كلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً ، دون أيّ تبديل أو تحريف ، ولم تسجل بعده بعشرات أو مئات السّنين روايةً عن تلامذته ، كما حدث بالنسبة لمن سبقه من الرُّسل ..

ويقول د . عمر فروخ في هامش ص ٦٨ :

« كانت الأحكام السّياسيّة إذا نزلت في القرآن اعتبرت جزءاً منه ، أمّا مفردات خطط النّبيّ وسياسته ، فكانت أُموراً دنيويّة بحتة ، وقد سُئل في معركة بدر فيما إذا كان ترتيب المعركة على الشّكل الّذي اتخذه وحياً من الله ، أمْ أنّه كان من عنده هو ، فأعلن أن ذلك من عنده هو ، ولما اقتُرح عليه أن يبدّل ترتيب المعركة فعل(١) » .

☆ ☆ ☆

(١) قال الْحُبَاب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدّمه ، ولا نتأخّر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال ﷺ : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » ، فقال الْحُبَاب بن المنذر : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالنّاس حتّى نأتي أدنى ماء من القوم ، فإنّي أعرف غزارة مائهِ وكثرته ، فننزله ، ثم نغوّر ما وراءه من القُلُب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، لأن القُلُب كلّها حينئذ تصير خلف ذلك القليب ، وتغويرها كيلا تأتي قريش إليها من خلفهم ، فالغرض إذن قطع أملهم من الماء ، ولفتة الْحُبَاب هذه لفتة خبير عليم بقيمة الماء وأهميته في الصحراء ، فجيش يفقد الماء في مثل طبيعة أرض الجزيرة ، يفقد السّيطرة على تصرُّفاته ، لأنّه يكاد يفقد حياته . قال ﷺ : « لقد أشرت بالرأي » ، فنهض ﷺ ومن معه من النّاس ، فسار حتّى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقُلُب فَغُوِّرت ... ويومئذ قيل للْحُبَاب بن المنذر : « ذو الرأي » ، [أُسد الغابة ٤٣٦/١] .

« إنَّ الوحدانيَّة التجريديَّة الَّتي كانت إلى حَدٍّ كبير أساس قوَّة الإسلام ، على غزو القلوب ، واكتساب الأتباع لم تنشأ إلا تدريجيّاً » ، ص : ٧٠ .

إن هذا القول ينفي عن بروكلمان صفة العالم أو الباحث الموضوعي .

إن الأطفال في العالم الإسلامي يعرفون ـ وحقّاً ماعرفوا ـ أن دعوة الإسلام بدأت أوَّل ما بدأت بالدَّعوة إلى هجر الأصنام والأوثان ، للالتزام بتوحيد مطلق ، وعبادة ربِّ السَّماوات والأرض وحده ، خالق كل شيء ، الواحد القهار .

ولو عاد بروكلمان إلى الآيات القرآنية ، ودرس تاريخ نزولها على قلب المصطفى ﷺ ، لوجد أن أوائلها تؤكد على عقيدة التَّوحيد ، التي هي جوهر الإسلام ، وحولها وعليها تقوم جميع المبادئ في الإسلام ، فالله سبحانه يغفر كلَّ شيء إلاَّ أن يشرك به ﴿ **إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إثْماً عَظِيماً** ﴾ [النِّساء : ٤٨] ، ﴿ **إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْركَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً** ﴾ [النِّساء : ١١٦] ، فأين التدريج في الدَّعوة إلى وحدانية الله ، وهي الَّتي ماقام الإسلام إلاَّ بالبدء بالدَّعوة إليها ، وبناء الكيان الإسلامي عليها .

هذا ، وسورة الإخلاص مكِّية : ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِد وَلَم يُولَد ، وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ ، فأين التَّدرج ؟

☆ ☆ ☆

« اقتبس النَّبيُّ عن التوراة فكرة الخطيئة الأصليَّة » ، ص ٧٠ .

النَّبيُّ لم يقتبس ، وما دام نصُّ العبارة الَّتي يقولها بروكلمان « اقتبس النَّبيُّ » ، فهو يعترف بأنَّه نبيٌّ ، والنَّبيُّ يحمل دعوة الله إلى النَّاس ، وبالتَّالي فهو لا يخترع ، ولا يختلق ، ولا يقتبس ، بل يوصل رسالة الله إلى البشر ، وما دام

مصدر الرِّسالات السَّماويَّة واحد لا شريك له ، لم يتبدَّل ، ولم يتغيَّر ، وهو الأبدي الأزلي ، فمن الطَّبيعي والبدهي أن تكون في رسالاته المتتابعة إلى النَّاس ، والَّتي سمع البشر آياتها من إبراهيم وموسى وعيسى ومحمَّد عليهم صلوات الله ، أن تكون فيها قصص وأخبار ومبادئ متشابهة ، لأنَّها صدرت عن رب واحد لا إله غيره ، وهو الَّذي أوحى إلى أنبيائه بالشَّكل الَّذي أراد ، وبالأسلوب الَّذي رغب به ، فهل نقول والحالة هذه : إنَّ نبياً اقتبس من آخر ؟ وهل إذا وجدنا آية أو خبراً على لسان المسيح عليه السَّلام يشبه ما كان قد جاء به موسى عليه السَّلام ، قلنا بأنَّ المسيح اقتبس تلك الآية ، أو ذلك الخبر عن موسى ، أو عن التوراة ؟

كان على بروكلمان أن يجد في أي تشابه بين الدِّيانات الدَّليل على وحدة مصدرها ، ومع ذلك الخطيئة الأصليَّة ، أو « الخطيئة المميتة » ، أو الخطيئة بإطلاق ، هي « مفهوم » مسيحي ، ولا صلة له بالإسلام مطلقاً : ﴿ **وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى** ﴾[1] .

إن خروج آدم من الجنَّة مع حواء ، لم يحمِّل الجنس البشري إثماً معيَّناً ، ولقد أُخرج آدم من الجنَّة قصاصاً له هو ، أمَّا سائر المسلمين ، فلا يعذَّبون عن آدم ، ولا بسبب آدم . والنُّبوة في الإسلام ليست نتيجة لخروج آدم من الجنة ، بل هي رسالة الله إلى الأُمم ، التي تحتاج بين عصر وعصر إلى من يهديها ويدلها على الصراط المستقيم[2] .

☆ ☆ ☆

« وإنَّما ترجع معتقداته فيما يتعلَّق بالعالم الآخر إلى مصادر يهودية ، وهكذا تتَّصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة » ، ص ٧١ .

(١) وردت في السُّور التالية : الأنعام ١٦٤ ، الإسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزُّمر ٧

(٢) هامش ص ٧٠ « تاريخ الشعوب الإسلامية » بتصرُّف .

يناقض قول بروكلمان هذا ، قوله في ص ٧٣ : « ويتوعَّد محمَّد الآثمين بأهوال أُخرى غير النَّار ، ولكن من غير تـدرُّج نظـامي في العقوبـات ، كما هي الحـال في التخيُّلات اليهوديَّة والنَّصرانيَّة للجحيم » ، فتصوُّر محمَّد ﷺ للعالم الآخر وما فيه ، يختلف عن التخيلات اليهودية والنَّصرانيَّة ..

ويصح هنا مـاذكر في النَّص السَّابق من كون مصـدر الـدِّيـانـات السَّماويـة واحد ، فمن الطَّبيعي أن نجد تشابهاً وتمـاثلاً في بعض الأُمور الَّتي وردت في التَّوراة والإنجيل والقرآن .

أما ما يتَّصل منها بالتَّشابه مع مصادر فارسية وبابليَّة قديمـة ، فلهـا تفسيرات مختلفة ، منها أن هذه المصادر ربما تـأثَّرت بعقـائـد وأفكار دينيَّـة سـابقـة لهـا من الأنبياء غاية في القدم : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فـاطر ٢٤] أو أن الإنسان توصَّل بفطرته إلى بعض المعتقدات الَّتي وردت في الكتب السَّماويَّة .

و د. عمر فروخ يعلِّق على رأي بروكلمـان السَّـابق بقولـه : « يبـدو من هـذا المكان ، ومن الصفحات التَّالية أن معلومات بروكلمـان ضعيفـة في نـاحيـة الفقـه والعبـادات ، وهـذا غير مستغرب ، فـالرَّجل لغوي في الـدَّرجـة الأُولى ، من أجل ذلك أحبُّ أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى التَّفطُّن لـذلـك من غير أن أُعلِّق على كلِّ شيء ، وإلاَّ اضطررت إلى أن أبسط حقائق الـدِّين الإسلامي من جـديـد » . ص ٦٩ .

☆ ☆ ☆

« وليس من الميسور أن نقرِّر على وجه الدِّقـة ، مـاإذا كان النَّبيُّ قـد استشعر أنَّه مدعو لمثل هذه الرِّسالة العالميَّة ، ص ٧١ .

وقال بروكلمان في ص ١٠٧ : « ولكن أحداً أوّل الأمر لم يكن يتوقّع أن يعتنق غير العرب الإسلام » .

لو أن بروكلمان كلّف نفسه عناء تتبُّع الآيات القرآنية في نزول الوحي بها على نبيِّ الإسلام ، لما احتاج أن يقول ما قال ، ولعلم أن النّبيَّ الكريم كان يتلو على أصحابه من الآيات ما يشعرهم بأنَّهم يحملون رسالة عالميَّة ، وأنه بعد دعوته لقومه ، ولأصحابه الأقربين ، مكلَّف بحمل رسالة للنَّاس كافَّة ، وأنَّه رسول للعالمين ، فلم يبعث بدعوته لعشيرته ، أو لقومه ، أو للعرب فقط ، وإنما للبشر جميعاً .

وكيف يخطر في بال بروكلمان أن أحداً أوَّل الأمر لم يكن يتوقَّع أن يعتنق غير العرب الإسلام ، والمسلمون يتلون الآيات الدَّالة على عالميَّة رسالة الإسلام ، والَّتي لا تفرِّق بين عربي وأعجمي ؟

﴿ **إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين** ﴾ ، [ص ٨٧ ـ ٨٨] .

﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذي نَزَّلَ ٱلفُرقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾ ، [الفرقان ١] .

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ ، [سبأ ٢٨] .

﴿ **قُلْ ياأَيُّها النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيكُمْ جَمِيعاً** ﴾ ، [الأعراف ١٥٨] .

فمنذ اللَّحظة الأُولى دعا رسول الله ﷺ جميع النّاس ، وعلم أنَّه رسول لكل البشر ، فقد جاء في السُّورة الثَّانية من حيث التَّرتيب التَّاريخي لسور القرآن : ﴿ **نَذِيراً لِلبَشَرِ** ﴾ ، [المدَّثر ٣٦] .

فالنَّبيُّ استشعر منذ بدء الوحي أنَّه مدعوٌّ لمثل هذه الرِّسالة العالميَّة ، فبلال أوَّل ثمار الحبشة ، وصهيب أوَّل ثمار الرُّوم ، وسلمان أوَّل ثمار الفرس ، وتنبَّأ ﷺ عند هجرته إلى المدينة ، وهو في أشد ساعات الحرج والخطر بأنَّ سراقة بن مالك

سيلبس سواري كسرى ونطاقه عندما قال له : كيف بك ياسراقة إذا سوّرت بسواري كسرى ؟ قال سراقة : كسرى بن هرمز ؟ قال ﷺ : نعم[1] .

ومن أحاديثه ﷺ : « إنّي بعثتُ رحمة وكافة فأدُّوا عنّي يرحمكم الله »[2] .

☆ ☆ ☆

ويقول بروكلمان :

« يتحتَّم على المسلم أن يعلن غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم ، لأَنَّ محاربة غير المسلمين واجب ديني » ص ٧٨ .

لو كان رأي بروكلمان هذا صحيحاً ، لم يبق مسيحي أو يهودي في ديار الإسلام عندما حقّق المسلمون انتصاراتهم الرّائعة في اليرموك والقادسية ونهاوند ..

فلا أدري من أي المصادر نقل بروكلمان - الموضوعي ، العميق ، الّذي اتّصف بالشُّمول والجدة - هذه الفكرة ، وهي حتميَّة عداوة المسلم لغير المسلمين ، وأن محاربة غير المسلمين واجب ديني ، وعكسها هو الصَّحيح .

لو أن بروكلمان اطَّلع على مصدر الإسلام الأَوَّل وهو كتاب المسلمين القرآن الكريم ، وجمع منه الآيات المتعلّقة بغير المسلمين وعلاقة المسلمين بهم ، وهذا أَوّل ما يجب على من يكتب عن الإسلام والمسلمين ، لوجد أنَّ علاقة المسلمين بغيرهم لا تقوم على ما تصوره بروكلمان ، وعلى ما أوحى له به تعصُّبه وحقده ، ولا أُريد أن أقول جهله ، فهو العميق المتَّصف بالشُّمول والجدَّة ، قال الله تعالى يخاطب المسلمين : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ ، [البقرة : ١٩] .

---

(١) الكامل في التّاريخ ٧٤/٢ ، عيون الأثر ١٨٢/١ ، ابن هشام ٩٦/٢ ، البداية والنّهاية ١٨٥/٣ ، السِّيرة النّبويَّة ٣٧٢/١ .

(٢) الطبري ٦٤٥/٢ .

وهلاَّ سأل بروكلمان ـ لو كان لا يعلم ـ اليهود ، وهم من أكثر الفئات عداء للإسلام والمسلمين ، كيف عاشوا مئات السِّنين في ظلِّ حكم الإسلام والمسلمين ، وكيف أنَّهم لم يعرفوا إلاَّ التَّسامح ، والمعاملة الحسنة في المشرق والمغرب ، وخصوصاً في الأندلس .

أمَّا النَّصارى ، فلا أُريد أن آتي بأمثلة من تاريخ علاقتهم مع المسلمين ، بل يكفي أن أذكر قول الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمنوا الذين قَالُوا إنَّا نَصَارى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُم قِسِّيسِينَ وَرُهباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكبِرونَ ، وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى ٱلرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُم تَفيضُ مِنَ ٱلدَّمعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكتُبْنا مَعَ الشَّاهدين** ﴾ ، [المائدة : ٨٢ ـ ٨٣] .

ويجب التفريق بين الكفَّار وبين أهل الكتاب ، الكفار هم عبدة الأوثان ، والعرب الجاهليون من عبدة الأوثان ، فهؤلاء يجب أن يقاتَلُوا ، لأن العربي لا يجوز أن يبقى وثنياً ، أمَّا أهل الكتاب كالنَّصارى واليهود ـ أينما كانوا ـ فلا سبيل عليهم ، إنَّهم أحرار في دينهم وشؤونهم ، ولكن الإسلام يقاتلهم إذا نقضوا عهده أو حاربوه ، وهذا يدخل في باب السِّياسة والحرب ، لا في باب الدِّين والدَّعوة .

☆ ☆ ☆

« والطَّلاق في الإسلام أمرٌ ميسور جداً غيرَ شك » ، ص ٨٠

ليت بروكلمان قال : والطَّلاق عند غير المسلمين أمر ميسور جداً ، لكنا غفرنا له بعض خطئه ، أمَّا أن يقول بأنَّ الطلاق في الإسلام أمر ميسور جداً ، ليجعل القارئ يعتقد بأن أمر الطلاق كلمة سهلة على لسان كل مسلم ، وهذا ما قصد إليه ، فإنَّه يكون قد جانب الحقيقة ، وأساء إلى مبدأ أقرَّه الإسلام ، وجعل

منه صمام أمان لسعادة الأسرة وليس لشقائها كما يتصوَّر الجاهلون والحاقدون ، فالإسلام أباح الطَّلاق لحل مشكلة يستعصي حلها في أسرة تبحث عن الاستقرار والهناء والسَّعادة .

الطلاق في الإسلام هو آخر سهم في الجعبة ، لا يستخدمه صاحبه إلاَّ إذا أخفق في كل طريق آخر ، ذلك لأنَّ المسلم يعلم رأي نبيِّ الإسلام ﷺ حيث يقول : « أبغض الحلال إلى الله الطَّلاق » ، فكان على بروكلمان أن يكون منصفاً ، وأن يقول : إن الطلاق في الإسلام أمر ميسور للمسلم الَّذي يضطر إليه ، فقد يعقب الحب كراهية ، والوفاق خلاف ، والتَّفاهم نزاع ، فيعترف الإسلام بالأمر الواقع ، ويضع الطلاق حَلاًّ أخيراً : ﴿ **فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾ ، [البقرة ٢٢٩] .

إنَّ الطَّلاق دواءٌ مرٌّ المذاق ، ولكن مرض الشِّقاق أكثر مرارة وقسوة ، وطالما بتر الأطباء عضو إنسان حرصاً على الإنسان كلِّه ، والطَّلاق خير من الموقف الَّذي يحصل كثيراً في الغرب عندما تسوء العلاقة بين الزَّوج وزوجه ، ولا طريق للتَّوفيق بينهما ، فيأخذ كلٌّ منهما خديناً له ، لأن الزَّواج غير مباح لأي منهما قبل الطَّلاق ، والطَّلاق يصعب الحصول عليه ، فلتكن الخدانة الأثيمة هي الحل ، وأدركت بعض الدُّول الغربيَّة الأمر بعد مظاهرات طالبت البابا بأن يحل لهم الطَّلاق لينقذ به شقاء دائماً تعيشه كثير من أسرهم ، فيسَّرت الحصول على الطَّلاق ، وكانت آخر هذه الدُّول إيطالية ، حيث أباحته عام ١٩٧١ م ، ويكفي أن نعلم أنَّه ما إن أُقر الطَّلاق في إيطالية ، حتَّى قدِّم إلى المحاكم أكثر من مليون طلب طلاق ، وعلينا أن نتصوَّر حياة مليون أسرة كانت تعيش حياة الشَّقاء والنَّكَد داخل البيت ، يفر منها الزَّوجان إلى العلاقات غير الشَّرعيَّة ، ليقوم بذلك نظام غير شرعي هو نظام الخليلات ، وهو ما تعاني منه المجتمعات الأُوربيَّة[1] .

---

(١) الإسلام في قفص الاتهام ، الطبعة الخامسة ، ص ٢٣٢

كما بدأت صناعة التّهنئة المختلفة ، تتّجه إلى قضايا الطلاق باعتبارها أمراً واقعاً ، فظهرت في بعض أسواق الدّول الغربيّة بطاقات مخصّصة للأشخاص الّذين أنهوا علاقاتهم الزّوجيّة ، وللأشخاص الّذين يودّون تهنئتهم بذلك ، فقد حوَت بعض البطاقات عبارات مثل : « تهانينا لطلاقكم » ، و « نحسدكم على حريتكم » ، و « ما أجمل ما صنعتم .. حظّاً سعيداً » ، كما أن في الأسواق أيضاً بطاقات مزدوجة متوّجة بكلمة « انقسام » ، وهي خاصّة بالأزواج المطلّقين ، بحيث يكتب الزّوج المطلق اسمه وعنوانه ورقم هاتفه على جهة ، وتكتب الزّوجة المطلّقة كلّ ذلك على الجهة الأُخرى ، والسّوق الأمريكيّة هي الّتي يجري فيها حالياً تصريف بطاقات الطّلاق أكثر من الأسواق الأُخرى إذ أن معدّل الطلاق في أمريكة قد ارتفع ٣٣٪ خلال الأعوام العشرة الماضية[1] .

الطلاق في أوربة أمر ميسور ، وهو في الدّول الاسكندينافيّة أهون الأُمور ، إنه شائع عادي متكرر لدى أهل الشّمال ، ولا يجد فيه الرّجل حرجاً ، ولا تلقى المرأة منه بأساً ، ولا ينظر إليه المجتمع نظرة نكراء ، ويكاد يكون في نظرهم طبيعياً كالزّواج ، ويبالغ بعضهم فلا يرى في الطلاق ما يعدو تغيير غرفة في فندق !!.

☆ ☆ ☆

« ولم يتعرّض محمّد لنظام الرّقيق بأكثر مما تعرّضت الكنيسة المسيحيّة الأُولى لهذا الأساس الّذي قامت عليه الحياة الاقتصاديّة عند القدماء ، ولكنه لطّف من حدّة هذا النّظام بطرائق مختلفات » ، ص ٨١ .

ما أظن بروكلمان يؤمن بصحّة ما ذكره في كتابه عن موقف الإسلام من

---

(١) عن الأسبوع العربي ، العدد ٦٨١ ، ص ٦٥

الرِّق والرَّقيق ، ولا أُريد هنا أن أتعرَّض للمقارنة بين الإسلام وغيره من الدِّيانات والأنظمة الأُخرى ، لما يخشى أن يظن بأنَّه تعريض بمواقف الآخرين ، لكنني أقول لو أن صاحبنا ـ الموضوعي ـ أنصف وأراد ذكر الحقيقة ، لما قال بأنَّ محمَّداً لطَّف من حدَّة هذا النظام بطرائق مختلفة ، بل لقال إنَّ الإسلام أوجد طرائق مختلفة لتحرير الرَّقيق ، والوصول إلى مجتمع لا وجود فيه إلاَّ لأحرار ، وذلك بفتحه أبواب التَّحرر أمام الأرقاء ، وتضييقه لأبواب الرِّق والاسترقاق ، وعليه أن يذكر أن استرقاق الأسرى وهو أكبر مصدر للرَّقيق ليس هو من نظام الإسلام ، ولا من تعاليم محمد ﷺ نبيِّ الإسلام ، بل هي أعراف وعادات سادت شعوب العالم قبل ظهور الإسلام ، فإذا استرق المسلمون أسراهم ، فإنَّما هي معاملة بالمثل ليضمنوا من ورائها تحرير الأسرى من جنودهم .

وقول بروكلمان « ولم يتعرَّض محمَّد لنظام الرَّقيق بأكثر ممَّا تعرَّضت الكنيسة المسيحيَّة الأُولى لهذا الأساس الَّذي قامت عليه الحياة الاقتصادية عند القدماء ... » ، كان يجب أن يمهِّد له بموقف الكنيسة من الرَّقيق .

لقد أمر بولس الرَّسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون السَّيِّد المسيح ، فقال في رسالته إلى أهل (أفسس) : « أيُّها العبيد ! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدعة العين كمن يرضي النَّاس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للربِّ ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير ، فذلك يناله من الرَّب عبداً كان أمْ حرّاً[1] ... » .

وأوصى الرَّسول بطرس بمثل هذه الوصيَّة ، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرِّق كفَّارة من ذنوب البشر ، يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السَّيِّد الأعظم ،

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص ٢١٦

وأضاف القديس الفيلسوف توما الإكويني رأي الفلسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين ، فلم يعترض على الرّق بل زكّاه ، لأنّه على رأي أُستاذه أرسطو ، حالة من الحالات الّتي خلق عليها بعض النّاس بالفطرة الطّبيعيّة ، وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع النّاس من الدُّنيا بأهون نصيب[١] .. » .

وفي المعجم الكبير للقرن التاسع عشر (لاروس) : « لا يعجب الإنسان من بقاء الرِّق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم ، فإن نوّاب الدِّين الرَّسميين يَقرّون صحَّته ، ويسلِّمون بمشروعيته .. الخلاصة أن الدِّين المسيحي ارتضى الاسترقاق تماماً إلى يومنا هذا ، ويتعذَّر على الإنسان أن يثبت أنه سعى في إبطاله[٢] » .

فالمسيحيَّة لم تعترض على العبودية ، لا من وجهها السِّياسي ، ولا من وجهها الاقتصادي ، ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد ، ولا حركت العبيد إلى طلب الاستقلال ، ولا بحثت عن مضار العبوديَّة ولا عن قساوتها ، ولم تأمر بإطلاق العبيد أصلاً[٣] .

أما الإسلام ـ كما يقول المرحوم العقاد ـ « ونحن نحب أن نُلَخِّص ما صنعه الإسلام في هذه المسألة قبل أربعة عشر قرناً في بضع كلمات : إنَّه حرَّم الرِّق جميعاً ، ولم يبح منه إلاَّ ماهو مباح إلى يومنا هذا ، وفحوى ذلك أنّه قد صنع خير ما يطلب منه أن يصنع ، وأن الأُمم الإنسانية لم تأتِ بجديد في هذه المسألة بعد الّذي تقدَّم به الإسلام قبل ألف ونيف وأربع مئة عام »[٤] .

لقد اعتبر الإسلام الرّق عارضاً ، وعمل على إزالته عندما سدَّ موارده

---

(١) حقائق الإسلام .. ص ٢١٦ ـ ٢١٧

(٢) حقوق الإنسان ،ص ١٢٥

(٣) قاموس الكتاب المقدَّس ٢/٦٠ ـ ٦١ ، طبع المطبعة الأمريكيّة في بيروت سنة ١٩٠١ م .

(٤) حقائق الإسلام .. ص ٢١٨ ـ ٢١٩

ومنـابعـه ، وفسح المصـارف ووسعهـا ، « لقـد ظـل صـوت الإسـلام يـزمجر حتَّى استجاب له العالم بعد عـدة قرون من تشريعـه الحكيم ، وإن زوال الرِّق هو أحـد الهدايا الَّتي قدَّمها الإسلام للإنسانية »[١] .

ومن المفارقات الطريفة وبروكلمـان يقول مـا يقول ، أن الرِّق في أوربـة لم يُلْـغَ إلا في القرن التـاسـع عشر الميـلادي ، وكان في الحقيقـة إلغـاء لاسترقـاق الأُوربيين فقـط ، وكانت أسواق النخـاسين الَّتي فتحهـا الأُوربيـون تتمتـع برواج عظيم ، وتفيض بربـح وافر على تجـارهـا ، وكانت الملكـة « أليزابيت الأُولى »[٢] تشارك في الاتِّجار بـالرَّقيق ، وكانت شريكـة « لجون هوكنز » ، أعظم نخَّـاس في التَّاريخ ، وقد رفعته إلى مرتبة النُّبلاء ، إعجاباً ببطولته ، وجعلت شعـاره رقيقـاً يرفل في السَّلاسل والقيود[٣] .

ومن المفارقات الأطرف ، أن السَّفينة الَّتي أعدَّتها لجون هوكنز ، كانت تسمَّى « يسوع » ، وكان عـدد السُّفن المخصَّصـة لـلاتجـار بـالرَّقيـق ١٩٢ سفينـة ، تتَّسـع حمولتها في الرِّحلة الواحدة ٤٧,١٤٦ رقيقاً ، وقـد طلبت أنجلترة من رجـال الـدِّين مبرِّراً لهذه التِّجارة ، فأسعفوها بنصوص العهد القديم[٤] ـ التوراة ـ ، والَّتي منهـا : « حين تقرب من مدينة لكي تحاربهـا ، استـدعهـا إلى الصُّلح ، فـإن أجـابتـك إلى الصُّلح ، وفتحت لك ، فكل الشَّعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويُستبعـد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرَّبُّ إلَهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السَّيف ، وأمـا النِّسـاء والأطفـال والبهـائم وكل ما في المدينة ، كل غنيمتها فتغنمها لنفسـك ، وتـأكل غنيمـة أعـدائـك الَّتي أعطـاك

---

(١) مقارنة الأديان ٢٢٢/٣

(٢) من ١٥٥٨ إلى ١٦٠٣ ميلاديَّة .

(٣) حقوق الإنسان ، ص ١٢٧

(٤) الَّذي يؤمن النَّصارى به ، كما يؤمنون بالعهد الجديد

الرَّب إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدّاً ، الَّتي ليست من مدن هؤلاء الأُمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشُّعوب الَّتي يعطيك الرَّب إلهك نصيباً ، فلا تستبق منها نسمة ما ، بل تحرمها تحريماً[1] .. » .

فهل غاب كل هذا عن بروكلمان الموضوعي العميق ؟

فيا ضياع وقت من بحث في تاريخنا الإسلامي ، واستند أو اتَّكَأ على بروكلمان ومصنَّفاته !!

ولم يفت بروكلمان التبشير ، فقد عاشه ، وأنتج وألَّف ضمن روحه ونهجه وتعصُّبه .

☆ ☆ ☆

« أمَّا القانون الجزائي في الإسلام فقد ظلَّ على مستوى يقرب من السَّذاجة ، وهو لا يمثِّل إلاَّ تقدُّماً ضئيلاً بالنسبة إلى مفاهيم القانون الوثنيَّة القديمة ، فالقاتل عرضة للموت من طريق الثَّأر » ، ص ٨٢ .

لا أرى ما يقرب من السَّذاجة والجهل ، إلاَّ إنسانٌ يضرب بالحقيقة عرض الحائط ، ويغالي بالتَّجاهل إلى هذه الدَّرجة ، حتَّى ليكاد يقول إن القوانين الوثنيَّة هي الَّتي استمر العمل بها في الإسلام ، فهل إذا قيل بأن القاتل عن عمد يُقْتَل ، كان ذلك من عادات الثَّأر والانتقام ؟ أليس قانون قتل القاتل أمراً شائعاً في معظم قوانين العالم اليوم ، والقوانين التي استبدلت الإعدام بالسجن المؤبد ، تفكِّر جدّياً بالعودة إلى الإعدام ، فهل ذلك من طريق الأخذ بالثّأر ؟

وهل يقال عن تلك الدُّول الرَّاقية الَّتي تقضي قوانينها بأُمور تشبه ، أو

---

(١) سفر التَّثنية ، الإصحاح العشرون ١٠ ـ ١٨

تقارب ، بعض ما كان يسود المجتمعات الوثنيَّة ، كجعل القاتل العمد عرضة للموت ، هل يقال عنها بأنَّها لاتمثِّل إلاَّ تقدُّماً ضئيلاً بالنسبة إلى مفاهيم القانون عند الشُّعوب الوثنيَّة القديمة ؟

الدُّنيا كلها تعرف ـ باستثناء أصحاب الأغراض ـ أن الإسلام أوجد للمسلمين تشريعات قانونيَّة لمختلف جوانب الحياة ، ومنها القانون الجزائي ، وربما رأى بروكلمان شدَّة أو قسوة وحزماً في بعض الأحكام ، حسب وجهة نظره ، لكن الخالق العظيم هو أعلم بأُمور خلقه ، وتشريعاته هي التي تحول دون انتشار الفساد والإجرام في الأَرض ، وأمثلة « الدُّول الرَّاقية » اليوم من أمثال أمريكة ، خير شاهد على صحة ما نقول من انتشار الجرائم على مختلف أنواعها في ظلِّ قوانينها الوضعيَّة ، ونظرة سريعة على أرقام إحصاء جرائم القتل والسَّرقة والاغتصاب ، تعيدنا إلى الاعتراف بعدالة أحكام السَّماء ، ومنها :

ـ أكثر من مليون طفل أمريكي يُعتدى عليهم جنسياً سنوياً .

ـ ١٢ مليون طفل بلا أب « غير شرعيين » في أمريكة في عام واحد .

ـ أُسرة من كل عشر أُسَر أمريكية تمارس نكاح المحارم .

ـ العصابات في تايلاند تختطف كلَّ أُسبوع خمس مئة طفل ، وتزج بهم إلى تجارة الرقيق الأبيض .

ـ ٢٥٠ مليوناً يصابون بالسَّيلان « مرض جنسي معروف » سنوياً في العالم .

ـ مليون حالة إجهاض « إسقاط الحمل » سنوياً في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة .

ـ مليون امرأة تلد سفاحاً سنوياً في أمريكة ، أكثر من نصفهن في سنِّ المراهقة .

ـ مليونا حالة إجهاض سنوياً في أُوروبة .

ـ ثلاثة ملايين حالة إجهاض سنوياً في أمريكة اللاَّتينيَّة .

- ٧٥٪ من الأزواج يخونون زوجاتهم في أُوروبة .

- ثمانية ملايين امرأة بالغة غير متزوِّجة في بريطانية ، ٩٠٪ منهن يمارسن الجنس .

- حالة طلاق بين كلِّ حالتي زواج في بريطانية .

- ٥٠ مليون حالة إجهاض جنائي في العالم سنوياً .

- ما يقرب من ٨٠٪ من الرُّهبان والرَّاهبات ورجال الكنيسة يمارسون الزِّنا .

- ما يقرب من ٤٠٪ منهم يمارسون « الشُّذوذ الجنسي » .

- في بعض الكنائس الأمريكية يتمُّ عقد قران الرجل على الرَّجل على يد القسيس .

- ١٧ مليوناً شاذون جنسياً في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة .

- من العسير على المرأة أن تمشي وحدها بعد غروب الشَّمس في المدن الكبرى في أُوروبة والولايات المتَّحدة .

- تُبلَّغ حالة في كل سبع دقائق من حالات الاغتصاب في المكسيك ، وتقول الأوبزيرفر : إن هذا الرَّقم لا يمثِّل سوى ١٠٪ فقط من حالات الاغتصاب ، لأنَّ البوليس متواطئ أيضاً في هذه الحالات[1] .

كل ما سبق .. لا نجده في العالم الإسلامي ، فهل تساءل بروكلمان - والموضوعيون أصحاب الشُّمول والجدَّة - لماذا ؟

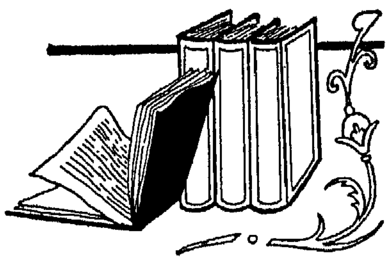
هذا .. وبروكلمان جمع كلَّ شيء في « قانون الجزاء الإسلامي » في بضعة

(١) « رسالة الجامعة » ، العدد ٢٨٧ ، ١٤ المحرم ١٤٠٦ هـ / ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥ ، عن : (كتاب الأمراض الجنسيَّة للدكتور محمَّد البار ، وبعض أعداد جريدة الشَّرق الأوسط) ، ولم نذكر هنا إحصائيات عن مرض « الرُّعب » ، مرض الإيدز ، فأكثر من ١٢٥٠٠ شخص في أمريكة مصابون بالإيدز ، مات أكثر من نصفهم منذ عام ١٩٧٩ م .

أسطر كثيرة الخطأ ، وهذا غير مستغرب ، فالرَّجل لغوي في الدَّرجة الأُولى ، وكل ما رآه فيه : « فالقاتل عرضة للموت من طريق الثأر » .

إنَّ القاتل في الإسلام لا يثأر منه ، ولكن الدَّولة تقتله وتقتص منه ، كما تفعل الدُّول اليوم .

☆ ☆ ☆



افتراءات بروكلمان
على عصر الخلفاء الراشدين

« ومن ناحية ثانية كان الأنصار العريقون في المدينة ، يتوقون إلى التّحرر من سلطان الأغلبيَّة المتمثِّلة في المهاجرين ، ليصبحوا سادة موطنهم الوحيدين كرَّة أُخرى .. » ، ص ٨٣ .

ليت بروكلمان دلّنا على مصادر قوله ، وأرشدنا إلى الوقائع والحوادث الَّتي لمس منها نقمة الأنصار على المهاجرين ، ورغبتهم في العودة إلى أن يكونوا سادة في وطنهم ، ليته وثّق ما يقول ، لنستند ونتكئ عليه عند بحثنا في التّاريخ الإسلامي ، ولكن بروكلمان ينظر إلى تاريخ الإسلام والمسلمين بمنظار أوربي مادي ، ونسي أو تناسى ـ وهو الأصح ـ أن مجتمع المدينة بأنصاره ومهاجريه ، أصبح كياناً واحداً ، امتزج بأُخوَّة لم تعرف لها أُوروبة ولا غيرها مثيلاً .

لقد كانت أخوة العقيدة بين الأنصار والمهاجرين أخوة ارتفعت بأصحابها فوق مفهوم السِّيادة في الوطن ، هذه الأخوَّة توضِّحها لنا أمثلة أكثر من أن تحصى ، فقد كان الأنصاري يقدّم لأخيه المهاجر كُلَّ شيء ، لأنّه قدَّم قبل ذلك وبعده عن قناعة ورضى كل ذلك في سبيل العقيدة الَّتي آمن بها ، واستقبل بسعادة ما بعدها سعادة رسولَ الإسلام وأصحابه ، حين هاجروا إلى المدينة ، ومواقف الأنصار في غزوات الرَّسول ﷺ أكبر شاهد على ذلك .

قال سعد بن معاذ[1] قبيل بدر الكبرى مخاطباً رسول الله ﷺ : « قد آمنا بك وصدَّقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السَّمع والطَّاعة ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألاَّ ينصروك إلا في ديارهم ، وإنِّي أقول عن الأنصار ، وأُجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعادِ من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ماتخلَّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، إنَّا لصبر في الحرب ، صُدُق في اللِّقاء ، لعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله »[2] .

أما إذا قصد بروكلمان بكلامه عن الأنصار ، تلك الفئة المنافقة الَّتي كان يرأسها عبد الله بن أُبَي بن سلول ، فهؤلاء لم يكونوا من الأنصار ، وإنَّما كانوا من المنافقين ، الَّذين أظهروا الإسلام خوفاً وطمعاً ، وأبطنوا العداوة له ، وقد كشفت عنهم أعمالهم ، وفضحهم القرآن الكريم بآيات أُوحي بها إلى الرَّسول ﷺ عن حقيقة نواياهم[3] ، وحذَّره منهم : ﴿ **وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ** ﴾ ، [التوبة : ٥٦] .

---

(١) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس ، الأوسي الأنصاري ، صحابي من الأبطال ، من أهل المدينة ، كانت له سيادة الأوس ، وحمل لواءهم يوم بدر ، وشهد أحداً ، فكان ممن ثبت فيها ، رُمِيَ بسهم يوم الخندق ، فمات من أثر جرحه (٥ هـ = ٦٢٦ م) ، دفن بالبقيع وعمره سبع وثلاثون سنة ، [الأعلام ٨٨/٣] .

(٢) ابن هشام ١٨٧/٢ ، هامش السِّيرة الحلبيَّة ١٦٠/١ ، الطَّبري ٤٣٤/٢ ، البداية والنِّهاية ٢٦٤/٣ ، طبقات ابن سعد ١٤/٢

(٣) في كتاب الله عز وجل سورة كاملة اسمها « المنافقون » ، ترتيبها ٦٣ ، وآياتها ١١

فأيَّة أغلبية وأقلية يتصوَّرها بروكلمان ، المبشّر الخفي ؟!؟

☆ ☆ ☆

ويقول بروكلمان عن مسيلمة :[1] « أوصى بالصّيام ، وحرّم الخمرة ، وحضّ أتباعه على الطّهارة والعِفّة .. » ، ص ٨٥ .

الصّواب ، إنّه لم يستقر على رأي ، فمرّة يحرّم ومرّة يحلّل ، لقد أحل لأتباعه الخمر والزّنا ، ووضع عنهم الصلاة ، لكنّه متقلّب متغيّر ، فقال : لما رأيت وجوههم حسنت ، وأبشارهم[2] صفت ، وأيديهم طَفُلَت[3] ، قلت لهم : لا النّساء تأتون ، ولا الخمر تشربون ، ولكنكم معشر أبرار تصومون[4] ..

وإنْ كان مسيلمة قد فعل ذلك ، من دعوة إلى صيام ، وطهارة وعفّة ، وتحريم للخمرة ، فربما تظاهر بذلك ليكسب إلى صفوفه المسلمين الّذين يعلمون أن الإسلام يأمر بذلك ، علماً بأنّ سلوك مسيلمة لم يكن متّفقاً مع مادعا إليه من هذه الأمور ، فسلوكه منذ بداية ظهور أمره ، يدل على أطماع شخصيّة للوصول إلى حكم وسيادة ، وما جرى بينه وبين رفيقته في ادّعاء النّبوة سجاح ، من فحش وبذاءة ، نترفّع عن ذكره هنا .

☆ ☆ ☆

وفي معرض حديث بروكلمان عن مالك بن نويرة ، قال : « أمر خالد بقتله ، وبقتل جميع أتباعه طمعاً منه في زوجة مالك الجميلة ، على ماتقول الرّواية » ، ص ٨٦ .

---

(١) سمّاه بروكلمان « مَسْلَمة »؟!

(٢) في الطّبري ٢٧٢/٣ : وأبصارهم صفت .

(٣) طفُلت : صارت طفلة ، أي صفت .

(٤) البداية والنّهاية ٣٢١/٦ ، الطّبري ٢٧٢/٣

خالد بن الوليد تلميذ مدرسة الإسلام والإيمان ، إنَّه القائد الَّذي لم يعرف الهزيمة ، وسيف الله المسلول ، والمقبول بلا مزاحم من جمهور المسلمين وقادتهم ، فلا يعقل أن يقدم على قتل رجل للحصول ، أو للوصول ، إلى زوجته مهما كانت جميلة ، وجميلات جزيرة العرب يتمنّين أن تكون الواحدة منهن زوجة لبطل من أشهر قادة العرب والمسلمين .

وخالد لايحتاج إلى ورقة حسن سلوك ، وبراءة من كاتب أوربي اسمه كارل بروكلمان ، امتلأ تاريخه الأُوربي بمثل مايدَّعي من حادثة خالد مع خصمه مالك بن نويرة ، لكن المثال يختلف ، فخالد لم يقتل مالكاً من أجل الوصول إلى زوجته ، وإن كان قد تزوَّج بها بعد ذلك ، وكثيرة هي الأقلام الَّتي تناولت بالبحث موضوع خالد ومالك ، ومعظم من كتب حول هذه الحادثة ، لم يصل منها إلى اتِّهام القائد الكبير العظيم بما يمس كرامته ورفعة شأنه .

والتاريخ يقول : ماقتل خالدُ بن الوليد مالكَ بن نويرة إلا بعد أن حاوره ، وأنَّبه على ماصدر منه من متابعة سجاح ، وعلى منعه الزَّكاة ، وقال خالد له : ألم تعلم أنَّها قرينة الصلاة ؟ فقال مالك : إنَّ صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - كان يزعم ذلك ، فقال خالد : أهو صاحبنا وليس بصاحبك ؟ ياضرار اضرب عنقه ، فضرب عنقه(١) .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمتمم بن نويرة (أخي مالك) : لوددت أنِّي رثيت أخي زيداً بمثل مارثيت به مالكاً أخاك ، فقال له متمم : ياأبا حفص ، والله لو علمت أن أخي صار حيث صار أخوك مارثيته ، فقال عمر :

---

(١) لأخبار مالك : الاكتفاء ٨/٢ ، البداية والنِّهاية ٣٢١/٦ ، ابن خلدون ٧٣/٢ ، الكامل في التاريخ ٢٤١/٢ ، الطَّبري ٢٨٠/٣

ماعزّاني أحد عن أخي مثل تعزيته[1] . وهذا يدل على أن مالكاً لم يكن مسلماً ، وإلاّ لعرف ذلك أقرب الناس إليه ، أخوه متمم ، ولما رثاه ، ولعلم أنّه مات مسلماً صادقاً فالجنّة مثواه .

☆ ☆ ☆

« فقد كان فريق من العرب يعيشون في ظلّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة ، كما كان فريق منهم يعيشون في ظل الإمبراطورية الفارسيّة ، فمن الضروري أن يحمل إليهم إخوانهم المؤمنون بركات الإسلام وآلاءه » ، ص ٩٣ .

سخرية لاتليق بمؤرّخ (كبير) ، وأديب (عظيم) ، وُصِف بالموضوعية والعمق والشُّمول والجِدَّة !!

وقول بروكلمان يحمل في طياته أخطاء تاريخية أيضاً ، كنا نتمنّى أن يتجنبها مؤرخ في مثل مكانته ، فأضاف بذلك ماأضاف إلى السُّخرية والهزء ، مما يدل على تعصب وحقد ، وبعد عن الموضوعيّة ، كنا نأمل أن يبتعد عنها ، ليكون أهلاً بأن يتّصف بالحياد والتّجرد والعلمية والمنهجية في البحث ، حين تنطّح لكتابة تاريخنا .

فلندع الهزء والسخرية جانباً ، ونناقش الأخطاء التاريخيّة ، في قوله : كان فريق من العرب يعيشون في ظلّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة ، وفريق آخر منهم يعيشون في ظل الإمبراطوريّة الفارسية .

القارئ لهذا القول ، والبعيد عن معرفة الحقيقة ، يتراءى له أن هذا الفريق من العرب هم جالية غريبة ، تقيم في دولة هي الدَّولة البيزنطيَّة ، ودولة أُخرى

---

(١) الاكتفاء ٨/٢ ، حروب الرّدة ص ١٨١ ، ومع ذلك ، لما قال مسلم واحد (وهو أبو قتادة) إنّه مسلم وقتل خطأً ، لأنّه لم يشهد كما شهد غيره حوار خالد مع مالك ، دفع أبو بكر ديته من بيت المال ، كما دفع رسول الله ﷺ دية بني جذيمة من بيت المال عندما قُتلوا خطأً .

هي الدَّولة الفارسية ، وكأنه صعب على بروكلمان أن يعترف بالحقيقة ، وهي أن سكان بلاد الشَّام كانوا من العرب في ظل حكم استعماري أجنبي غريب عنهم هو حكم الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة ، وكذلك شأن عرب بلاد الرَّافدين ، الَّذين كانوا يخضعون لحكم استعماري أجنبي ، هو حكم الدَّولة الفارسيَّة ، وأن العرب المسلمين حين خرجوا من جزيرتهم ، إنَّما أرادوا تحرير هذه البلاد العربيَّة ، وتحرير سكانها من أبناء عمومتهم عرب الغساسنة ، وعرب المناذرة ، فضلاً عن حمل رسالة الإسلام إليهم وإلى غيرهم ، فهل هذا ماقصده بروكلمان في قوله : « فمن الضروري أن يحمل إليهم إخوانهم المؤمنون بركات الإسلام وآلاءه » ؟.

نعم ، لقد كانت من بركات الإسلام أنَّه أخرج من جزيرة العرب أُولئك المؤمنين من أبنائها ، ليحرِّروا الأَرض من المستعمرين والمستبدِّين ، وليحرِّروا النفوس من العبودية لغير الله .

أما قال أهل حمص للمسلمين عندما اضطروا إلى الانسحاب جنوباً إلى اليرموك : « إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنَّا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم .. والتَّوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلاَّ أن نُغْلب »[1] ، ردَّكم الله علينا ، ونصركم عليهم - أي على الرُّوم - فلو كانوا هم ، لم يردُّوا علينا - من أموالنا - شيئاً ، وأخذوا كلَّ شيءٍ بقي لنا »[2] ؟.

فأي بركة وخير أرقى وأسمى من بركة العدل والطمأنينة والحريَّة وحفظ المال والأعراض ؟ وهذا ماحمله الإسلام إلى كل بقعة وصلها ، مع المدارس والمكتبات والخدمات الصِّحيَّة .

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٧ .

(٢) الدّعوة إلى الإسلام ص ٧٩ ، الخَراج لأبي يوسف ، ص ٨١

بروكلمان ـ العالم الموضوعي ـ يعلم بذلك يقيناً ، ومع ذلك آثر الهزء والسُّخرية على « بركات الإسلام » .

☆ ☆ ☆

وقال عن معركة اليرموك : « هزيمة شنعاء ، ذلك لأن الأرمن الّذين كانوا يؤلّفون نصف جيش الرُّوم ، كانوا حاقدين على الدَّولة البيزنطيَّة ، غير راغبين في القتال » ، ص ٩٥ .

ما كنت أتصوَّر أن المؤرخ الشَّهير بروكلمان يصل به الأمر إلى تبرير انتصار العرب المسلمين على الرُّوم البيزنطيين في معركة حاسمة في فتوح بلاد الشَّام ، وهي معركة اليرموك ، بوجود الأَرمن في جيش الرُّوم ، وهم حاقدون وناقمون على دولة الرُّوم فلم يقاتلوا بجدٍّ في المعركة ، وحبّذا لو ذكر لنا هذا المؤرِّخ الكبير ، المصدر أو السَّبيل الّذي عرف منه أن الأرمن كانوا يؤلّفون نصف جيش الرُّوم .

وهل وصل الغباء بالقائد العسكري الشَّهير ، إمبراطور دولة الرُّوم هرقل ، ومن حوله من كبار قادة الرُّوم ، أن يلاقوا العرب المسلمين بجيش نصفه من الأرمن ، وهم يعلمون حقيقة موقفهم من دولة الرُّوم ؟

لماذا صعب على بروكلمان أن يعترف بالحقيقة ، الّتي اعترف بها كثيرون من المؤلّفين والمؤرِّخين من عرب وغير عرب ؟ وهي أن من أهم أسباب انتصار العرب المسلمين ، وهزيمة الرُّوم ، ارتفاع المعنويات لدى جيش المسلمين ، أي قوّة إيمانهم ، واندفاعهم إلى طلب الشَّهادة ، والاستهتار بالحياة ، فضلاً عن القيادة الحكيمة والخبيرة ، التي تمثَّلت بسيف الله المسلول خالد بن الوليد ، ومن كان يرافقه من قادة العرب ، أمثال : أبي عبيدة ، وعمرو بن العاص ، ويزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة .. إنَّه لمن السُّخف القول : إن الأَرمن المسيحيين ، كانوا سبب انتصار العرب المسلمين ، وهزيمة الرُّوم !!

☆ ☆ ☆

وقال بروكلمان عن معركة القادسيَّة : « إنَّ المصادر حافلة بالتفاصيل الرُّومانتيكيَّة عن هذه المعركة ، ولكنها لاتكفي كلُّها لأن نكوّن صورةً واضحة عن سيرها » ، ص ٩٧ .

لاأدري لماذا يصف بروكلمان التَّفاصيل الواردة في مختلف المصادر عن معركة القادسيَّة[1] بأنَّها تفاصيل رومانتيكيَّة ، ومع كل تلك التَّفاصيل ، فإنَّها حسب رأيه لم تكوّن لديه صورة واضحة ؟

وهل يقول بروكلمان مثل هذا القول عندما يدرس ويكتب عن معركة أُوربيَّة ؟

وإذا وردت عنها مثل تلك التَّفاصيل ، هل يعتبرها غير كافية لتوضيح الصُّورة عن تلك المعركة ؟ ماأظن ذلك ، إنَّه التَّعصب الَّذي يحرف صاحبه عن طريق الإنصاف في أحكامه ، ويبعده عن الموضوعيَّة في دراسته للأحداث .

معركة القادسيَّة من المعارك النَّادرة في تاريخ الحروب عامَّة ، وتاريخ الفتوحات العربيَّة الإسلاميَّة خصوصاً ، وقد ذكرت لنا المصادر المختلفة[2] عن هذه المعركة تفاصيل رائعة يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ، وذكرت لنا تفاصيل تحدث لأوَّل مرَّة بالنسبة للعرب ، مثل مواجهتهم سلاحاً جديداً لا عهد لهم به ، وهو استخدام الفُرْس للفيلة في هجومهم ، ووضعت لنا المصادر التَّاريخيَّة موقف العرب المسلمين ، وتغلُّبهم على هذه المشكلة ، أو الأسلحة الجديدة الخطيرة ، والبطولات الَّتي قام بها أبطال لمعت أسماؤهم في سماء القادسية ، وفي

(١) القادسية : المحرَّم ١٤ هـ ، صيف ٦٣٥ م ، بقيادة سعد بن أبي وقاص ، وموقعها : في العراق شمال ذي قار ، قرب الفرات .

(٢) انظر لأخبار القادسيَّة : الطَّبري : ٥٤١/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ٣٢٨/٢ ، البداية والنهاية : ٤٢/٧ ، ابن خلدون : ٩٨/٢

مقدمتهم القعقاع بن عمرو التميمي[1] وأخوه عاصم .

وأغرب ما في قول بروكلمان أنَّ تلك التَّفاصيل لم تقدِّم لنا صورة واضحة عن سير المعركة ، علماً بأنَّه لو قرأ فنَّان تفاصيل المعركة ، لرسمها لنا دون أن يجد صعوبة في توضيح ماحدث فيها .

☆ ☆ ☆

« الصَّخرة المقدَّسة الَّتي يعدُّها اليهود والنَّصارى والمسلمون جميعاً منتصف الأرض .. » ص ٩٨ .

أنا واحد من أولئك المسلمين الَّذين قال عنهم بروكلمان بأنَّهم يعدُّون الصَّخرة المقدَّسة منتصف الأرض ، ولم أسمع بذلك ، ولم أقل به ، وسألت كلَّ من حولي فوجدتهم مثلي لاعلم لهم بما ينسبه إليهم مؤرخنا « الكبير » بروكلمان ، فهل يكتب التاريخ بهذه الطريقة ؟ أين مصادره الَّتي اعتمد عليها في مثل هذه الأخبار ؟

وماذا يستفيد بروكلمان حين ينسب إلى المسلمين مثل هذه الأقوال ؟

ولا أعلم إن كان مانسبه لليهود والنَّصارى اتَّبع به الطَّريقة نفسها !!

وهل هم حقاً يعدُّون تلك الصَّخرة منتصف الأرض ؟

وماذا يعني بقوله إنَّها منتصف الأرض ؟!

☆ ☆ ☆

---

(١) القعقاع بن عمرو التَّميمي : أحد فرسان العرب وأبطالهم في الجاهليَّة والإسلام ، له صحبة ، شهد اليرموك وفتح دمشق ، وأكثر وقائع أهل العراق مع الفرس ، وسكن الكوفة ، وأدرك صفّين فحضرها مع علي رضي الله عنه، وكان شاعراً فحلاً ، توفي نحو سنة ٤٠ هـ .

« كان الغزاة العرب يجوسون خلال الدِّيار غانمين مخرِّبين » ، ص ١٠٠ .

هـل يظن بروكلمـان عنـدمـا يكتب في وصفـه للعرب المسلمين خـلال فتوحاتهم ، أنَّه يكتب عن الشعوب الجرمان ، أو من عرفوا في التاريخ باسم برابرة الجرمان ؟ أو أنَّه يكتب عن شعوب الهُون ، تلك الشُّعوب الَّتي قلبت أُوربة رأساً على عقب ، وحوَّلتها إلى خرائب وأطلال ، وأعمدة من ألسنـة اللَّهب والـدُّخـان ، واندثرت تحت سنابك خيولهم حضارة الرُّومـان واليونـان ، وسـاد الجهل والظَّلام في جميع أنحاء أوربة .

أَمْ تراه يتحـدَّث عن كشوف قـومـه الأُوربيين الجغرافيـة ؟ والَّتي لم تكن التِّجـارة همهـا الوحيـد ، بل كانت كشوفهم وتجـارتهم مرتبطـة بـالعمل المقـدَّس ، ونشر الديانة المسيحيَّة بين المسلمين والوثنيين ، وقد عبَّر عمـانوئيل ملـك البرتغـال [١٤٩٥ ـ ١٥٢١] عن أغراض الحملـة الأُولى في خطبـة طـويلـة جـاء فيهـا : « إنَّ الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهنـد ، هو نشر المسيحيَّـة والحصول على ثروات الشَّرق(١) » ، وباسم هذا العمل المقدَّس أبادوا أُمماً ، وحرَّقوا شعوباً ، ونهبوا خيرات ومنـاجم لا تقـدَّر بثمن ، وتـاجروا بـالرَّقيق .. إن مـا عملـه الأوربيـون في شواطئ إفريقية ، وفي أمريكة الوسطى والجنوبية ، وفي جنوب شرقي آسية ، وفي أسترالية ، معروف ومشهود ، وآثاره باقية حتَّى يومنا هذا .

إنَّ ماقام به بارتلميوديـاز ، وفاسكودوغـامـا ، والشِّرير الشَّرس البوكيرك .. لم يقم به مطلقاً من قبل طـارق ، أو محمـد بن القـاسم الثَّقفي ، أو قتيبـة بن مسلم الباهلي .. وبروكلمان « العالم الكبير » يعلم ذلك يقيناً !!

إنَّ الفـاتحين العرب المسلمين كانت تسير الحضـارة إلى جـانب جيـوشهم ،

---

(١) تحفة المجاهـدين في أحوال البرتغـاليين ، للشيخ أحمـد زين الـدين المعبري المليبـاري ، تحقيق محمـد سعيد الطريحي ، مؤسسة الوفاء ـ بيروت ١٩٨٥ ، ص ٢٤٦

وترتفع منارات سامقة للعلم حيثما ارتفعت راياتهم منتصرة . وينتشر الأمن ، والعدل ، والتَّسامح ، والإخاء حيث يستقر لهم الحكم ، وإذا كان بروكلمان يريد تأكيداً ، وتوضيحاً وتوثيقاً لما نقول ، فليفتح صفحات تاريخ فتوح العرب المسلمين في بلاد فارس والهند ، وفي خراسان وما وراء النهر ، وفي الأندلس وصِقِلِّيَّة ..

« يجوسون خلال الدِّيار غانمين مخرِّبين » ، يقولها منصف عن تتار العصور الوسطى ، وتتار القرن العشرين ، لا عن العرب الفاتحين ، أبعد الله عن أقلامنا الحقد ، وعن عيوننا غشاوة التَّعصُّب .

☆ ☆ ☆

« ولعلَّ المؤمنين كانوا يتوقَّعون أثناء حياة النَّبيِّ ، أن يظل هو على رأس الجماعة الإسلاميَّة إلى يوم الحساب بالذَّات » ، ص ١٠٥ .

هذا التَّوقُّع لم يكن يدور إلاَّ في رأس بروكلمان ، ذلك لأنَّ المؤمنين الَّذين يتكلَّم عنهم كانوا يتلون ممَّا حفظوه من آيات القرآن الكريم ، قوله تعالى إلى نبيِّه الكريم محمَّد ﷺ : ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** ﴾ ، [الزُّمر : ٣١] ، وفي [سورة الأنبياء ٣٤]: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدونَ** ﴾ ، وفي سورة الأنبياء أيضاً ، الآيتان الكريمتان ٧ و ٨ : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون ، وَمَا جَعَلْناهُم جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَما كَانُوا خَالِدِينَ** ﴾ .

فكيف كانوا يتوقَّعون دوام حياته إلى يوم القيامة ؟

أمَّا إذا كان اعتماد بروكلمان فيما قاله على موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد فات صاحبنا « الموضوعي العميق ، صاحب الشُّمول والجِدَّة » أنَّ عنصر المفاجأة في حال الموت لشخص عزيز جداً ، تفعل مثل ذلك ، وتفقد الإنسان

صوابه ، ولكن سرعان ما يعود المؤمن إلى إيمانه ، وآيات كتابه الكريم ، كما حدث لعمر ، عندما رأى موقف أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه أمام الفاجعة الكبرى بوفاة الرّسول العظيم ﷺ : « من كان يعبد اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت ، ومن كان يعبد محمّداً فإنَّ محمّداً قد مات » ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

وأبو بكر الصِّدّيق رضي الله عنه يعلم علم اليقين أنَّه ليس بين المسلمين من يعبد محّمداً ، لكنه يذكرهم بوحدانيَّة الله عزَّ وجلَّ ، وبإنسانيَّة الرَّسول وبشريَّته ، وأنَّ نهايته كنهاية أي مخلوق ، وهي الموت .

قال عمر رضي الله عنه : والله ما هو إلاَّ أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرتُ[1] حتَّى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات[2] .

فالاستدلال بجزئيَّة واحدة على الأمر الكُلِّي ، أو جعل الواقعة الجزئية قضيَّةً كُلِّية وقاعدة عامة .. لا تليق ، ولا تصح عند « الموضوعيين عميقي الشمول والجدَّة » .

☆ ☆ ☆

(١) عَقِرَ الرَّجلُ عقراً : فجئه الرَّوعُ فدهِشَ فلم يقدر أن يتقدَّم أو يتأخَّر ، (اللّسان : عقر) .

(٢) الطَّبري ٢١٠/٣ ، الرَّوض الأُنف ٢٦٠/٤ ، فتح الباري ٢٣/٧ ، حلية الأولياء ٢٩/١ ، وفي الطَّبري ٢١١/٣ : قال ابن عباس : والله إنِّي لأمشي مع عمر في خلافته وهو عامد إلى حاجة له ، وفي يده الدِّرَّة ، وما معه غيري ، قال وهو يحدِّث نفسه ويضرب وحشيَّ قدمه بدرَّته : يا بن عباس ، هل تدري ما حملني على مقالتي هذه ، الَّتي قلت حين توفَّى الله رسولَهُ ؟ قال : قلت : لا أدري يا أمير المؤمنين ، أنتَ أعلم ، قال : والله إنْ حملني على ذلك إلاَّ أني كنتُ أقرأ هذه الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عليكمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، فوالله إنِّي كنت لأظن أن رسول الله سيبقى في أُمَّته حتَّى يشهد عليها بآخر أعمالها ، فإنَّه للَّذي حملني على أن قلتُ ما قلتُ .

« وإذا كان العرب يؤلِّفون طبقة المحاربين ، فقد كان الأعاجم من الجهة الثَّانية هم الرَّعيَّة ، أي القطيع ، وجمعها رعايا ، كما يدعوهم تشبيه سَامِيٌّ قديم كان مألوفاً حتَّى عند الآشوريين ، وفيما كان المسلمون لا يدفعون إلى خزانة الدَّولة غير الزَّكاة ، كانت الرَّعيَّة تدفع الجزية ، عاملةً بذلك على إعالة المسلمين .. » ، ص ١٠٨ .

يا ضياع وقت من بحث في تاريخنا الإسلامي ، واستند أو اتكأ على بروكلمان ومصنفاته .

لقد نسي مؤرخنا « الكبير » بروكلمان ، أنَّ التَّقسيمات الَّتي تدور بذهنه ، أو عرفتها بلاده في عصر من تاريخها ، تختلف عمّا كانت عليه الحال في تاريخ الشَّرق أثناء فترة الحكم الإسلامي لها .

والعرب لم يكونوا يشكِّلون طبقة المحاربين كما وصفهم بروكلمان ، حتَّى في العصر الأُموي ، فترة ازدهار العنصر العربي ، وغلبة الرُّوح العربيَّة ، والنَّزعة العربيَّة ، فلم يكن الأمر كما وصف ، وإلاَّ فكيف تكوَّنت تلك الفِرَق من المحاربين غير العرب ؟ وكيف ارتفع شأن قادة من غير العرب ، كطارق بن زياد ؟ وهل كان من معه من قومه قطيعاً من المواشي ، كما وصفهم بروكلمان ؟

إنَّ إصدار الأحكام بهذه العموميَّة ، أمر لا يتَّفق مع الدِّقة العلميَّة ، والموضوعيَّة في كتابة التَّاريخ ، فما علاقة الآشوريين بما يدور من أحداث في التَّاريخ الإسلامي ؟ ألا يعلم بروكلمان بعد ، أن عقيدة جديدة حملها العرب المسلمون ، وبدَّلت من حياتهم ومفاهيمهم وقيمهم ، وأنَّهم حملوها رسالة حضاريَّة إلى شعوب الأرض ، تمثَّلت بهم سلوكاً ومعاملة ، فإن وجد غير ذلك فهو الشُّذوذ عن القاعدة ، وأن العرب المسلمين ما نظروا إلى الشُّعوب الأعجميَّة كما نظرت دول أُوربة إلى مستعمراتها كسادة وعبيد ، لأنَّ دستور العرب المسلمين الَّذي حملوه إلى

تلك الشّعوب ، ويتلونه صباح مساء يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خلقناكم مِن ذَكَرٍ وَأُنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند اللهِ أتقاكم** ﴾ [الحجرات ١٣] . وما كان انتشار الإسلام بين تلك الشّعوب - من الأعاجم - إلاّ بفضل تلك النّظرة الإسلاميّة في المساواة وعدم التّمييز والتفاضل .

أمّا الزكاة والجزية ، فليت بروكلمان أنصف في الكتابة عليهما ، بعد أن درس حقيقتهما ، ونسأله : لماذا كانت الجزية عاملة على إعالة المسلمين فقط ؟ فهل كانت الزّكاة تلقى في البحر ؟.

إنّ موارد الزّكاة هي أكثر بكثير من موارد الجزية المحدودة ، ألم تصرف أموال الزّكاة في إعالة المسلمين ؟ وهل كانت هي الضّريبة الوحيدة الّتي يدفعها المسلمون للدّولة ، إنّ عودة - ولو سريعة - إلى النّظام المالي في دولة العرب المسلمين ، توضّح جوانب كثيرة غفل عنها - أو تجاهلها على الأصح - المؤرخ « الكبير » بروكلمان .

ونتساءل : ما مقدار الجزية التي كانت - برأي بروكلمان - عاملة على إعالة المسلمين ؟

لقد كانت ٤٨ درهماً في العام - حوالي جنيهين - على الأغنياء ، وعلى متوسطي الحال ٢٤ درهماً في العام ، وعلى العمال والصّناع ١٢ درهماً فقط - نصف جنيه في العام - ، فهي إذن مقدار ضئيل يسير من المال ، يدفع في كل عام مرّة واحدة ، وتتفاوت قيمته حسب حال الذّمي الماليّة ، « ويعيّن مقدار الجزية حسب حالتهم الاقتصاديّة ، فيؤخذ من الموسرين أكثر ، ومن الوسط أقل منه ، ومن الفقراء شيء قليل جداً ، والّذين لا معاش لهم ، أو هم عالة على غيرهم يعفون من أداء الجزية .

هذا ، وإن كانت الجزية لم يعيّن لها مقدار بعينه ، إلاّ أنّه من اللاّزم عند

تعيين المقدار أن تراعى فيه السُّهولة ، فيقرر منه ما يتيسَّر أداؤه لأهل الذِّمَّة ، وكان عمر رضي الله عنه قد جعل لكل رأس موسر ثمانية وأربعين درهماً ، وللوسط أربعة وعشرين درهماً ، وللفقير اثني عشر درهماً[١] » .

ومن يصبح فقيراً أو محتاجاً من أهل الذِّمَّة فلا يعفى من الجزية فحسب ، بل يجرى له عطاء من بيت المال ، وإن مات أحد الذِّميين وعليه شيء من الجزية ، فلا يؤخذ من تركته ، ولا يكلَّف ورثته بأدائه ، ويقول الإمام أبو يوسف : « إن وجبت عليه الجزية فمات قبل أن تؤخذ منه ، أو أُخِذَ بعضها وبقي بعضها الآخر لم يؤخذ بذلك ورثته ، ولم تؤخذ من تركته »[٢] .

ولكن .. لماذا يدفع الذِّميون الجزية[٣] ؟

لأنَّهم ينتفعون بالمرافق العامة مع المسلمين ، كالقضاء والشُّرطة والمرافق العامة الأُخرى كالطرقات والجسور ومشاريع الرَّي والمستشفيات .. « وتحتاج إلى نفقات يدفع المسلمون قسطها الأكبر ، ويسهم أهل الكتاب بالجزية في تكاليف هذه المرافق »[٤] .

فإذا علمنا أن الطفل والمرأة والشيخ يعفون من الجزية ، ومن لا معاش له ، أو من هو عالة على غيره يعفى أيضاً من أداء الجزية مهما كان عمره ، ويدفع الموسر الغني من أهل الذِّمَّة ٤٨ درهماً فقط في كل عام ، ويدفع متوسط الحال ٢٤ درهماً فقط ، ويدفع العمال والصناع ـ وهم الَّذين يشكِّلون سواد الأُمَّة ـ ١٢ درهماً فقط في كل عام . فإن غنياً واحداً مسلماً يدفع أُلوف الدَّراهم زكاة ماله كل عام ، وهذا

(١) كتاب الخَرَاج لأبي يوسف ، ص ٣٦

(٢) كتاب الخَرَاج ، ص ٧٠

(٣) انظر : الجلسة العاشرة « الذِّميون والجزية » ، من كتاب الإسلام في قفص الاتهام ، ص ١٣٩ ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٩٨٢ م .

(٤) مقارنة الأديان ١٥٢/٣

يعني أنَّ ما يدفعه موسر غني ذمي طوال حياته ، لا يشكِّل ولو جزءاً يسيراً مما يدفعه مسلم واحد في عام واحد .

إن ما تعامى عنه بروكلمان ، يثبت أن التبشير الَّذي تمنى أن يمارسه مع بدايات حياته ، لم يفته في أُخريات حياته . لقد أعمته الصَّليبيَّة ، وأضلَّه التَّعصب ..

ولم نعدم منصفاً أُوربياً تفهم الحقيقة ، وتكلَّم بموضوعية في هذا المجال ، يقول غوستاف لوبون : « جزية زهيدة تَقِلُّ عمَّا كانت تدفعه إلى سادتها السَّابقين من الضرائب »[1] ، فما دفعه أهل الكتاب إلى بيت مال المسلمين قُبالة انتفاعهم بالمرافق العامة وحمايتهم ، لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكومتهم المسيحيَّة البيزنطية ، فبماذا علَّق بروكلمان على هذا ؟!.

وتقول لورافيشيا فاغليري : « ادفعوا جزية يسيرة تُسْبَغُ عليكم حماية كاملة »[2] .

وأخيراً .. نذكِّر بروكلمان بقول عمر بن عبد العزيز : « إنَّ الله بعث مُحمَّداً ﷺ داعياً ، ولم يرسله جابياً »[3] .

ونذكِّره بأن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الَّذين لم يريدوا أن يدخلوا الإسلام ، ثم عرف المسلمون أنَّ الرُّوم أعدُّوا جيشاً كبيراً لمهاجمتهم ، فأدركوا أنَّهم قد لا يقوون على الدِّفاع عن أهل حمص ، وقد يضطرون للانسحاب ، فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم ، وقالوا لهم :

---

(١) حضارة العرب ، ص ١٣٤

(٢) دفاع عن الإسلام ، ص ٣٢

(٣) الكامل في التَّاريخ ١٥٨/٤ ، الطَّبري ٥٥٩/٥ ، ابن خلدون ٧٥/٣ ـ ٧٦

شغلنا عن نصرتكم والدَّفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهضوا بذلك فسقطت الجزية عنهم[1] .

ومما قالوه : « والتَّوراةِ لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص ، إلاَّ أن نُغْلَبَ »[2] .

« ردَّكم الله علينا ونصركم عليهم ـ أي على الرُّوم ـ فلو كانوا هم ، لم يردُّوا علينا شيئاً ، وأخذوا كل شيء بقي لنا »[3] .

وما أظن أن ما أثبتناه هنا حول الجزية ، كان بروكلمان يجهله ، لكنها « الموضوعيَّة » في البحث ، والبحث بموضوعية ، تغيِّر المفاهيم ، وتقلب الحقائق ، ما دام التَّعصُّب في العقول ، والصَّليبيَّة في النفوس ، وما دام محور البحث الإسلام وأهله !!

☆ ☆ ☆

وقال بروكلمان عن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه : « لم يحالفه التَّوفيق في الحكم على الحالة الدَّوليَّة ، وبخاصَّة فيما يتعلَّق ببيزنطة ، تطَّلع أوَّل الأمر إلى المشرق ، نحو الإمبراطوريَّة الفارسيَّة ، بعد أن رأى إلى ضعفها البيِّن منذ عهد غير قصير » ، ص ٩٠ .

كلام « موضوعي عميق » ، فيه « شمول وجِدَّة » ، ويثبت ذلك أدلَّته واستشهاداته الَّتي تؤيِّد آراءه ، ليبعد عنها الضَّحالة ، والافتراء والتَّخبُّط !؟!

(١) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ١٤٣
(٢) فتوح البلدان ، ص ٧
(٣) أبو يوسف ،ص ٨١ ، الدَّعوة إلى الإسلام ، ص ٧٩

لم يحالف التوفيق أبا بكر في الحكم على الحالة الدولية ، ما الدّليل ؟ ومن أين تلمّس بروكلمان ذلك ؟!.

فتطلع أول الأمر إلى المشرق نحو الإمبراطوريّة الفارسيّة ، بعد أن رأى إلى ضعفها البَيِّن منذ عهد غير قصير ، بأي شيءٍ لاح ضعفها البَيِّن ؟ وما الأمور الّتي تلمسها الصّدّيق ، واطّلع عليها بروكلمان ، فعرف أن أبا بكر رأى ضعف الإمبراطوريّة الفارسية فتطّلع أوّلاً إليها ، وترك بيزنطة ؟!

أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه ، لم يحالفه التّوفيق في الحكم على الحالة الدّولية ، خسئ من قال هذا وكذب وافترى ، بل حالفه التّوفيق في جميع مراحل حياته ، وأعماله كلّها ، وخصوصاً عندما تولّى الخلافة ، لقد سيَّر جيش أُسامة بن زيد ، والعرب في ردّتهم ، وهو بحاجة إلى هذا الجيش ، لكنه أراد إفهام من طمع بهذه الأُمّة إبادةً وخسفاً - خصوصاً بعد سماعهم أنباء الرِّدّة - أنّ هذه الأُمّة الفتيّة راسخة البنيان ، قويّة في ذاتها ، متينة رغم ردّة الأعراب ، فأفهم بيزنطة - كما أفهم الفرس أيضاً - أنّه لو كان أمر الرِّدّة أمراً جللاً ، لاحتفظت بهذا الجيش ، بل لو كان الأمر خطيراً ، وكان الجيش خارج الجزيرة لاستدعاه لتهدئة الأحوال الدّاخليّة .

واستطاع « نحيف بني تيم » القضاء على المرتدين ، فنقل العرب بالإسلام من جحيم مستعر أراده المرتدون ، إلى فردوس مزدهر أراده محمد رسول الله ﷺ .

وعندما فرغ من هذه الحروب ، قدّر الموقف الدّولي بدقّة ، وبشكل سليم صحيح ، فسيّر خالدَ بن الوليد من اليمامة إلى العراق سنة ١٣ هـ ، ولو لم يجهّز أبو بكر جيشاً - بل جيوشاً - إلى بيزنطة في السّنة ذاتها ، لصح قول بروكلمان إلى حدٍّ ما ، ولكن في سنة ١٣ هـ ، جهّز أبو بكر الجيوش إلى الشّام ، فسيّر عمرو بن العاص إلى فلسطين ، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق ، وأبا عبيدة بن الجراح إلى حمص ، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن .

ألا يعلم بروكلمان أن اليرموك ، وهزيمة بيزنطة ، كانت قبل القادسيَّة ؟.

ألا يعلم بروكلمان أن أبا بكر سيَّر في عام واحد ، وهو عام ١٣ هـ ، الجيوش إلى الجبهتين البيزنطيَّة والفارسيَّة بآن واحد ، وتطلَّع إلى المشرق وإلى المغرب بآن واحد ؟ إن كان لا يعلم ذلك ـ وهذا نستبعده ـ فلا يصح أن يخطَّ حرفاً واحداً في تاريخنا ، وإن كان يعلم ـ وهذا نؤكِّده ـ ثم كتب ما كتب ، فهو بذلك يثبت عدم موضوعيته ، وعدم شموليته ، وبعده عن الجِدَّة ، وضياع من يعتمد أبحاثه أو يتَّكئ عليها .

ودليل آخر على التَّوفيق الَّذي حالف « نحيف بني تيم » في حكمه على الحالة الدَّوليَّة ، وخصوصاً فيما يتعلَّق ببيزنطة ، أن عمر بن الخطاب سار على سياسة الصِّدِّيق ذاتها ، فبقيت جبهتان مفتوحتان في الشَّرق والغرب ، جبهة الفرس ، وجبهة بيزنطة ، ولو كان تقدير الصِّدِّيق خاطئاً لغيَّر المسلمون استراتيجيتهم ، ولقد استمرت هذه الاستراتيجيَّة الموفقة حتَّى أيام الأُمويين ، جبهة شرقيَّة وصلت السِّند بقيادة محمد بن القاسم الثَّقفي ، وجبهة غربيَّة بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير .

ودليل التوفيق ، أن هذه السِّياسيَّة أوصلت المسلمين الفاتحين إلى قلب الصين ومنابع الفولغا ، وإلى قلب فرنسة ومنابع السِّين .

أمَّا أنَّ أبا بكر قد بدأ بالجبهة الفارسيَّة لضعفها البيِّن منذ عهد غير قصير ، فهذا افتراء كرَّره المستشرقون المبشِّرون في كتاباتهم ، وردَّدته أبواقهم مثل : جرجي زيدان ، وفيليب حتِّي[1] ، وافتراؤهم هذا يعني ، أن المسلمين الفاتحين انتصروا على دولتين واهيتين ضعيفتين .

---

(١) آراء يهدمها الإسلام ، ص ٦٣ وما بعدها .

ونقض هـذا الافتراء ، أن المسلمين مـا خـافوا أعـداءهم في جزيرتهم ، مع أنَّهم ما خاضوا معركة وكانوا فيها أكثر عدداً أو عتـاداً من أعـدائهم ، ورغم ذلـك حقّقوا انتصاراتهم الرَّائعة الخالدة .

وفي اليرموك ، ما كانوا أكثر من الرُّوم البيزنطيين ، ألا يكفي الرُّوم أنَّ مئـة ألف عربي متنصِّر كانوا معهم في المعركة ؟.

هذا .. وترتيبات الفرس والرُّوم عريقة ، وإمداداتهم وعتادهم عظيمان ، وهما يحـاربـان في أراضيهما ، والمسلمـون في أصقـاع بعيـدة عن عـاصمتهم ، وإمـداداتهم محـدودة جـداً ، لقـد حـاربـوا دولتين كل واحـدة منهما أغنى منهم رجـالاً ومـالاً وخبرة ، ولمـاذا نقول إن الفرس والرُّوم قـد أُنهكوا في المعـارك ، ولا نقول إنَّهما قـد اكتسبتا فنونـاً عـديـدة ، وخبرة كبيرة ، ومراسـاً طويلاً عبر حروبهما ؟ فعنـدمـا خرج المسلمون فاتحين من جزيرتهم ، كان الرُّوم يستصغرون شـأنهم ، وكان الفرس يحتقرون قدراتهم ويسمونهم الجياع .

والنَّصر العسكري الرَّائع الَّذي حقَّقه المسلمون في الجبهتين معـاً لا قيمـة كبرى له ، إذا قورن بانتصار العقيدة ، لقد استمرت حروب الفرس والرُّوم فيما بينهما أربع مئة سنة دون حسم ، لأن حروبهما لأطماع دنيويَّة ، ولمـا جـاءت عقيـدة الفـاتحين المسلمين فَلّت كلَّ سلاح ، وتهاوت أمـامهـا جيوش الفرس والرُّوم ، لقـد تبع النَّصر العسكري نصر في مجال العقيدة ، وهنا تكمن عظمة الفـاتحين المسلمين : ﴿ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ...** ﴾ ، [القصص ٥/٦] . ولـو كره بروكلمـان « الموضوعي » ، « العميق » .

☆ ☆ ☆

« وخلف عليًّا أوَّل الأمر ابنُهُ الحسن ، ولم يكن الحسن هـذا رجل السَّاعـة ،

فلم يرتضِ أن يقود جنوده في هجوم على خصمه ، والواقع أنَّه آثر مفاوضة معاوية ، وتنازل عن حقِّه في الخلافة ، على أن تُترك له خمسة ملايين درهم كانت في بيت المال بالكوفة » ، ص ١٢١ .

بل كان رجل السَّاعة رضي الله عنه ، عندما حقن دماء المسلمين .

لقد رأى أنَّه لا ينبغي له أن يثق بمن حوله من أصحابٍ أو من جموع ، فقد خبرهم وعرفهم بما قاساه والده كرَّم الله وجهه منهم ، ومنذ بيعة الحسن ، ظهر عدم ميله إلى الخلافة[١] ، فقد طفق يشترط على من بايع في العراق بقوله : « إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت » .

ثمَّ قرَّر رضي الله عنه التَّنازل لمعاوية ، وسمي عام ٤١ هـ عام الجماعة .

وعندما قام الحسين رضي الله عنه ، وسار إلى العراق أيام يزيد ، كان كما قال الفرزدق له : قلوب النَّاس معك ، وسيوفهم مع بني أُميَّة ، وكما قال نفر من الكوفة : إنَّ أفئدتهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك . لقد رأى الحسن أباه والأعراب من حوله يخذلونه كلَّما جاءت ساعة الفصل ، فآثر التَّنازل حقناً لدماء المسلمين .

---

(١) انظر : الطبري ٤٣٧/٥ ، والبداية والنِّهاية ١٤٩/٨ ، والكامل في التَّاريخ ٢٦٦/٣ ، وابن خلدون ٢١/٣

افتراءات بروكلمان
على العصر الأُموي

وقال بروكلمــان عن رفع المصـاحف على رؤوس الرِّمـاح للتحكيم في صِفِّين : « إنَّ هذه الحادثة قد تكون وهميَّـة » ، ص ١١٨ ، ثمَّ تكلَّم عن التحكيم في أذرُح في ص ١١٩ .

والحقيقة تقول : عندمـا اقترب انتصـار علي رضي الله عنـه في صفِّين ، ولاح جليّاً واضحاً ، إذ بمعاويـة يرفع المصـاحف ويقول : نقبل مـافي كتـاب الله ليحكم بيننا وبينكم . ويقول علي : ويلكم ، أنا أعلم مـا في كتـاب الله ، والله مـا رفعتموه إلاّ خوفاً منِّي ، ثمَّ أمر جنده بمتابعة القتال ، فقال أصحاب الفتنة : يـدعوننـا إلى كتاب الله ، ونقاتل معك ؟!.

وأفهمهم علي رضي الله عنـه أنَّ رفـع القرآن خـدعـة ، « تخـذلـونني في هـذه اللَّحظة » ؟.

فقالوا : إن لم توقف بقيَّة الجنـد في القتـال ، لنقتلنَّـك ونلحقـك بعثمـان[1] ، فأوقف القتال ، واتَّفق الطرفان على التَّحكيم .

وبروكلمـــان في ص ١١٩ يتكلَّم عن التحكيم ، وعن أبي مـوسى الأشعري ، وعمرو بن العـاص ، ولكنـه لتخبُّطــه ، لم يقـل كيف أُوقف القتـال في صفِّين ،

---

(١) الملل والنِّحل ، ص ١١٤

ولا كيف وصل ممثِّلا الطرَفيْن إلى أذْرُح[1] .

وكيف يستطيع أن يقول كيف وصلا إلى أذرح ، ما دامت الموضوعيَّة الَّتي وُصِفتَ بها ، بينها وبينه بعد المشرقَيْن ؟!.

☆ ☆ ☆

ويقول بروكلمان في ص ١٢٩ : « توفي يزيد في ١١ تشرين الثاني سنة ٦٨٣ ، صحيحٌ أنَّه انصرف حتَّى في عهد خلافته إلى الخمر والموسيقى واللَّهو بأكثر مما انصرف إلى شؤون الدَّولة » .

ويقول في ص ١٥٢ : « والرِّوايات المعادية للأُمويين تصوِّر يزيد الثاني ، كما صوَّرت سميَّه يزيد الأوَّل من قبل ، رجلاً مستهتراً ، انغمس في مناعم اللَّهو والموسيقى ، وشغلته القيان والمغنيات .. » .

هذا التَّناقض الَّذي وقع فيه بروكلمان في كلامه عن الخليفة الأُموي الثاني يزيد بن معاوية ، غني عن التَّعليق ، فكثير مما كتب عن يزيد ، روايات معادية للأُمويين ، وهي من أغاليط المؤرِّخين .

☆ ☆ ☆

« فالرِّوايات الأُسطوريَّة تذهب إلى أن النَّقد البيزنطي كان وحده المتداول في الإمبراطوريَّة العربيَّة » ، ص ١٣٤ .

لم تقل مصادرنا العربيَّة إنَّ النَّقد البيزنطي كان وحده المتداول في الإمبراطوريَّة العربيَّة ، لقد كان النَّقد البيزنطي هو المتداول في بلاد الشَّام

(١) أذْرُح : بلد في أطراف الشَّام من أعمال الشَّراة ، ثمَّ من نواحي البلقاء ، معجم البلدان ١٢٩/١

ومصر ، والنَّقد الفارسي هو المتداول في العراق ، والنّقد العربي هو المتداول في مناطق عديدة في الجزيرة العربيَّة .

وتقول المصادر : وأوَّل من سك النقود العربية ، وجعل استعمالها إجباريّاً ، هو عبد الملك بن مروان [1] .

ويذكر المقريزي أن أوَّل من ضرب النُّقود في الإسلام عمر بن الخطاب سنة ١٨ هـ ، على مثال النُّقود الفارسيَّة ، وأصدر عثمان بعده دراهم منقوشاً عليها « الله أكبر » .

مع كل هذا .. نرى بروكلمان يثير قضيَّة ، ويجعل من الخبر مسألة يثار حولها النّقاش .

☆ ☆ ☆

« وفي عهد عبد الملك تعذَّر على أتباعه الحج إلى الكعبة ، بسبب استيلاء منافسه في الخلافة ، عبد الله بن الزُّبير على مكَّة ، فحاول أن ينشئ في القدس بدلاً من البيت الحرام ، وهناك على الصَّخرة المقدَّسة الَّتي استنَّ عمر نفسه الصَّلاة عندها ، يوم دخل بيت المقدس ، شيَّد عبد الملك ما يدعى قبَّة الصَّخرة » ، ص ١٤٠ .

لقد ردَّد هذا الكلام فيليب حتّي في كتابه « تاريخ العرب المطوَّل [2] » ،

(١) عبد الملك بن مروان : [٢٦ - ٨٦ هـ = ٦٤٦ - ٧٠٥ م] ، تولى الخلافة سنة ٦٥ هـ ، فضبط أُمورها ، وظهر بمظهر القوَّة » فكان جباراً على معانديه ، قوي الهيبة ، نُقِلَت في أيَّامه الدّواوين من الفارسيَّة والرُّوميَّة إلى العربيَّة ، وضبطت الحروف بالنُّقط والحركات ، وهو أوَّل من سك الدّنانير في الإسلام ، وأوَّل من نقش بالعربيَّة على الدَّراهم ، الأعلام ١٦٥/٤

(٢) ص ٣٣٢ حيث قال : « وقد دعاه إلى بنائها عزمه على صرف الحجّاج عن مسجد مكّة » .

وردّده غيره أيضاً . وفنّدنا هذا الكلام في كتابنا « فيليب حتّي »[1] ، ومجمل القول في هذا الموضوع :

١ً - لم يلاقِ أهل الشّام عناءً في الحجّ إلى مكّة أيّام ابن الزُّبير .

٢ً - ولم يجبر ابن الزُّبير أحداً على مبايعته ، وكان يتركهم - كما روى وذكر المؤرّخون - يأتمّون في صلاتهم بإمام منهم .

٣ً - وحديث رسول الله ﷺ : « لاتشدُّ الرِّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد بيت المقدس » ، يشير إلى مسجد بيت المقدس ، إلى المسجد الأقصى ، والمسجد الأقصى غير الصّخرة ، والحجُّ إلى مكّة ، إلى الكعبة ، ولا يغني عن ذلك مسجد الرّسول ﷺ في المدينة المنوَّرة ، ولا المسجد الأقصى في بيت المقدس ، فالحديث الشّريف لا يضع المسجد الأقصى موضع البديل عن المسجد الحرام الّذي نصَّ القرآن الكريم صراحة إلى فرض الحجِّ إليه ، وحرّم الصّد عن سبيله .

٤ً - وليس من المعقول أن يأخذ عبد الملك نفسه بشبهة الكفر ويصدَّ النّاس عن سبيل الحجِّ إلى بيت الله الحرام .

٥ً - انفرد اليعقوبي بذكر الحج إلى القدس : « وهذه الصّخرة الّتي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لَمّا صعد إلى السّماء ، تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصّخرة قبّةً ، وعلّق عليها ستور الدّيباج ، وأقام لها سدنة ، وأخذ النّاس يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة ، وأقام بذلك أيّام بني أُميّة » ، ولم يشر المؤرّخون المعاصرون له مثل ابن الفقيه ، والبلاذري ، والطّبري .. إلى ذلك ، وهذا ممّا يقوّي الشّك في الرّواية كلّها .

٦ً - وبناء قبّة الصّخرة نفسه ، لم يُعَد إعداداً صالحاً لطواف الحجّاج كما

(١) ص ١٩٦ وما بعدها .

يطوفون حول الكعبة[1] ، فإنّه من جهة محصور في جدران غليظة ، وأبوابه الأربعة من جهة أُخرى ضيّقة لا تسمح بدخول أفواجٍ من النّاس وخروجهم في يسر وحرّيّة وهم على هيئة الطّواف ، وكذلك فإنّه يحيط بالصّخرة رواقان ، ولو كان القصد من البناء تيسير الطّواف ، لجُعِل له رواق واحد ، أو ساحة واحدة تحيط بالصّخرة ، ثمّ إنّ هذين الرّواقَيْن ضيّقان من جهة ، غير متساويَيْن اتّساعاً من جهةٍ أُخرى ، ولهذا فإنّ تصميم البناء نفسه يؤكّد عدم تخصيصه للطّواف .

فلماذا بنى عبد الملك بن مروان قبّة الصّخرة إذن ؟

إن قبّة الصّخرة بُنِيَت تخليداً لذكرى الإسراء .

أو بُنِيَت خشية أن تعظم في قلوب المسلمين الكنائس السّامقة ، وأن يبهرهم مظهرها ، فبنى عبد الملك على الصّخرة قبّة مشرقة متلألئة ، ويروي المقدسي أنّه لم يَرَ في الإسلام ، ولا سمع في الشّرق مثلها[2] .

وإضافةً لما سبق ، أراد عبد الملك أن يؤكّد للمسيحيين واليهود ، انتصار الإسلام الّذي ثبّت أقدامه في مدينة القدس ، بإقامة بناء إسلامي بارز ظاهر .

إنّ اليهود كانوا يزورون الصّخرة باعتبار أنّها كانت الموضع الّذي هَمّ عليه إبراهيم عليه السّلام بذبح ابنه ، وكانت الموقع الّذي جرت عليه أحداث الفداء ، وكانت هذه الزّيارات تزعج المسلمين وتقلقهم وتضايقهم في إقامة صلاتهم على الحرم الشّريف ، وفي المسجد الّذي بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمام الصّخرة ، فأراد عبد الملك بإقامة بنائه حفظ الصّخرة من عبث اليهود .

ويرجّح الباحثون أيضاً حرص عبد الملك بن مروان على تخليد ذكرى أُولى

---

(١) انظر : عالم الفكر ، المجلد الحادي عشر ، العدد الأوّل سنة ١٩٨٠ م ، قبّة الصّخرة ، ص ١٣ ، مقالة د . أحمد فكري .

(٢) أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٥٩ ، ١٧٠ ليدن ط ٢ ، سنة ١٩٠٦ م .

القِبْلَتَيْن ، ويـؤيِّـد هـذا الرأي تصميم البنـاء نفسـه ، فهـو بنــاء ليس على نظــام المسـاجـد ، فلا يصلح أن يجتمع فيـه المسلمـون للصـلاة ، وهـو كـذلـك لا يصلـح للطَّواف ، وروعي في هذا البناء أن يكون مزاراً فحسب ، وقد صُمِّم البنـاء بحيث يتَّسع الرِّواق المحيط بالصَّخرة ليستوعب أكبر عـدد من الزُّوَّار ، وهـذه هي الحكمـة في زيـادة اتِّسـاعـه زيـادة ملحوظـة عن الرِّواق الأوَّل الملاصق للأبواب ، والَّـذي يقتصر استخـدامــه على دخـول هـؤلاء الـزُّوَّار وخروجهم ، فكأن البنـــاء معرض مخصَّص لعرض تحفة ثمينة مع الحفاظ عليها ، ولهذا أيضاً روعي أن تكون فخامتـه وعظمته بقدر قيمته ، هذا الكنز الَّذي يضمُّه بين أجنحته ، وهل هناك بعد الكعبة والرَّوضة الشَّريفة كنز أكثر قدسيَّةً من القِبْلَةِ الأُولى ؟

وعبـد الملـك كما قـال الجـاحـظ : « سنـان قريش ، وسيفهـا رأيـاً وحزمـاً ، وعابدها قبل أن يستخلف ورعـاً وزهـداً » ، إنَّـه من التَّـابعين ، احتجَّ مـالـك في المُوَطَّأ بأحد أعماله ، حفظ الحديث الشَّريف عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، وسمع من أبي هريرة ، وأبي سعيــد الخــدري ، وجــابر بن عبــد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله ، فلا يعقل أن يتجاوز حدود الله تعالى .

هذا هو مجمل القول في موضوع بناء عبـد الملـك لقبَّـة الصَّخرة ، والتي يـدَّعي بروكلمان : « الَّتي استنَّ عمر نفسه الصَّلاة عنـدهـا يوم دخل بيت المقـدس » ، مع أن الطَّبري [٣ / ٦١١] يـذكر قـول عمر بجـلاء ودون مـواربــة : « إنــا لم نـؤمر بـالصَّخرة ، ولكنَّـا أُمرنــا بــالكعبــة » ، وعنــدمــا صلَّى عمر صلَّى في المسجــد الأقصى[١] ، ثم جـاء إلى الصخرة ، فـاستـدل على مكانهـا ، وكما يقـول ابن كثير في البـدايـة والنِّهـايـة [٧ / ٥٦] : وبنى المسجـد المعروف بـالعمري اليوم ، ثم نقـل

(١) المسجـد ، مكان العبـادة ، أي مكان يسجـد فيـه لله سبحـانـه ، جـاء في سـورة الكهف ٢١ : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ﴾ . فالمسجد الأقصى عند الإسراء وعند فتح بيت المقدس سنـة ١٥ هـ ، مكان للعبادة ، يسجد لله فيه .

التراب عن الصَّخرة ، في طرف ردائـه وقبـائـه ، ونقـل المسلمـون معـه في ذلـك ، « وقد كانت الرُّوم جعلت الصَّخرة مزبلة لأنَّها قبلة اليهود » .

« فالموضوعي » بروكلمان ، أراد أن يثبت ادعاءه ، فربطه بحادثة تاريخيَّة ، فأخطأ مرَّتين ، وجاء الرَّبط مثبتاً خطأه في الأُولى والآخرة .

☆ ☆ ☆

افتراءات بروكلمان

على العصر العباسي

وقال بروكلمان عن الخلفاء العبَّاسيين : « ولكنهم تصرَّفوا فيما يتّصل بالموت والحياة مباشرة ، فقد كان الجلاَّد ـ وهو ظاهرة لم تعرفها الحضارة العربيَّة قبل ذلك العهد ـ يلازم الخليفة دائماً ، وكان النِّطع حاضراً أبداً قرب العرش ، لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها » ، ص ١٧٩ .

هذا التَّعميم مرفوض تاريخياً وواقعاً ، ولنَرَ مثالين اثنين من خلفاء بني العباس ، هما المنصور[1] والرَّشيد[2] كمثالين لعصر القوَّة ، وقمَّة الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، والَّتي تمثَّلت في الخلفاء العشرة الأُوَل .

المثال الأوَّل :

١ ـ من مواعظ أبي جعفر المنصور لابنه المهدي : « يا أبا عبد الله ، إن الخليفة لا يصلحه إلاَّ التَّقوى ، والسُّلطانَ لا يصلحه إلاَّ الطَّاعةُ ، والرَّعيَّةَ لا يصلحها إلاَّ العدلُ ، وأوْلى النَّاس بالعدل أقدرهم على العقوبة ، وأنقصُ النَّاس عقلاً من ظلم من هو دونه »[3] .

---

(١) عبد الله بن محمد بن علي ، أبو جعفر المنصور ، الخليفة العباسي الثاني : ١٣٦ ـ ١٥٨ هـ .

(٢) أبو جعفر هارون الرشيد بن المهدي ، الخليفة العباسي الخامس : ١٧٠ ـ ١٩٣ هـ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، المجلَّد الثامن والثلاثون ، ص ٢١٦ ، مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

وقال له أيضاً : « أي بني ، ائتدم[1] النعمةَ بالشكر ، والمقدرةَ بالعفو ، والطاعةَ بالتّآلف ، والنّصرَ بالتّواضع والرّحمة للناس »[2] .

٢ ـ وقال رجل : « كنا عند أمير المؤمنين المنصور ، فدعا برجلٍ ، ودعا بالسّيف ، فأخرج المبارك ـ بن فضالة ـ رأسه في السّماط[3] ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سمعتِ الحسن يقول : قال رسول الله ﷺ ـ فلما سمعه المنصور يقول : قال رسول الله ﷺ أقبل عليه بوجهه يسمع منه ، فقال : قال رسول الله ﷺ ـ : « إذا كان يوم القيامة قام منادٍ من عند الله ينادي : ليقُم الّذين أجرهم على الله ، فلا يقوم إلاّ من عفا » .

فقال المنصور : خلّوا سبيله ، ثمّ أقبل على جلسائه يخبرهم بعظيم جرمه ، وما صنع »[4] .

٣ ـ ولما جاء قَطَن بن معاوية إلى المنصور معترفاً بذنبه ، قال : « يا أمير المؤمنين ، أنا قَطَن بن معاوية ، قد والله جهدتُ عليكَ جهدي[5] فعصيت أمرك ، وواليت عدوّك ، وحَرَصْتُ على أن أسلُبَك ملكك ، فإن عفوت فأهل ذاك أنت ، وإن عاقبت فبأصغر ذُنُوبي تقتُلُني »[6] .

فسكت المنصور هُنَيْهةً ، ثمّ قال : هِيهِ !؟ فأعاد قَطَن مقالته ، فقال المنصور : فإن أمير المؤمنين قد عفا عنك .

(١) الإدام معروف ما يؤتدم به مع الخبز ، فكأنّه أراد أن الشكر يصلح النعمة كما يصلح الإدام الخبز ، وفي الوزراء والكتاب ١٢٦ ، والبداية والنهاية ١٢٣/١٠ : « استدم » ، وهي أقرب للصّواب ، المرجع السّابق ، حاشية ص ٢١٨

(٢) المرجع السّابق « ابن عساكر » ٢١٨/٣٨

(٣) كل صفٍّ من الرّجال : سماط ، والسّماط : الجماعة من النّاس . (اللسان : سمط) .

(٤) ابن عساكر ٢١٩/٣٨ ، وتاريخ بغداد ٢١٢/١٣ ، البداية والنهاية ١٢٣/١٠ ، العقد الفريد ٦٠/٢

(٥) الجهد : بلوغك غاية الأمر الّذي لا تألو على الجهد فيه ، تقول : جَهَدتُ جهدي .

(٦) ابن عساكر ٢٢٠/٣٨

٤ ـ وأُتي المنصور برجلٍ يعاقبه على شيءٍ بلغه عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الانتقام عَدْلٌ ، والتَّجاوز فَضْلٌ ، ونحن نُعيذُ أميرَ المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكَسِ النَّصيبين دون أن يبلغ أرفع الدَّرجتين ، فعفا المنصور عنه(١) .

٥ ـ وكتب أبو جعفر إلى سَوَّار بن عبد الله قاضي البصرة : انظر الأرض الَّتي يخاصم فيها فلان القائد ، فلانَ التاجر ، فادفعها إلى فلانٍ القائد .

فكتب إليه سَوَّار : إنَّ البيِّنةَ قد قامت عندي أنَّها لفلان التاجر ، فلست أُخرِجُها من يديه إلاَّ ببيِّنة ، فكتب إليه أبو جعفر : والله الَّذي لاإله إلاَّ هو لتدفعنَّها إلى فلان القائد .

فكتب إليه سَوَّار : والله الذي لاإله إلاَّ هو لاأخرجتها من يدي فلان التَّاجر إلاَّ بحق !

فلما جاءه الكتاب قال أبو جعفر : ملأتُها والله عدلاً ، صار قُضاتي يردُّوني إلى الحقِّ(٢) .

في القصَّة الأُولى وعظ المنصور ابنه وأوصاه بالعدل ، ومن العدل ألاَّ يُقتل بريء ، وألاَّ تزر وازرة وزر أُخرى ، وفي القصَّة الثانية عفا المنصور عن خارج عن القانون ، قد جاء معترفاً مقرّاً بذنبه ، وعقوبة الخارج عن القانون معروفة في كلِّ أرجاء العالم قديماً وحديثاً !؟

وهذا ما كان أيضاً مع قَطَن بن معاوية ، الَّذي والى عدوَّ المنصور ، وحرص على أن يسلبه ملكه . لقد كانت شيمة المنصور العفو والصفح لا الجلاد والنَّطع .

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ، المجلَّد ٣٨ ، ص ٢٢١

(٢) المرجع السَّابق ، ص ٢٢٧

وفي القصة الرَّابعة ، تجاوز المنصور ، وقبل الإحسان ، لا العدل .

وفي القصة الخامسة ، ملأ دولته عدلاً « وصار قضاتي يردُّوني إلى الحقّ » .

فالجلاَّد والنَّطع حاضران قرب العرش لا لقتل بريء لا ذنب له ، ولا لاستئصال الرُّؤوس المغضوب عليها لهوى في النفس ، النَّطع لا يحمله الجلاَّد إلاَّ بعد محاكمة وإقرار ، وتحرٍّ للعدل ، مع فرصة للدِّفاع واستجلاء الحقيقة .

المثال الثاني :

هارون الرَّشيد[1] ، الَّذي كان مضرب المثل في العدل ، والذي كان في قلبه توازن عجيب بين العصف بالعدو ، وبين العطف على الرَّعيَّة ، وهذا التَّوازن يشبه توازنه بين سمره البريء الطاهر العفيف ، وبين إيمانه وورعه والتزامه بإسلامه .

والمتَّهم عنده يسوق حججه على أعلى مستوى يتصوَّره دفاع عن متَّهم ، في حضرة خليفة يُحْسِنُ الاستماع ، بوجود قاضٍ هو أعظم أهل الأرْض عِلْماً يومذاك ، أبو يوسف[2] ، ومن بعده محمَّد بن الحسن الشَّيباني .

فلم يرق الرَّشيد دماً إلاَّ إذا أدانت الأدلَّة صاحبه ، وكان دأبه أن يضرب بشدَّة ، لكن العدل كان شأنه في كل حكم ، والمتصفِّح لتاريخ الرَّشيد ، يلمس بوضوح أنَّه ما أمر بقتل إنسان إلاَّ في حالات ثلاث[3] :

أ - زنديق يعلن كفره ، ويجاهر به ، ويستخف بقيم الآخرين ، ويسخر منها ، وهذا ما رآه الرَّشيد أيام أبيه المهدي المشهور بعدله وتقواه ، لقد كان لوزير المهدي « معاوية بن يسار » ابن زنديق ، فدعا المهدي الولد ووالده ، وسأل

---

(١) مرت بحاشية سابقة فترة خلافته .

(٢) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب ، تلميذ أبي حنيفة ، قاضي القضاة أيام الرشيد .

(٣) انظر : هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا ، ص ٤٤

الـولـد عن شيء من القرآن الكريم ، فلم يتمكَّن من تـلاوة بعض الآيـات ، قـال المهدي : ألم تخبرني أن ابنك حفظ القرآن ؟ قال الوزير : بلى ، ولكن فارقني منذ مـدَّة فنسيه ، قـال المهدي : قم فتقرَّب إلى الله بـدمـه ، فقـام الأب فعثر ووقع وارتعد ، فأمر المهدي بعض الحضور بقتل الزِّنديق ، فضرب عنقه .

حـدَّث محمد بن عيسى بن يزيد الطرسوسي ، قـال : سمعت خرزاد القـائد يقول : كنت عند الرَّشيد ، فـدخل أبو معـاويـة الضرير وعنـده رجل من وجوه قريش ، فجرى الحـديث إلى أن خرج أبـو معـاويـة إلى حـديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة : « أن موسى لقي آدم فقـال : أنتَ آدم الَّـذي أخرجتنـا من الجنَّة ! » ، وذكر الحديث ، فقـال القرشي : أين لقي آدمُ موسى ؟ .. قـال : فغضب الرَّشيـد وقـال : النَّطـع والسَّيف ، زنـديـق[1] والله يطعن في حـديث رسول الله ﷺ ، قال : فما زال أبو معاوية يسَكِّنُـهُ ويقول : كانت منـه بـادرة ، ولم يفهم يا أمير المؤمنين[2] ، حتَّى أسكنه[3] .

٢ً ـ ومسلم تبيح الشَّريعـة قتلـه في إحـدى حـالات ثلاث ، مصـداقـاً لقـول النَّبيِّ ﷺ : « لا يحلُّ دم امرئ مسلم إلاَّ بـإحـدى ثلاث : الثَّيب الـزَّاني ، والنَّفس بالنَّفس ، والتَّارك لدينه المفارق للجماعة »[4] .

٣ً ـ وثائر يهدف قَلْبَ نظام الحكم ، يشيع الفوضى والـذُّعر والقتل والفتـك ، بدل الأمن والطمأنينة .. وهذا تقرُّه الدُّول قديمـاً وحـديثـاً ومستقبلاً ، إنَّـه قـانون

---

(١) الزَّندقة : فارسية معرَّبة ، نسبة إلى زند ، وهو كتاب يفسّر كتـاب الأفستـا المجوسي ، وتطلق على من يبطنون الكفر .

(٢) أن اللّقاء : لقاء أرواح .

(٣) تاريخ بغداد ٥/١٤ ، البداية والنهاية ٢١٤/١٠ ، تاريخ الموصل ٢٩٤ ، تاريخ الخلفاء ٢٨٥

(٤) رواه البخاري ومسلم .

السُّلطة في كل زمن : الدِّفاع عن النَّفس والدَّولة ، وهذا إما أن يُقْتَل في مواجهة حربيَّة عسكريَّة ، وإمَّا بإلقاء القبض عليه ومحاكمته علناً ، مع دفاع كامل بحضور قاضي القضاة . ومثال ذلك :

ظهر في الموصل سنة ١٨٠ هـ العطَّافُ بن سفيان الأزدي ، فخرج إليه الرَّشيد ، فانسحب العطَّاف بأربعة آلاف إلى أرمينية ، ولما وصل الرَّشيد الموصل ، همَّ أن يبطش بأهلها الموالين للعطَّاف ، ولكن العباس بن الفضل ، وكان فقيهاً محدِّثاً خرج إلى الرَّشيد مع موسى بن المهاجر ، وكان من أصحاب الثوري ومحدِّثاً فقيهاً أيضاً ، وخرج أيضاً سعد الفقيه ، وعتيق الفقيه وغيرهم .. فتوسَّطوا في الأمر مع أبي يوسف القاضي ، فأشار عليهم إذا جنَّ اللَّيل أن يصعد النَّاسُ على سطوحهم ، ويجهروا بالأذان لعشاء الآخرة ، ففعلوا ذلك ، وسمع هارون الرَّشيد كثرة الأذان والضجَّة ، فقال لأبي يوسف : ماهذا ؟ قال : أذان يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ، هؤلاء مؤذِّنون ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، القوم مسلمون ، وفيهم أهل الصَّلاح وقُرَّاء القرآن(١) ، وأهل علم وفقه .

فاكتفى الرَّشيد بهدم سور المدينة ، ونادى مناديه : من هدم ما يليه من السُّور فهو آمن ، فهدم النَّاس سورهم بأيديهم ، ونادى المنادي : أَمِنَ الأسود والأبيض إلاَّ العطَّاف بن سفيان ، وعبد العزيز بن معاوية ، والمعافى بن شريح ، وبيرويه الرَّحبي ، ويعلى الثقفي .

ولما أُلقي القبض على المعافى ، قال له الرَّشيد : أنتَ المعافى ؟

قال : إنَّك المعافى يا أمير المؤمنين ، وأنا المبتلى بذنوبي .

---

(١) لاحظ أن الرَّشيد أقسم على البطش بهم عندما علم أنَّهم مارقون ، ولما تأكَّد من صلاحهم وعلمهم وفقههم تركهم وشأنهم ، فلم يهدر دم مسلم ، أو غير مسلم ، إلاَّ بحق وتحقيق وإدانة .

الرَّشيد : هاتِ بيرويه ومنتصر .

المعافى : ماأقدر عليهما .

الرَّشيد : برئت من المهدي ، ومن قرابتي لرسول الله ﷺ إن لم أقتلك .

المعافى : يا أمير المؤمنين ، أنا شيخ وفي رقبتي وصايا وأطفال ، فتمهلني حتَّى أُخرج الوصايا الَّتي في عنقي وأُوصي .

الرَّشيد : أمهلتك إلى اللَّيل .

قال المعافى : فوجَّهت إلى اليمانيَّة وسطاء وشفعاء لدى الخليفة ، كالحسن بن قحطبة ، وعبد الله بن مالك الخزاعي ، وحمزة بن مالك الخزاعي وغيرهم .. فركبوا إليه فاستوهبوني منه ، قال : فلا بُدَّ من حبسه سَنَة ، فخيَّروني أين أُحبس ، فاخترت الحبس بالموصل ، وأن أُطلق بعد سنة بغير استئمار ، فأمر بذلك[1] .

ولما سخط الرَّشيد على عبد الملك بن صالح لخيانته وعزمه على الغدر بالمسلمين ، أحضر الرَّشيد الشُّهود على ذلك[2] ، ثم قال : أما أمرك فقد وضح ، ولكني لاأعجل عليك حتَّى أعلم الَّذي يرضي الله فيك ، فإنَّه الحكم بيني وبينك .

قال عبد الملك : رضيت بالله حكماً ، وأمير المؤمنين حاكماً ، فإنِّي أعلم أنَّه يؤثر كتاب الله على هواه .

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر ، فدخل عبد الملك ، فسلَّم ، فلم يرد عليه الرَّشيد ، فقال عبد الملك : ليس هذا يوم أحتج فيه ، ولا أجاذب منازعاً .

---

(١) تاريخ الموصل ٢٨٠ ، الأخبار الطوال ٣٩٠ ، تاريخ ابن الوردي ١/٢٨٠

(٢) كان والياً على الموصل ، وقرر العصيان والغدر بالرَّشيد .

قال الرَّشيد : لِمَ ؟ قال : لأن أوَّله جرى على غير السُّنَّة ، فإنِّي أخاف آخره ، قال الرَّشيد : وما ذلك ؟ قال : لم ترد عليَّ السَّلام ، أنصف نصفة العوام . قال الرَّشيد : السَّلام عليك اقتداء بالسُّنَّة ، وإيثاراً للعدل ، واستعمالاً للتَّحيَّة .

وهكذا .. إن صفَّق الرَّشيد وقال : السَّيف والنَّطع يا غلام ، فهذا يعني بعد محاكمة بكل ما في الكلمة من معنى ، وبعد إدانة ضمن حدود الشَّريعة .

فتعميم بروكلمان مرفوض ، والنطع الحاضر أبداً قرب العرش لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها ، كان يستقبلها بعد محاكمة نزيهة عادلة ، بكل ما في العبارة من معنى .

☆ ☆ ☆

ويقول بروكلمان عن سبب نكبة البرامكة[1] : « وتعزو الرِّوايات سبب الخلاف الأخير إلى حادثة غراميَّة محصلها أن الخليفة - الرَّشيد - عقد لجعفر على أخته العباسة صُوريّاً ، حتَّى يكون في ميسوره أن يأنس بالاجتماع بهما في وقت معاً ، ولكن جعفراً أساء اصطناع هذه الحريَّة الَّتي تمت له .. » ، ص ١٨٧ .

إن رواية زواج العبَّاسة الصُّوري من جعفر ، رواية منقوضة على محكّ البحث الموضوعي ، وفصَّلنا ذلك في كتاب « هارون الرَّشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدُّنيا » .

لقد كانت نكبة البرامكة نكبة جماعيَّة ، وهلاك جماعي ، فهي لا بد عقاب على فعل جماعي ، خُطِّط له ، لكنه لم يتم ، فالرَّشيد كما قلنا في الفقرة الَّتي سبقت ، لم يرق دماً يوماً ، ولم يسجن شخصاً في أيِّ يوم ، إلاَّ لسبب يقرُّه الدِّين والعقل والمنطق السَّليم ، فمن باب أَوْلى ألاَّ يُنَكِّل بجماعة ، بسبب ظن ، أو بسبب

(١) كانت نكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ ، فقتل الرَّشيد جعفر ، وحبس يحي في الرِّقة إلى أن مات .

إساءة فرديَّة من أحد أفرادها ، لقد نكبهم الرشيد للأسباب التَّالية :

١ ـ لأنَّهم أظهروا إسلاماً ، وفي نفوسهم مجوسيَّة .

٢ ـ ولأنَّهم كانوا يميلون إلى فارسيَّة كسرويَّة .

٣ ـ ولحمايتهم الثقافة الفارسيَّة بجاههم ، وبالأموال الَّتي وُضِعت بين أيديهم ، ولنشرها بما لهم من جاه وسلطان .

٤ ـ ولأنَّهم آووا كثيرين ممَّن اتُّهموا بالزَّندقة ، كمحمد بن اللَّيث الخطيب ، وهشام بن الحكم الرَّافضي ، لقد هالهم قوَّة الدَّولة العباسيَّة خصوصاً وقد انتقل الحكم من الأُمويين إلى العباسيين ، ونفوس الفرس تطمع إلى حكم فارسي في المظهر والمضمون ، في اللُّغة والتراث ، لذلك شجعوا المانويَّة والزَّردشتيَّة والمزدكيَّة بحجَّة حريَّة الرَّأي .

٥ ـ ونكبهم الرَّشيد لمضاهاتهم له ، وإطلاق سراح يحي بن عبد الله بن الحسن الطَّالبي ، الَّذي دعا إلى نفسه ، فبايعه أهل الحرمين واليمن ومصر .. ولما قصد بلاد ما وراء النَّهر ، اشتدَّ الرَّشيد في طلبه ، فانصرف إلى خاقان ملك الترك ومعه شيعته ، ثمَّ عاد إلى طبرستان ، فبلاد الدَّيلم سنة ١٧٥ هـ ، فكثر جَمْعُه ، فندب الرَّشيد لحربه ، فضعف أمر يحي ممَّا جعله يطلب الأمان من الرَّشيد ، فأجابه بخطِّه ، واستقدمه إلى بغداد ، وأغدق عليه الرَّشيد عطاياه ، إلى أن بلغه أنَّه يدعو لنفسه سِرّاً ، فحبسه عند الفضل بن يحي ، فأطلقه الفضل ، وعلم الرَّشيد ، فأرسل من أعاده إلى الاعتقال ولم يقتله رغم هربه ، وكان كثيراً ما يدعو به إليه فيناظره ، واستمر إلى أن مات في محبسه .

فإطلاق سراح يحي يدل على بدء ترك مشورة الرَّشيد وتجاوزه ، والبتِّ والأمر والنَّهي دون الرُّجوع إليه ، بل ومخالفة أمره ، فقد أطلق البرامكة سراح يحي ووجَّهوا معه من أوصله إلى بلاده ، دون علم الرَّشيد .

واستعمل أكثر من مؤرِّخ عبارة « دولة البرامكة » ، كالمسعودي ٣٩٨/٦ ، والفخري ١٩٧ ، وفعلاً .. فقد أصبحوا دولة ضمن دولة ، ولم يكن الرَّشيد ذلك الخليفة السَّاذج البسيط ، ليدع لهم الحبل على الغارب .

٦ ـ واصطنع البرامكة الأموال لأنفسهم من دونه ، حتَّى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه .

لما سبق .. نكب الرَّشيد البرامكة ، والسَّبب « إساءة استعمال السُّلطة » .

وأسطورة (العبَّاسة) مع (جعفر) من اختراعهم ، روَّجوا لها ، لطمس معالم حركتهم .

☆ ☆ ☆

ويقول بروكلمان في ص ١٩٢ : « الشُّعوبي : أي المدافع عن تساوي الأُمم في الحقوق » .

لا أدري كيف فهم الباحث والمؤرخ والعالم الكبير « كارل بروكلمان » هذا المعنى من كلمة « الشُّعوبي » ، والَّتي هي في غاية الأهمِّيَّة في التَّاريخ العربي الإسلامي ، وفي الأدب العربي أيضاً ، فكثير من الحوادث لا تفهم إلا بمعرفة معنى « الشُّعوبي » . فإذا ببروكلمان « المؤرخ العظيم » يورد تعريفاً لم يجعل له سنداً من الواقع : « الشُّعوبي : أي المدافع عن تساوي الأُمم في الحقوق » ، فهل كانت « الشُّعوبيَّة » في تاريخ العرب وأدبهم تحمل هذا المعنى ؟ خصوصاً وأن الإسلام قد حمل للعرب وغيرهم معنى المساواة بين البشر ، شعوبهم وقبائلهم ، أبيضهم وأسودهم قويِّهم وضعيفهم ، وجعل التَّفاضل بينهم لا بالدم ، ولا باللَّون ، بل بالعمل الصالح والتقوى :

﴿ يَا أَيُّها ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، [الحجرات : ١٣] .

ولا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود .. و « سلمانُ منـا أهل البيت » .

الشّعوبي .. هو الذي لا يكتفي بـإظهـار مفـاخر أُمَّتـه ، بل يحمل على أُمَّـة العرب ، ليكشف عما يزعمـه من نقـائص فيهـا ، وفي « لسـان العرب » الشّعوبي : « الَّذي يصغّر شأن العرب ، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم »[١] .

ومثال الشعوبيين ، الشّاعر الشّهير أبو نواس « الحسن بن هـانئ »[٢] ، الّـذي لم يخفِ حقـده على العرب ، فـأخـذ يشتمهم ، ويلصـق فيهم من التُّهم والعيـوب ، ما يكشف به عن حقيقة كرهه لهم ، وحقده عليهم ، فتظهر الشّعوبيّة لا المسـاواة في قوله :

عاج[٣] الشَّقِيُّ على رَسْمٍ[٤] يسائله   وعجت أسـأل عن خمـارة البلـدِ
يبكي على طَلَلِ المـاضين من أسَدٍ   لادرَّ درك قل لي من بنـو أسـدِ ؟
ومن تميم وقيس ولفهما ؟   ليس الأعاريبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَحَدِ
لا جفَ دمعُ الـذي يبكي على طللٍ   ولاصَفَـا قلبُ من يصبو إلى وَتَـدِ

فهل هذا القول دعوة لتساوي الأمم في الحقوق ؟

☆ ☆ ☆

وفي ص ١٩٩ ، يقول بروكلمان بهزء واستخفاف لا يليقان بمؤرخٍ « كبير » ،

---

(١) انظر اللسان مادة « شعب » ٤٩٧/١

(٢) الحسن بن هـانئ بن عبـد الأوَّل بن صبـاح الحكميّ بـالـولاء ، ولـد في الأهـواز سنـة ١٤٦ هـ = ٧٦٣ م ، وتوفي في بغداد سنة ١٩٨ هـ = ٨١٤ م .

(٣) عاجَ يَعُوج إذا عطف ، اللّسان « عوج » .

(٤) الرَّسْمُ : الأَثَرُ ، وقيل : بقيَّة الأَثَر ، اللّسان « رسم » .

وصفه بعضهم « بالموضوعيَّة والعمق والشُّمول والجِدَّة » : « فالواقع أن المأمون انطلق في سبيله إلى طُوس[1] مباشرة ، ليستمد القوَّة من طريق الصَّلاة على ضريح أبيه الرَّشيد » .

ليس من عيب في المأمون ، ولا في غيره ، إذا أراد أن يستمد القوَّة من الله بصلاة وعبادة ، أكانت تلك الصَّلاة قرب ضريح أبيه ، أو لم تكن ، وفي تاريخ الشَّرق والغرب أمثلة كثيرة ، وشواهد عديدة لقادة وحكام حاولوا أن يستمدوا العون والقوَّة من الله ، ووجَّهوا جنودهم ورعيَّتهم إلى ذلك مما يزيد في رفع معنوياتهم ، وطاقاتهم الرُّوحيَّة .

لكن العيب كل العيب أن ينحدر مؤرخ صاحب شهرة ، وكاتب « كبير » إلى هذا الدَّرْكِ من الأُسلوب البعيد عن أخلاق العلماء ، ليغمز من جانب خليفة أجمعت الدُّنيا على مكانته ، وخصوصاً في مجال العلم وتقدير العلماء ، مما أدّى بذلك إلى تقدُّم الحضارة الإنسانيَّة .

لقد استمد المأمون ـ الخليفة العالم ـ القوة بعد الله عزَّ وجلَّ من العِلْم ، وأَسَّس

---

(١) طوس : مدينة بالقرب من مدينة نيسابور ، وفي مروج الذهب للمسعودي ٣٤٧/٣ : « ومات ـ الرَّشيد ـ بطوس بقرية يقال لها سناباذ يوم السَّبت لأربع ليالٍ خَلَوْنَ من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومئة » .

وفي البداية والنهاية ٢٢١/١٠ ، والنجوم الزاهرة ١٢٢/٢ قال الرشيد عند احتضاره :

إني بطوس مقيم ... مالي بطوس حميمُ
أرجو إلهي لما بي ... فإنَّه بي رحيمُ
لقد أتى بي طوساً ... قضاؤه المحتومُ
وليس إلاَّ رضائي ... والصَّبْرُ والتَّسليمُ

وفي معجم البلدان ٤٩/٤ تحت كلمة (طوس) : « وفي بعض بساتينها قبر علي بن موسى الرضا ، وقبر الرَّشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل عظيم محكم البنيان لم أرَ مثله علوَّ جدران وإحكام بنيان » .

بنيان دولته على صرحٍ من العلم سامقٍ ، وأعطى دروساً في التاريخ لكل حاقد ومتعصّب بما كان يقوم به من جمع العلماء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ومشاربهم .. ليكون بينهم الحوار والنّقاش لبناتٍ في بناء « المنهج العلمي في البحث » ..

ومع ذلك .. يهزأ بروكلمان « الموضوعي ـ العميق ـ المتّصف بالشمول والجِدَّة » بالمأمون .

☆ ☆ ☆

« والواقع أن الجهود الرُّوحيَّة انصرفت ، أكثر ما انصرفت خلال القرنين الأَولين للإسلام ، إلى محاولة التَّوفيق مابين الْمُثُل اللاَّهوتيَّة القائمة على أساس القرآن والسُّنَّة من ناحية ، والحقيقة من ناحية ثانية » ، ص ٢٠٤ .

ليت كاتبنا ومؤرخنا « الكبير » أوضح عمّا يقصد إليه في كلامه هذا بأمثلة ، فكيف بذلت الجهود الرُّوحيَّة للتَّوفيق بين الْمُثُل اللاَّهوتيَّة الإسلاميَّة ، وبين الحقيقة ؟.

فهل وجد صاحبنا « الموضوعي » فروقاً واسعة ، وهوَّة كبيرة بين مثل الإسلام والحقيقة ؟.

الإسلام ـ ولا أعتقد أن بروكلمان يجهل ذلك ـ يتَّفق مع الفطرة الإنسانيَّة ، فهو كما عرفه الجميع ، دين الفطرة ، لأنَّ مُثُلَه وتعاليمه ـ خلاف معظم العقائد الأُخرى ـ متَّفقة مع حقائق العلم ، ومع موجودات الكون وقوانينه ، ولقد درسنا التَّاريخ العربي الإسلامي ، فما رأينا جهوداً تبذل إلاَّ لإعادة الإنسان إلى فطرته ، وإلى أن يعي حقيقة نفسه ووجوده .

وليت مؤرخنا ـ المتَّصف بالعمق والشُّمول والجدَّة ـ ما زال حيّاً ، ليقرأ ما كتبه

ويكتبه بعض المنصفين من علماء الغرب ، الّذين أزاحوا عن عيونهم غشاوة التّعصب والحقد ، وأبدلوا بها نور العلم والحقيقة والواقع ، لقد كتب هؤلاء عن اتفاق الإسلام في قرآنه الكريم مع العلم في نواميسه الّتي أثبتها العلم الحديث ، فما هي الحقيقة الّتي بذل الأوائل جهوداً في محاولة التوفيق معها ، إنه الدّس والتّشكيك .

إنّ مثل هذه المحاولات للتوفيق جرت وما تزال تجري في عالم آخر ، ومع أصحاب عقائد أُخرى ، وجدوا البون شاسعاً بين عقائدهم ، وبين الحقيقة والواقع والعلم .

☆ ☆ ☆

وفي الصفحة ٣٥٧ ، يقول « العلاّمة » بروكلمان ، بعد عودة القدس إلى المسلمين « هدم صلاح الدين جميع أماكن العبادة النّصرانيّة في هذه البقعة المقدسة ، وفي غير ما إبطاء ، سعى إلى أن يقضي على آخر آثار الحكم الصّليبي في المشرق .. » .

هذا الكلام الّذي لا يقبله عقل ، ولا منطق ، ويرفضه كل من عرف تاريخ صلاح الدين وأمثاله من قادة الإسلام الّذين تمثّلت فيهم مثل الإسلام وقيمه ، وتمسّكوا بتعاليمه وشرائعه .

« وهدم أماكن العبادة » كلام ينسجم مع الأُسلوب المتّبع من قبل المتعصّبين ضد الإسلام والحاقدين عليه ، وهو إلصاق التّهم التي عُرِف بها الأُوربيُّون الصّليبيُّون بالمسلمين ، ليأخذوا سبيل الهجوم ، وليقف المسلمون موقف الدّفاع عن أنفسهم وعقيدتهم .

ولو استعرضنا التّاريخ الوسيط والحديث ، لوجدنا أن « هدم المعابد » كان صفة ملازمة لحملات أُوربة في شتى أنحاء العالم .

ماذا فعل الإسبان ـ على الرُّغم من عهودهم الموقعة ، ومواثيقهم القاطعة ـ في مساجد المسلمين ؟.

وأين هي مساجد المسلمين ؟ بل وأين المسلمون من أبناء البلاد ؟

تجيبنا محاكم التَّفتيش ، الَّتي شكِّلت في إسبانية بمرسوم بابوي في تشرين الثاني « نوفمبر » سنة ١٤٧٨ م ، والَّتي هدفت إلى إبادة المسلمين ومساجدهم ـ وكل أثر لهم ـ في الأندلس .

لقد بدأت بمصرع غَرْناطة مرحلةٌ مؤلمة مؤسفة لشعب مغلوب ، على يد عدوٍّ خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً ، فهدموا مساجد المسلمين ، ومنعوهم من النطق بالعربيَّة ، ثم فرضوا عليهم الجلاء ، فمات من مات خلال الإجلاء إلى العدوة المغربيَّة ، وحُرِّق من بقي منهم ، وزاد الكردينال « كمينس » على ذلك ، فأمر بجمع كلِّ ما يستطاع جمعه من الكتب العربيَّة ، ونُظِّمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة ، وفيها علوم لا تقدَّر بثمن ، بل هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإنساني ، وأحرقها ، يقول غوستاف لوبون : « ظنَّ رئيس الأساقفة الإسباني كمينس أنَّه بحرقه مؤخراً ما قدر على جمعه من كتب أعداء دينه العرب ـ أي ثمانين ألف كتاب ـ محا ذكرهم من صفحات التَّاريخ إلى الأبد ، وما درى أن ما تركه العرب من الآثار الَّتي تملأ بلاد إسبانية يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد » .

وماذا فعل الصَّليبيُّون في بلاد الشَّرق ؟.

أنسي بروكلمان الصُّورتين المتلازمتين في تاريخ البشريَّة ؟.

صورة بيت المقدس حين استولى عليه الصَّليبيُّون في أواخر القرن الحادي عشر ، وصورته حين استعاده أهله في أواخر القرن الثَّاني عشر .

ففي الصُّورة الأُولى نجد الصَّليبيين يخرِّبون ويدمِّرون ويقتلون سكان المدينة ويذبحونهم تذبيحاً ، حتى ليعترف بعضهم أنَّهم وصلوا إلى مسجد المدينة في بحر من الدِّماء بلغ ركبتيه .

وفي الصُّورة الثَّانية نجد صلاح الدين يحمي الأرواح ، ويبجِّل رجال

الدِّين ، ويكرم الحرائر من النِّساء ، ويصون المباني المقدَّسة ، بل يرمُّها ويأمر بإصلاحها .

في الصُّورة الأُولى وحشيَّة هؤلاء الصَّليبيِّين وقسوتهم وهمجيتهم .

وفي الصُّورة الثَّانية سماحة الإسلام ونبله وكرمه .

يقول المؤرخ الإنجليزي المعاصر ، وهو من مؤرخي الحروب الصَّليبيَّة ، رانسمان Runciman في كتابه « تاريخ الحروب الصَّليبيَّة » ، عند كلامه عن رجوع بيت المقدس وموقف صلاح الدِّين وجيشه من سكان المدينة :

« كان المنتصرون معقولين وإنسانيين ، فعلى حين نجد الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاماً يخوضون في دماء ضحاياهم ، لا نجد في هذه المرَّة بناء نُهِبَ ، ولا إنساناً أصابه أذى ، ونرى الحرَّاس تنفيذاً لأوامر صلاح الدِّين منبثِّين لحراسة الطُّرق والأبواب ، وحماية المسيحيين من أي اعتداء قد يصيبهم » .

ورغم كل هذا ، يقول المؤرِّخ « الموضوعي ، العميق ، صاحب الشُّمول والجِدَّة » : « وهدم صلاح الدِّين جميع أماكن العبادة النَّصرانيَّة في هذه البقعة المقدَّسة ، وفي غير ما إبطاء ، سعى إلى أن يقضي على آخر آثار الحكم الصَّليبي في المشرق » ؟!

مَنْ حمى الأرواح ، وبجَّل رجال الدِّين المسيحي ، وكرَّم الحرائر من النِّساء ، وصان المباني المقدسة ، ورمَّها وأمر بإصلاحها ، وبثَّ الحراس لحماية المسيحيين من أي اعتداء ، وحراسة الطُّرق والأبواب .. هذا عدو الحضارة ، « هدم جميع أماكن العبادة النَّصرانيَّة في هذه البقعة المقدَّسة .. » ؟!!

إذن ماشأن الذين ذبحوا أهالي قيسارية داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرِّقوا بين الرِّجال المدنيين والنساء والأطفال ، حتى تحوَّل الجامع إلى بركة كبيرة

من دماء قتلى المسلمين[١] ؟

وما شأن الذين ذبحوا في مسجد عمر وحده في القدس عشرة آلاف مسلم[٢] ، وأحرقوا عشرات المساجد .

وما شأن الذين نبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا عَلِيُّكم ، وأخذوا مصحفاً من المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا : يامسلم أبصر كتابكم[٣] ؟!

وما شأن الرُّهبان الذين وضعوا زجاجات الخمر على الصَّخرة المشرَّفة ، وضربوا الناقوس داخل المسجد الأقصى بعد إبطال الأذان فيه[٤] ؟!

وما شأن الحملات التي وُصِفَت بكلمتين اثنتين فقط : « بربريَّة همجيَّة »[٥] ؟

البحث يطول عن هذه الصفحة السَّوداء في تاريخ أوربة كلِّها ، والَّتي تابعتها تسطيراً في حملات التبشير في العصر الحديث ، فالتبشير مسؤول عن الاستعمار الحديث بكل جرائمه وويلاته .

وهكذا .. لقد كان بروكلمان يأمل أن يكون مبشِّراً دينيًّا ، فلم يفته التبشير ، وحقَّق بدسِّه وافتراءاته ومغالطاته ماأراده التبشير منه .

ولكن .. ياضياع وقت من بحث في التَّاريخ الإسلامي ولم يستند أو يتكئ

---

(١) الحركة الصَّليبيَّة ٢٩٤/١

(٢) حضارة العرب ٣٢٦

(٣) الحركة الصليبية ٥٢٤/١ ، عن ابن العديم زبدة الحلب ص ٦٤٥ ، ونُقِل النَّصُّ حرفياً كما هو .

(٤) الحركة الصليبية عن : « العيني » عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤١ هـ .

(٥) الحركة الصليبية عن : Eyre: op. cit pp. 197-8

على بروكلمان ومصنّفاته ، وكيف لا والحقائق عنده تقول : « وهدم صلاح الدين جميع أماكن العبادة النّصرانيّة في هذه البقعة المقدّسة ، وفي غير ما إبطاء ، سعى إلى أن يقضي على آخر آثار الحكم الصّليبي في المشرق .. »؟!

إنّ معابد القدس وكنائسها خاصّة ، مازالت حتّى يومنا هذا قائمة تشهد بفضل حماية صلاح الدّين ورعايته لها ولأتباعها ، وصلاح الدّين سعى إلى تطهير الأرض من الغزاة الصّليبيين الّذين استباحوا الحرمات ، وقتلوا الأبرياء ، وارتكبوا ما لا ترتكب مثله الوحوش الكاسرة ، وعرف صلاح الدين بدقّة كيف يفرّق بين الصّليبيين وآثارهم العدوانيّة من جهة ، وبين النّصارى من أبناء البلاد والمعابد الّتي أُقيمت ليعبد الله فيها، وكنّا نتمنى أن يكون بروكلمان بين الأسرى في مدينة القدس ، حين حرّرها صلاح الدين ، ليصف لنا بحق كيف كانت معاملة ذلك القائد الفذ ، والبطل العادل لأسراه المجرمين من جنود الغزو الصّليبي لهذه البلاد .

☆ ☆ ☆

وفي ص ١٤٨ ، يقول بروكلمان : « لم يكن لهذه الغزوات ـ على القسطنطينية(١) ـ من نتيجة غير إغراق سوق الرّقيق بأسرى الحرب من الرّوم (اليونانيين) ، ولقد اتّفق مرّة أن كان سليمان ـ بن عبد الملك ـ في المدينة ، في طريق عودته من الحج ، فوهب أربع مئة من الرّوم لبعض المقرّبين إليه هناك ، فأعملوا السّيف في رقابهم ، على ما نجد في قصيدة لجرير ، وكان من الّذين شاركوا في هذا الصّنيع » .

لا أدري من أي مصدر يستقي بروكلمان رواياته ؟!

(١) لقد فكر المسلمون منذ فتحوا الشام وحرّروها بعد انتصار اليرموك ، في فتح القسطنطينية ، وهذا أمر بدهي لكل ذي عقل ، فالقسطنطينية كانت آنذاك عاصمة النّصرانيّة ، وبفتحها تغلُّب على شرقي أوربة وأواسطها .

ولا أدري كيف كان بروكلمان يتقبَّل روايات دون تمحيص ونقد ؟!

فمن أين أتى هذا « الموضوعي العميق » بهذه الرِّواية ؟

وهل كل سليمان بن عبد الملك ، وهو يؤدِّي فريضة الحج يرافقه هذا العدد الكبير من أُسرى الرُّوم ؟ ولماذا يأخذ هذا الجيش من الأسرى معه ؟ ولم يفسِّر لنا بروكلمان لِمَ قتل المقرَّبون هؤلاء الأسرى ولم يستفيدوا منهم ، وهو القائل : « لم يكن لهذه الغزوات من نتيجة غير إغراق سوق الرقيق بأسرى الحرب من الرُّوم » ، فهل محاصرات العرب المسلمين للقسطنطينيَّة ، هدفها جلب الأسرى والرقيق لذبحهم ؟ ما الفائدة من ذلك ؟

إنَّ أخبار سليمان بن عبد الملك ملأت الكتب ، فما سمعنا أنَّه فعل ذلك ، وسمعنا عنه أنَّه ولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ ، فلم يتخلَّف عن مبايعته أحد ، فأطلق الأسرى ، وأخلى السُّجون ، وعفا عن المجرمين ، وأحسن إلى النَّاس ، وكان عاقلاً فصيحاً طموحاً إلى الفتح ، جهَّز جيشاً كبيراً وسيَّره بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية ، واستمر الحصار سنة ، كان ابتداؤه في ٢٥ آب (أغسطس) ٧١٦ م ، وانسحب مسلمة بعد أن تعهَّد إمبراطور الرُّوم ببناء بيت لأسرى العرب المسلمين بجوار قصر الإمبراطور ، وكذلك كان مسلمة هو الباني لأوَّل جامع في القسطنطينية ـ كما يذكر المقدسي وابن الأثير ـ .

هذا هو سليمان ، فهل يعقل ـ وهو المتَّصف برجاحة العقل ـ أن يعمل أو يسمح بإعمال السَّيف في رقاب الأسرى ، وللعرب المسلمين أسرى عند الروم ؟

فما الهدف إذن من هذه الأسطورة الَّتي أوردها المؤرخ الكبير بروكلمان ؟

أولاً .. بدل ربط طريق العودة من الحج بصور الرَّحمة ، والإنسانيَّة ، والرَّأفة ، والرَّوحانيَّة الصَّافية .. ربط بروكلمان طريق العودة من الحج بصور الوحشيَّة ، والذبح ، والدِّماء ، وقتل الأبرياء ..

الدَّس ، والإساءة ، وتشويه تاريخنا ، والطعن بأعلامنا ، وبالتالي الافتراء على إسلامنا والاجتراء عليه ، هدف بروكلمان ثانياً .

ويا ضياع وقت من بحث في تاريخنا العربي الإسلامي ، ولم يستفد ، أو يتّكئ على بروكلمان في مصنّفاته .

☆ ☆ ☆

« وبسقوط الأُمويين خسر العرب عموماً لاالسُّوريُّون وحدهم ، السِّيادة المطلقة في الإسلام .. ومن هنا احتفظت العربيَّة ، في الإمبراطوريَّة الجديدة ، بسلطانها المطلق في المعاملات الرَّسميَّة ، وفي مجمل الحياة الفكرية ، وفي الدِّين فوق كل شيء » ، ص : ١٧١ .

هذه الفكرة اقتبسها بروكلمان من يوليوس فلهاوزن ، وكتابه : « الإمبراطوريَّة العربيَّة وسقوطها » ، والذي ترجمه د. محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ضمن مشروع الألف كتاب سنة ١٩٥٨ م ، وجعله تحت عنوان : تاريخ الدَّولة العربيَّة من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأُموية[١] .

يقول د. أبو ريدة معلّقاً على هذه الفكرة : « وسقطت دولة بني أُميَّة الَّتي كانت تعتمد على العرب والعروبة ، وقامت دولة بني العباس الَّتي اعتمدت على الأعاجم من الفرس وغيرهم ، على أساس مبدأ المساواة الإسلامي ، ويرى المؤلف - فلهاوزن - بناء على هذا ، أنَّ دولة العرب بإطلاق المعنى قد سقطت وانتهت بانتهاء حكم بني أُميَّة ، وهو لذلك عنون كتابه هذا : « الإمبراطوريَّة العربيَّة وسقوطها » . ومعنى هذا أنَّ دولة بني العباس ليست دولة عربيَّة ، بل إسلاميَّة فحسب ، لكن في هذا تساهلاً كبيراً ، لأنَّ العباسيِّين كانوا عرباً ، ولأن الأُمويين كانوا مسلمين .. » .

---

(١) ومرَّ التعريف بيوليوس فلهاوزن ، ص : ١٨

فبروكلمان يقتبس من فلهاوزن أحكاماً مطلقة ، دون تمحيص ، أو تقييد ، أو مراجعة ، فيقول : إن العرب خسروا السِّيادة المطلقة في الإسلام بسقوط الأمويين .

أوليس من أبرز مظاهر السِّيادة الحُكَّام أنفسهم ؟

ألم يكن خلفاء بني العباس من العرب الأَقحاح ؟

ألا يكفي وجود بني العباس على رأس الحكم لتكون للعرب سيادة في دولة الإسلام ، في فترة القوة على الأَقل ؟

أَلم يقضِ بعض هؤلاء الخلفاء على ما رأوه خطراً ومؤامرات من عناصر غير عربيَّة ، كما هي الحال في مقتل وزيرهم أبي سلمة الخلاَّل ، ثمَّ في نكبتهم للبرامكة ؟!

وما احتفاظ العربيَّة بسلطانها المطلق في المعاملات الرَّسميَّة ، ومجمل الحياتين الفكرية والدِّينيَّة ، إلا دليل على أَنَّه بقي للعرب دورهم الأوَّل في الدَّولة العباسيَّة .

☆ ☆ ☆

وفي حديث بروكلمان عن المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين ، وملوك الطَّوائف في الأندلس ، ص ٣٠٨ ، يقول : « والواقع أنَّه دفع ـ المعتمد بن عبَّاد ـ وزملاءه ثمن هذه المساعدة غالياً ، فما أن نزلت الهزيمة بالعدو حتَّى فقدوا عروشهم جميعاً ، واحداً بعد واحد ، أما المعتمد فاقتيد إلى إفريقية حيث مات في سجن أَغمات مَرَّاكُش سنة ١٠٩٥ » .

عبارات خاطئة ظالمة ، وصوابها ما يلي :

أثخن النَّصارى الإسبان في ولاية سرقسطة ، ولم يردَّهم في حربهم أيُّ اعتبار إنساني ، مادام الأمر متعلقاً « بأعداء الدين » ، فاجتمع المعتَمِد بن عَبَّاد مع عدد

من الأمراء في إشبيلية ، ثمَّ في قرطبة ، واتَّفقوا أن يرسلوا سفيراً إلى يوسف بن تاشفين ، يلتمسون عونه وغوثه ، فحمل السَّفير رسالة وقَّع عليها ثلاثة عشر من الأمراء ، يطلبون معونة ابن تاشفين وغوثه .

كما أمَّت مدينة مَرَّاكُش وفود شعبيَّة كبيرة[1] ، بزعامة بعض الفقهاء ، تستنجد بأمير المرابطين ، الَّذي كانت سياسته ترمي إلى المحافظة على الوحدة الإسلاميَّة ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأراضي الإسلاميَّة في إسبانية .

عقد ابن تاشفين مجلسه الاستشاري لتداول الأمر ، « فكيف ستكون الحرب في جزيرة وعرة البسائط ، تعترضها جبال صعبة المسالك ؟ »[2] ، وذُلِّلت الصِّعاب باتخاذ الجزيرة الخضراء نقطة ارتباط بين المغرب والأندلس .

وقبل ابن تاشفين الدَّعوة لنجدة الإسلام في إسبانية ، وفي ربيع الأوَّل ٤٧٩ هـ / آب (أُغسطس) ١٠٨٦ م ، عبر بجيشه من سبتة إلى الجزيرة الخضراء ، ومنها انطلق إلى سهل الزَّلاقة[3] ، بعد أن أعدَّ مع أُمراء الطوائف خطَّة المعركة الفاصلة ضد ألفونسو السَّادس ، وكان اللِّقاء يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٨٦ م ، حيث حقَّق ابن تاشفين ومن معه نصراً رائعاً ، ذاع خبره في جميع الأقطار ، فانتصار « الزَّلاَّقة » العظيم ، انتصار حققه المرابطون بأسباب وجدارة ، فسَجَّل في تاريخ الإسلام فخراً لا يقدَّر بثمن .

وعفَّ ابن تاشفين وجنده المرابطون عن الغنائم ، يقول ابن خلكان عن الغنائم : « فلمَّا حصلت عفَّ عنها يوسف بن تاشفين ، وآثر بها ملوك الطوائف ،

---

(١) الاستقصا ٣٦/٢ ، الحلل الموشية ٣٠ ، الحلل السُّندسيَّة ٤٧

(٢) انظر : الزلاقة بقيادة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين .

(٣) الزَّلاَّقة : جنوب غربي الأندلس ، شمالي وادي آنة ، ما بين بَطْليوس وماردة .

وعرَّفهم أن مقصوده إنَّما كان الغزو ـ أي الجهاد ـ لا الغنائم »[1] ، لقد عاد إلى مراكش بعد أن أعاد الثِّقة إلى المسلمين جميعاً .

وحشد ألفونسو السَّادس جيشاً جديداً ، جاءت إمداداته من فرنسة وألمانية ، لقد دفعت الرُّوح الصَّليبيَّة أفواج المتطوِّعين من جميع أنحاء أُوربة إلى إسبانية ، فأدرك ابن تاشفين خطورة الموقف ، فعبر ثانية إلى الأندلس في ربيع الأوَّل ٤٨١ هـ / حزيران (يونية) ١٠٨٨ م بجيش ضخم ، فوجد بعض ملوك الطوائف[2] متحالفاً مع الإسبان ، وبعد معارك عديدة مع الإسبان ، عاد ابن تاشفين إلى مَرّاكش ، تاركاً في الأندلس حامية من جنده .

لقد حاول بعض أمراء الأندلس توطيد سلطانهم على حساب الإسلام وأهله ، فعاد ابن تاشفين للمرَّة الثالثة ، بطلب من القضاة والفقهاء الأندلسيين ، حتَّى الخليفة العبَّاسي في بغداد ، أذن لابن تاشفين بالإيقاع بأُمراء الطوائف ، والواقع يقول : إن ابن تاشفين لم يطمع في الأندلس ، وتردَّد كثيراً قبل العبور الأول ، وعف عن الغنائم بعد الزَّلاَّقة ، ثمَّ يعود في العبور الثَّاني للخطر الجاثم ، وبسبب الخلافات ما بين أمراء الطوائف أنفسهم ، وتحالف بعضهم مع أعدائهم ، وكان الجواز الثالث لوضع حد لمهزلة أمراء الطوائف ، فلقد آن ـ وباسم الإسلام ـ لهذه الدُّويلات الضَّعيفة المتناحرة ، المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي .

وهكذا .. فتح المرابطون ولايات الأندلس كلَّها : غَرْناطة ، ومالقة ، وجيان ، وقرطبة ، وإشبيلية ، والمرية .. وأصبحت إسبانية المسلمة كلُّها بيد المرابطين سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، باستثناء ولاية سرقسطة ، حيث كان أبو جعفر أحمد بن هود « المستعين بالله » ، لموقفه المشرِّف المشهود في وجه الزَّحف النَّصراني .

---

(١) وفيات الأعيان ١١٧/٧

(٢) كعبد العزيز بن رشيق ، أحد ولاة إشبيلية .

صحيح أن المرابطين ضمُّوا بعد العبور الثالث الأندلس ، ولكن لماذا ؟ لفشل أمراء الطوائف الهُزْل في حماية الأندلس من الأخطار الخارجيَّة .

ولما انتهى ابن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس ، عاد إلى إفريقية ، حيث توفي ـ رحمه الله ـ يوم الاثنين ٣ المحرَّم ٥٠٠ هـ / أيلول (سبتمبر) ١١٠٦ م .

إذن .. لم يفقد أمراء الطوائف عروشهم جميعاً واحداً بعد واحد بعد الزَّلاَّقة مباشرة ، لقد فقدوها فعلاً منذ وجود الخطر الدَّاهم ، وبقائهم على أثرتهم وأنانيتهم ، متفرِّقين وقلوبهم شتَّى ، متناحرين ، لا يهمهم إلا ذاتهم ، وعدوُّهم وحَّد صفَّه ، لذلك .. فإنَّ جمهرة المسلمين في العالم الإسلامي كلِّه ، راق لها سقوطهم ، ولم تَرَ في يوسف بن تاشفين غازياً متغلِّباً قاهراً ، بل لقد رأت فيه منقذاً بحق ، واعتبرته بصدق يد العناية الإلهية لمعاقبة الأمراء الباغين العابثين اللاَّهين عن الجهاد بملاذهم وترفهم وفرقتهم ..

« أمَّا المعتمد ، فاقتيد إلى إفريقية حيث مات في سجن أغمات مراكش سنة ١٠٩٥ م » .

المعتمد لم يسجن ولم يعذَّب في رأينا ، بل كانت له إقامة جبريَّة ، بدليل أن زوجه كانت معه دائماً ، وورد أنَّ بناته اشتغلن بالغزل لكي يعلن والدهن ، فلو كان سجيناً لما كانت زوجه معه ، ولما احتاج لإعالة بناته وشغلهن بالغزل .

فلماذا هذا الدس من بروكلمان في حديثه عن المرابطين وأميرهم العظيم يوسف بن تاشفين ؟!

إنَّ ابن تاشفين علم من أعلام المسلمين الكبار ، فانتصار الزَّلاَّقة ، انتصار سجل في تاريخ الإسلام فخراً لا يقدَّر بثمن ، أمدَّ بقاء العرب المسلمين أربعة قرون في الأندلس ، فساء ذلك بروكلمان « الموضوعي » ، بعد أن أحاط بالموضوع ، وألَمَّ به من جميع جوانبه !!

افتراءات بروكلمان

على تاريخنا الحديث

وفي حديث بروكلمان عن ابن حزم [أبي محمَّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم : ٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ = ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م] : يقول : « ومع أنَّه كان في أوَّل أمره من الشَّافعيَّة الَّذين حظوا في قرطبة بتأييد عبد الرحمن الثَّالث كسد في وجه فقهاء المالكيَّة ، فقد انقلب الآن إلى صعيد الظَّاهريَّة الرَّافعين لواء الإسلام ، كما كان عليه منذ نشأته الأُولى » ، ص ٣١٣ .

وهنا نتساءَل سؤالين اثنين :

هل الشَّافعيَّة من « الباطنيَّة » كي ينقلب ابن حزم إلى الظَّاهريَّة ؟
وهل الشَّافعيَّة لا ترفع لواء الإسلام ، كما كان عليه منذ نشأته الأُولى ؟

☆ ☆ ☆

وقال بروكلمان في ص ٣١٦ : « والواقع أنَّ جميع الأَديان العالميَّة قد اضطرت إلى أن تتساهل مع معتقدات معتنقيها الجدد السَّابقة ، ففي مصر والشَّام نفسيهما ، حيث كانت النَّصرانيَّة قد مهَّدت السَّبيل للإسلام » .

ونتساءل هنا أيضاً سؤالين اثنين :

كيف تساهلت اليهوديَّة مثلاً مع النصرانية ؟
وكيف مهد تثليث النَّصرانيَّة السَّبيل إلى التَّوحيد المطلق في الإسلام ؟

☆ ☆ ☆

وفي ص ٤٤١ ، يقول بروكلمان بحقد وصليبيّة واضحة : « والحقُّ أنَّ السُّلطان محمد - الفاتح - ليمثِّل أصدق تمثيل العثماني القديم ، بجميع فضائله ونقائصه ، ذلك بأنَّ همته الجبارة ، وسعيه الدَّائب في سبيل أهداف جديدة ، اقترنا بوحشيَّة عَدَت قسوة عصره نفسه ، بمراحل عديدة ، وإنَّه ليتحتَّم علينا أن نعود القهقرى إلى عهد الملوك الآشوريين الكبار ، لنقع على ما يوازي معاملة لأسرى الحرب ، هذه المعاملة الَّتي كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على قطع الجسد نصفين بواسطة المنشار .. » .

محمد الفاتح ، قائد عسكري ، وحاكم لدولة تعتبر في مقدِّمة الدُّول قوة واتِّساعاً آنذاك ، فماذا يتطلَّب بروكلمان في هذا السُّلطان من مواصفات حين قال إنَّه يمثِّل العثماني القديم ؟ وماهي الوحشيَّة الَّتي عناها بروكلمان ؟.

هل هي في قصفه أسوار القسطنطينيَّة بالمدافع الضَّخمة ؟.

وهل كان يرى أن يقصفها بحبات رملٍ ، أو بحصىً ، أو بكراتٍ من القطن ؟

إنَّه قائد يحاصر عاصمة الرُّوم الَّتي امتنعت عن الكثيرين من القادة قبله ، ومع ذلك ، عندما تمَّ فتح المدينة دخلها محمد الفاتح ، ليصدر أوامره فوراً بمنع كل اعتداء ، فساد الأمن حالاً ، وأعلن في كافة الجهات بأنَّه لا يعارض مطلقاً في إقامة شعائر ديانة المسيحيين ، بل ضمن لهم حريَّة دينهم ، وحفظ أملاكهم ، فرجع من هاجر من المسيحيين ، وأعطاهم نصف الكنائس ، ثمَّ جمع أئمة دينهم لينتخبوا بَطْريقاً لهم ، فاختاروا جورج سكولاريوس ، واعتمد السُّلطان هذا الانتخاب ، وجعله رئيساً للكنيسة الشَّرقيَّة ، واحتفل بتثبيته بنفس الأُبَّهة والنِّظام الَّذي كان يعمل للبطارقة في أيَّام ملوك الرُّوم المسيحيين ، وأعطاه حرساً من عساكر الانكشارية ، ومنحه حقَّ الحكم في القضايا المدنيَّة والجنائيَّة

بكافة أنواعها المختصَّة بطائفته ، وعيَّن معه في ذلك مجلساً مشكَّلاً من أكبر موظَّفي الكنيسة ، وأُعطي هذا الحقَّ في الولايات للمطارنة والقسس ..

هذا ما عمله السُّلطـان محمد الفـاتح بعد دخولـه القسطنطينيـة ، أمـا قطع الأجساد بالمناشير ، فهذا ما سمعناه إلا عند بروكلمان .

وما وجه الشَّبه بين محمَّد الفاتح وبين الآشوريين ؟

لقد بالغ الآشوريون في الوحشيَّة والعنف ، وأسرفوا في إتلاف الحياة البشريَّة بصورة مؤلمة ، لقد دمَّروا المـدن المغلوبـة تمـاماً ، وحُرِّقت عن آخرهـا ، وقُطِّعت أشجارها ، وكوفئ الجندي الآشوري بعدد الرُّؤوس الَّتي قتلهـا وقطعهـا ، وهكـذا كان مصير سكان المدن المغلوبـة الإبـادة ، أمـا الأشراف والحكام المغلوبون ، فكانوا يلقـون معـاملـة خـاصَّـة ، حيث تصلم آذانهم ، وتجـدع أُنـوفهم ، وتقطـع أيـديهم وأرجلهم ، أو تسلخ جلودهم وهم أحيـاء ، أو تشوى أجسـادهم فوق نـار هـادئـة .. وهكـذا تـأسَّست إمبراطـوريتهم الآشـوريَّـة على الجمـاجم ، وركام المـدن ، وأنين الجرحى ، وآلام الثَّكالى .

فمـا وجـه الشبـه بين فتـح القسطنطينيَّـة ، وبين عهـد الملـوك الآشـوريين الكبار ؟!

وهلاَّ شبَّـه بروكلمـان نـابليون بونـابرت بـالآشوريين ، حين أقـدم على قتل أسرى مدينة يـافـا المسلمين ، وعـددهم حوالي أربعـة آلاف أسير ؟ أمْ أنَّ الوحشيَّـة لا تكون إلاَّ إذا كان الفاتح مسلماً ، والأسير المغلوب غير مسلم ؟!؟.

☆ ☆ ☆

وفي ص ٤٥٣ وصف بروكلمـان خير الـدين بربروسَّـا بقـولـه : « قرصـان يوناني » .

وفي ص ٤٧١ يقول : « وكانت سفن القرصان في شاطئ إفريقيَّة الشَّماليَّة تؤلِّف ابتداءاً من عهد بربروسا جزءاً هامّاً جدّاً من الأُسطول العثماني ، فقد كان هؤلاء القرصان يلتحقون بأُسطول الدَّولة زرافات زرافات كلَّما أزمع السُّلطان خوض غمار الحرب البحريَّة لينزلوا في حماية هذا الأُسطول أعظم الأذى بتجارة النَّصارى » .

وفي ص ٦٢٠ تكلم بروكلمان عن « أعمال القرصنة » أيضاً .

وقبل الرَّدِّ على هذه العبارات الحاقدة ، نتساءل من خير الدين بربروسَّا ؟

أولاً أصله من الأناضول ، ولم يكن يونانياً في يوم من الأيام ، هاجر أبوه من الأناضول ونزل في متلين (مديللي) Metellin حيث ولد له أربعة أولاد منهم خير الدين ، وذلك سنة ٨٨٨ هـ = ١٤٨٣ م[١] .

عمل خير الدين وأخوه عروج في البحر ، فتمكَّن من مواجهة الأخطار الَّتي هدَّدت سواحل الجزائر ، وأفلح في إخراج النَّصارى الإسبان منها سنة ١٥١٩ م ، فانزعج الإسبان لهذه الانتصارات المتلاحقة الَّتي أحرزها خير الدين ، فأرادوا الاستيلاء على بعض المواقع ليتخذوا منها مهبطاً لهم على الشاطئ الجزائري ، ولكن الحملة المرسلة باءت بالخيبة .

ولبطولات خير الدين التي ظهرت في صد هجمات الإسبان على الشواطئ العربية في الشمال الإفريقي أصبح أمير البحر « قبودان باشا » ، فانصرف لتنظيم الأُسطول التركي ، وكان له شخصياً نصيب فعال في المعارك المظفَّرة الَّتي خاضها هذا الأُسطول .

---

(١) انظر موسوعة القرن العشرين ٧٩٨/٣ لفريد وجدي ، ودائرة المعارف الإسلاميَّة ٦٤/٩ على مافيها من دس ، حيث بدأت بعبارة : « خير الدين بربروسه ، القرصان التركي المشهور » .

وأراد شارل الخامس ملك إسبانيـة أن يستميل إليـه بربروسًّا ، فعرض عليـه سرّاً أن يعترف به صـاحب السُّلطـان على شمالي إفريقيـة كلـه ، نظير دفع جزيـة بسيطة قليلة ، وتظاهر بربروسًّا بـالقبول ، ولكنـه كشف عن ذلـك من فوره إلى السُّلطان .

أرسله السُّلطان العثماني لمحاربة أساطيل إيطالية وإسبانيـة لغـاراتهم المتكرِّرة على السُّفن والشواطئ العثمانية ، ولما اتَّحدت سفن إسبانية وإيطـاليـة والبنـدقيـة تحت قيـادة الأميرال الجنوبي أنـدريـا دوريـا Andoreas Doria التقـوا بـأسطـول خير الدين ، وكان تحت قيادة علي جلبي ، فحمل عليهم وحملهم خسائر فـادحـة ، وجرح الأميراا ، أندريا دوريا .

ولمـا علم خير الـدين أنَّ أُسطـولاً دوليـاً كبيراً يحـاول غـزو شـواطئ الـدولـة العثمانية عداده ٢٢٠ سفينة ، وكان مع خير الدين ١٤٠ سفينة فقط ، لم تثنـه هـذه القِلَّـة من الهجـوم ، فـدارت الـدائرة على السُّفن الـدَّوليَّــة ، وهربت تحت جنـح الظلام ، فتعقَّبهم وغنم سفنهم .

وعندما استجارت فرنسـة بـالسلطـان سليمـان القـانوني ضـد ملـك الإسبـان والألمان ، أرسل خيرَ الـدين ففتح للفرنسيين حصونـاً كثيرة ، ولمـا أقبل الشتـاء ، استقر بميـاه مينـاء طولـون الفرنسي ، ولكنـه لشـدَّة حـذره أبقى أُسطـولـه مهيّـأ للقتال ليلاً ونهاراً ، فخافه الفرنسيُّون ، فأعطوه مصـاريف سفره ، ورجوه العودة مزوَّداً بالشكر .

وممـا يـذكر أن خطـط هــذا البحــار المسلم العبقري العظيم ، ومنــاوراتــه البحريَّة ، استخدمها الأميرالات الإنجليز المشهورون واقتبسوهـا ، مثل : رودني ، وجرفس ، ونيسنن ، وولسون ..

توفي ـ رحمه الله ـ في سنة ١٥٤٦ م ، ودفن في المسجد الَّذي ابتنـاه في (بيوك

درة) بعد أن جعل البحر المتوسط كلَّه بحيرة عثمانيَّة ، لاسلطة لأيَّة دولة فيه ، وذلك في عهد السُّلطان سليمان القانوني ، في القرن العاشر الهجري ، السَّادس عشر الميلادي .

هذه نبذة عن حياة مجاهد مسلم كان يطمع إلى جمع شمال إفريقية كلِّه في دولة واحدة ، فردَّ الغزو الإسباني على الشواطئ العربية ، فهو المؤسِّس الحقيقي لولاية الجزائر .

ويذكر له نقل سبعين ألفاً من مسلمي الأندلس الَّذين طردهم الإسبان على سفنه ، ليوصلهم آمنين إلى شواطئ المغرب العربي .

وبعد هذا العرض .. عجيب منطق المتعصِّبين الَّذين أعماهم الحقد ، وأبعدهم التَّعصب عن الحقِّ والحقيقة ، وأوقعهم في المواقف المتناقضة ، متى كان خير الدين بربروسا قرصاناً يقطع الطرق البحريَّة على السُّفن الأُوربيَّة ؟ إنَّه منطق بروكلمان وأمثاله ، من أولئك الَّذين يجدون في مواقف خير الدين بدفاعه عن سواحل الشمال الإفريقي ضد الغزو الأُوربي عامة ، والإسباني خاصَّة لوناً من القرصنة ، فمتى كان الأبطال المدافعون عن حريَّة شعوبهم ، وكرامة بلادهم ، وحدود أوطانهم لصوصاً قراصنة ؟ إلاَّ في منطق الاستعماريين والمتعصِّبين ومن سار في طريقهم ، فقد رأى بروكلمان في البطل المجاهد « قرصاناً » ، وفي أعمال الغزو الأوربي لإفريقية لتجارة الرقيق ، ونهب الخيرات « تجارة » ، فيا له من منطق غريب عجيب .

لقد جابه خير الدين تحت لواء دولته العالمية ، أساطيل دول أُوربية أعلنت الحرب على دولته ، فهل يرى بروكلمان « الموضوعي » أن تترك هذه الأساطيل الأُوربيَّة تستعمر الشَّواطئ العربيَّة ، ليبعد « القرصنة » عن بطلنا المجاهد ؟!

☆ ☆ ☆

ومن عجائب ما خطَّه بروكلمان في كتابه ، قوله في ص ٤٨٢ : « ذلك أنَّ العلم لم يكن يعني عند المسلم اكتساب معرفة جديدة ، بل التَّمكن إلى أقصى حدٍّ مستطاع من المادّة الَّتي أنتجتها الأجيال السَّالفة » .

من أغرب الأُمور أن يُقْرأ أو يُسْمع مثل هذا القول من إنسان على شيء من العلم والثَّقافة ، فضلاً عن كونه عالماً ومؤرِّخاً ، والتَّاريخ ، والمنصف ، مسلم كان أو غير مسلم ، يشهد بتقدُّم العلوم المختلفة ، وفي مقدِّمتها العلوم التجريبيَّة ، كالطب ، والفيزياء ، وعلم الضوء ، والكيمياء ، والتشريح ، والنبات ، والرِّياضيات .. نعم تشهد الدُّنيا بتقدُّم هذه العلوم على أيدي علماء المسلمين تقدُّماً ندر مثيله في تقدُّمها على أيدي أبناء أُمَّة أُخرى في التَّاريخ ، فهل يعني هذا أنَّهم لم يكتسبوا معرفة جديدة ، وآلاف آلاف الكتب في هذه العلوم ماذا تعني عند بروكلمان ؟!

هل عمي بروكلمان أم تعامى عن :

معظم أسماء النجوم حتى يومنا هذا ، في اللغات الأوربية ، عربيَّة .

ابن رشد : شرح أرسطو ليبرز حجمه وآراءه الشَّخصيَّة ، فعندما ترجمت شروحه إلى اللُّغات الأُوربيَّة حلَّت عقال الفكر الأُوربي ، وفتحت أمامه باب البحث والمناقشة واسعاً على مصراعيه .

ألم ينتقد ابن سينا أفلاطون في النَّفس ، حيث اعتقد بالتَّقمُّص ، فعد ابن سينا ذلك بعيداً عن الحقيقة ؟

وابن النَّفيس ، ألم يكتشف الدَّورة الدَّمويَّة الصُّغرى قبل وليم هارفي بأربعة قرون ؟

والزهراوي ، ألم يكن أوَّل من وصف عمليَّة تفتيت الحصاة في المثانة ؟

وجابر بن حيان ، ألم يكن أوَّل من استخرج حامض الكبريت وسمّاه زيت الزَّاج ، وأوَّل من اكتشف الصُّودا الكاوية ، وأوَّل من استحضر ماء الذَّهب ؟

وماذا نذكر في علم النَّبات ، أبحاث الدَّينوري ، أَمْ أبحاث رشيد الدِّين الصُّوري ، أَمْ ابن البيطار الَّذي عُرِف في أُوربة باسم : « أبو علم النَّبات » ؟.

وفي مجال الطَّيران ، ألم تكن أوَّل تجربة طيران لعباس بن فرناس الأندلسي سنة ٢٤٦ هـ = ٨٦١ م ؟.

وابن يونس المصري ، ألم يخترع الرَّقَّاص (البندول) الَّذي توسَّع غاليلو في درسه ؟

وأبو الفتح عبد الرحمن الخازن (أو الخازني) ، ألم يوجد الثِّقل النَّوعي للسَّوائل والمعادن بأرقام تطابق أو تقارب الأرقام الحديثة اليوم ؟ وتكلَّم عن الجاذبيَّة قبل نيوتن : « إنَّ الأجسام السَّاقطة تنجذب في سقوطها نحو مركز الأرض » .

وبديع الزَّمان الجزري ، ألم يخترع مبدأ الدَّسامات في الميكانيك ؟

وتقي الدِّين الدِّمشقي ، ألم يخترع المضخَّة ذات الأسطوانات السِّتة ، والَّتي هي فكرة المحركات الانفجارية في جوهرها ؟

وابن الهيثم ، رائد علم البصريَّات (الضَّوء) في العالم بلا منازع ، ألم ينقض نظريَّة إقليدس وبطليموس في الإبصار ؟ لذلك قال عنه روجر باكون : ابن الهيثم ، أبو المنهج العلمي في البحث .

والخوارزمي ، أبو اللوغارتمات ، وأبو الجبر ..

واليوم ، على سطح القمر مراكز باسم الفلكيَّيْن العربيين المسلمين : محمد بن جابر بن سنان البتَّاني ، وعبد الرحمن الصُّوفي ، لماذا ؟

ألم يقتبس « كانت » آراء ابن رشد في الزمان والمكان ؟ ونظرية المعرفة عن ابن حزم ؟

ألم يسلك توما الأكويني مسلك ابن سينا وآراءه في أدلّته على وجود الله سبحانه وتعالى ؟

ألم يأخذ الكردينال متّى الأكواسبارطي نظريّة الفيض عن ابن سينا ؟

وسببيَّة أبي حامد الغزالي ، ألم يقتبسها داڤيد هيوم ، حتّى قال أرنست رينان : إنَّ داڤيد هيوم ، لم يقل شيئاً في السَّببية فوق ماقاله الغزالي .

وفي الشَّك ، ألم يبدأ ديكارت ، بما بدأه الغزالي قبله بخمسة قرون ونصف القرن ؟

وأثر ابن باجة ، وابن طفيل ، وابن خلدون في أوربة وعلمائها معروف يذكره كل موضوعي منصف[١] .

ونسأل بروكلمان : إن كان المسلمون لم يكتسبوا معرفة جديدة ، بل أخذوا ماأنتجته الأجيال السَّالفة فقط ، لماذا ترجمت كتبهم إلى اللاَّتينية ، ومنها إلى كلِّ اللُّغات الأوربية ؟ ولماذا بدأت النهضة الأوربيّة الحديثة بعدها مباشرة ؟! وإن لم يكن فيها الجديد ، لماذا حرصت جامعات أُوربة ومكتباتها على اقتنائها بأثمان باهظة ، وتحافظ عليها اليوم وكأنَّها جزء من تراثها الثَّمين ؟!

ليت بروكلمان لم يذكر ماذكره في ص ٤٨٢ : « إنَّ العلم لم يكن يعني عند المسلم اكتساب معرفة جديدة ، بل التَّمكن إلى أقصى حدٍّ مستطاع من المادَّة الَّتي أنتجتها الأجيال السَّالفة » ، ليته لم يذكر ماذكره لشيء واحد فقط ، وهو : ليحفظ ماء وجهه أمام علماء أُوربة المنصفين ، قبل علماء المسلمين ، وليبقى اسمه

(١) هذه الحقائق العلمية من كتابنا : « الحضارة العربيّة الإسلاميّة » .

في قائمة العلماء ، أمّا وقد ذكر ماذكر ، وقال ماقال ، فإنه غير جدير بلقب عالم موضوعي ، أو مؤرخ منصف ، لأنّه ماكان يعتقد أحد أن الجهل بالإسلام ومنهجه ، والمسلمين وعلومهم وحضارتهم يصل ببروكلمان إلى هذا القول .

☆ ☆ ☆

وفي ص ٥٥٠ ، يقول بروكلمان في معرض حديثه عن محمد بن عبد الوهاب : « والواقع أن هذا المصلح لم يكن يتمتّع من خصب الأفكار ، أو الابتكار ، بأكثر مما كان يتمتّع به الرسول نفسه » .

كيف عرف بروكلمان خصب الأفكار أو الابتكار عند محمد بن عبد الوهاب ؟

وما علاقة ذلك بما كان يتمتّع به الرسول ﷺ نفسه في هذا المجال ؟!

ولو سألنا بروكلمان عن خصب الأفكار أو الابتكار عند الرّسولَيْن الكريمَيْن موسى وعيسى ، فماذا يكون جوابه ؟

وهل يجرؤ على قوله ماقال بحق رسولنا الكريم ؟

لقد عوّدنا بروكلمان ـ وأمثاله من المستشرقين المتعصّبين ـ استغلال كل مناسبة ، بل ودون مناسبة ، ليدس على الإسلام ورسوله ، محاولاً تشويه الحقائق ، وزرع الشُّكوك ، ولكن في نفوس الجهلة ، لا في نفوس العلماء ، وليت بروكلمان ما يزال حيّاً ليرى بأُمّ عينه إنساناً لا يمتُّ إلى نبي الإسلام بصلة قوميّة ، أو دينيّة ، فهو أمريكي نصراني[1] ، ويضع على رأس قائمة المئة الأوائل محمدَ بنَ عبد الله ﷺ ، لما أحدثه من أثر ديني ودنيوي في المجتمع الإنساني ، ماعرفت

(١) إنه مايكل هارت ، صاحب كتاب « المئة الأوائل » مترجم إلى العربيّة، طبع ونشر دار قتيبة بدمشق .

البشريَّة في تاريخها مثيلاً لـه بـآثـاره ونتـائجـه ، أكان كل ذلـك دون خصب في الأفكار ، وعظمة في الابتكار ؟ إنه التَّعصُّب الـذميم ، والحقـد التبشيري الـدفين ، وليتـه وأمثـالـه يقلبـون منـاظير النقـد إلى داخلهم ، ليروا مـالا يقبلـه عقـل ولا منطق ، فأين الإنصاف والعلم والموضوعيَّة .

☆ ☆ ☆

« كذلك كانت نهاية الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ، لقد قضت بوصفهـا ممثِّلـة لمبـدأ أبلته الأيَّام ، وطرحته وراءهـا ظهريّـاً ، لتنهض على أنقـاضهـا الـدَّولـة التُّركيَّـة القوميَّة الحديثة » ، ص ٦٠٦ .

أوَّلاً : الكلام الوارد في هذا النَّص ، يدل على أن صاحبـه بروكلمـان ، بعيـد كل البعد عن الموضوعيَّة ، فالمؤرِّخ العالم ، هو الَّذي يذكر ماحدث دون تعليقـات عاطفيَّة ، يمليها حقد دفين ورثه المؤلِّف من عهد الحروب الصَّليبيَّة .

ثانياً : كيف يحكم سلفاً على أُمور مستقبليَّـة ، هي في حيـاة الشُّعوب لاتعـد بالسَّنوات ، كما هي في حيـاة الأفراد ، فـالمبـدأ الَّـذي عيَّنـه بروكلمـان ، مـاأبلتـه الأيَّـام ، بـل أبلت معظم أعـدائـه ، ولم تطرحـه وراءهـا ظهريـاً ، بـل طرحت المتعصِّبين الحـاقـدين ، ولئن ذكروا ، فيـذكروا بسمـومهم الَّتي تنبَّـه لهـا العـالم الإسلامي ، ويذكروا بالحقد والصليبيَّة والبعد عن العلم والحقيقة والموضوعيَّة .

أما ذلك المبـدأ الـذي عنـاه بروكلمـان ، ومـا تجرَّأ أن يـذكره صراحـة ، فهو الإسلام ، والإسلام بحمـد الله وتوفيقـه وعنـايتـه ، يزداد كل يوم بصحـوة أبنـائـه أوَّلاً ، وبقوَّة وعلم من يعتنقه من مفكِّري العالم وعلمائه الكبار ، وليس من فقرائه وجياعه ومرضاه ، الَّذين يُغْرَوْن بالطَّعام والدَّواء لاعتناقـه ، وإنَّما يعتنق الإسلام اليوم كبار العلمـاء ، وعظماء المفكِّرين ، ممن أزاح عن فكره وقلبـه غشـاوة الحقـد الَّتي حملها بروكلمان وأمثاله ، فحالت دونه ودون الحقِّ المبين .

وفي ص ٦٢٥ يقول بروكلمان : « في معسكر ـ مقر والد الأمير عبد القادر الجزائري ـ حيث كان الأمير نفسه يلتمس الرَّاحة في كثير من الأحيان ، وقد أتى على هذا القصر حينٌ من الدّهر كان فيه مركزاً خطراً من مراكز التَّعصُّب الدِّيني في الإسلام » .

وفي ص ٦٢٦ تابع حديثه عن المقاومة الجزائريَّة قائلاً : « نيران العصبيَّة الدِّينيَّة بين القبائل ، فتابعت حرب العصابات ضد الفرنسيين » .

العصبيَّة الدِّينيَّة ونيرانها موجودة فعلاً وواقعاً وصدقاً ، يشهد الله ، ويشهد التَّاريخ الصَّادق ذلك ، لقد كانت فرنسة تشعر أنَّها زعيمة الدُّول الكاثوليكية في حوض البحر المتوسط ، وقد تأكَّد هذا الاتجاه في عهد شارل العاشر ، وهو المعروف بتأييده المطلق لحزب الكنيسة ، فعندما انقسم مجلس الوزراء الفرنسي على نفسه سنة ١٨١٢ م بخصوص أهداف الحصار على الشواطئ الجزائرية ، دافع كليرمون دي تونير ، وزير الحربيَّة ، عن وجهة نظر الاحتلال ، في تقرير من فقراته : « لقد أرادت العناية الإلهيَّة أن تثأر حميَّة جلالتكم بشدَّة في شخص قنصلكم على يد ألدِّ أعداء المسيحيَّة ، ولعله لم يكن من باب المصادفة أن يُدْعى ابن لويس التَّقي لكي ينتقم للدِّين وللإنسانيَّة ، ولإهانته الشَّخصيَّة في نفس الوقت ، وربما يسعدنا الحظ بهذه المناسبة لننشر المدنيَّة بين السُّكان الأَصليِّين وندخلهم في النَّصرانيَّة »(١) .

وعندما أقام بورمون قائد الحملة الفرنسيَّة صلاة الشكر في فناء القصبة بمناسبة الانتصار واحتلال الجزائر ، بعث بوصفٍ لهذا الاحتفال قال في نهايته : « مولاي ، لقد فتحت بهذا العمل باباً للمسيحيَّة على شاطئ إفريقية ، ورجاؤنا أن يكون هذا العمل بداية لازدهار الحضارة الَّتي اندثرت في تلك البلاد »(٢) .

---

(١) و (٢) الإسلام وحركات التَّحرر العربيَّة ، ط ٢ ، دار الفكر بدمشق .

ولم يخفِ المؤرِّخون المعاصرون هذه الحقيقة ، فوصف إدوار دريو المؤرِّخ الفرنسي ، المعروف بدراساته عن الشَّرق حادث الاستيلاء على الجزائر « بأنَّه كان أوَّل إسفين دُقَّ في ظهر الإسلام »[(١)] .

وفي ١٢ أيَّار (مايو) ١٨٣٠ م أوضح مارتيناك رئيس الوزراء الفرنسي هدف الحملة الفرنسيَّة لاحتلال الجزائر : إذا سقطت حكومة الدَّاي ، فإنَّ فرنسة مستعدَّة لدعوة حلفائها لعقد مؤتمر دولي يناقش الوضع الجديد الَّذي يمكن إقامته في الجزائر لخير المسيحيَّة جمعاء .

لقد كان الاستعمار الفرنسي في الجزائر بدعاً في تاريخ الاستعمار كلِّه ، إذ جاءت فرنسة تقول إن شعباً عربياً مسلماً جزء منها ، وإن أرضاً عربيَّة إسلاميَّة في إفريقية جزء من فرنسة الأُوروبيَّة ، وسارت فرنسة على هذه السِّياسة الَّتي أعلنتها ، وهي إدماج الجزائر فيها ، والاستيلاء على أرض الجزائر ، ومحاربة الإسلام ، وكانت القوَّة هي السَّبيل لتحقيق هذه الأشياء جميعاً[(٢)] .

ووقف الجنرال روفيجو يشير على الفرنسيِّين باختيار مسجد من مساجد الجزائر ليصير كنيسة ، فأشاروا عليه بجامع « القشاوة » ، وهو من أجمل مساجد البلاد وأروعها ، وكان في المسجد أربعة آلاف مسلم ، هجم عليهم الفرنسيون وذبحوهم عن آخرهم ، وفي ١٨ كانون الأوَّل سنة ١٨٣٢ م ، كان المسجد كاتدرائيَّة الجزائر ، وحوَّلوا غير هذا المسجد مساجد أُخرى كنائس ، مثل مسجد « القصبة » ، وهو من المساجد الَّتي ترتبط بها ذكريات إسلاميَّة مجيدة .

ويبلغ الحمق والحقد حدّاً كبيراً بسكرتير الحاكم الفرنسي بوجو ، فيقول في

---

(١) المغرب العربي ، د . صلاح عقاد ، ص ٨٦ ، والجزائر أرض المعارك ، د . بهي الدين زيان ، ص ٥٤/٥٥

(٢) الجزائر أرض المعارك ، ص ٤٩

الكنيسة الَّتي قامت وسط دماء أربع آلاف شهيد مسلم : « إن آخر أيَّام الإسلام قد دنت ، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح ، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسة ، فلا يمكننا أن نشك في أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد ، أما العرب فلن يكونوا ملكاً لفرنسة إلاَّ إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً » .

ومن أجل هذه الصَّليبيَّة الحاقدة في بلد عربي إسلامي ، بذل المبشرون جهوداً كبيرة ، وشجعت الإدارة الفرنسيَّة بناء المعابد اليهوديَّة ، والكنائس المسيحيَّة ، حتَّى صار في الجزائر ٣٢٧ كنيسة ، و ٤٥ معبداً لليهود ، إلى جانب ١٦٦ مسجداً للمسلمين ليس غير !.

وفي آذار (مارس) ١٨٣٨ م أصدر الفرنسيون قانوناً جعلوا به اللُّغة العربيَّة لغة أجنبيَّة .

أمَّا سياسة « الأرض المحروقة » الَّتي اتَّبعها بوجو عندما حشدت له حكومته الفرنسية ٢٠٠ ألف جندي ، وصفها أحد معاوني بوجو في مذكراته ، وهو (سنت أرنو) قائلاً : « لقد كانت حملتنا تدميراً منظماً أكثر منها عملاً عسكرياً ، ونحن اليوم في وسط جبال مليانة ، لا نطلق إلاَّ قليلاً من الرَّصاص ، وإنَّما نقضي وقتنا في حرق جميع القرى والأكواخ .. » ، ويقول : إن بلاد (بن مناصر) بديعة جداً ، لقد أحرقناها كلَّها ، آه أيَّتها الحرب ، كم من نساء وأطفال اعتصموا بجبال الأطلس المغطَّاة بالثلوج ، فماتوا هناك من الجوع والبرد ، وليس في جيشنا سوى خمسة من القتلى ، وأربعين جريحاً » .

وأثار بعض النُّواب في المجلس الفرنسي مسألة هذه الحرب الوحشيَّة ، وذلك إثر حادثة (ولدرياح) الَّذي ذهب ضحيَّتها ألف جزائري كانوا قد التجؤوا إلى بعض الكهوف فراراً من جند الغزو ، فانقضَّ (لمسييه) عليهم وأوقد النَّار على

أفواه الكهوف ، فمات جميع من فيها اختناقاً ، وكان جواب رئيس الحكومة المارشال (سولت) على هذا النَّقد هو أنَّ هذه الأعمال قد تكون وحشيَّة لو أن الحرب كانت في أُوربة ، أما في إفريقية فهذه هي الحرب بعينها .

هذا بعض ما فعله الاستعمار الفرنسي في أرض الجزائر ، ثمَّ يأتينا المؤرخ الكبير بروكلمان ، ليصف مقاومة الجزائريين للاستعمار الصليبي الفرنسي بالتَّعصُّب الدِّيني في الإسلام ، وبنيران العصبيَّة الدِّينيَّة بين القبائل ، فتابعت حرب العصابات ضد الفرنسيين .

أيَّة وحشيَّة ، وأيَّة صليبيَّة ، وأي تعصُّب هذا الَّذي اتَّبعه الفرنسيُّون في الجزائر ، ثمَّ يوصف عبد القادر الجزائري لوقوفه - ومن معه - في وجه هذه الوحشيَّة ، وهذه الصَّليبيَّة ، وهذا التَّعصب ، بالتَّعصب الديني ؟!.

هذا منطق بروكلمان العميق الشامل .. العصبيَّة الدِّينيَّة ، أو بعبارة أُخرى « التَّعصُّب الدِّيني » يمكنه أن يتعرَّف عليه في أُوربة وتاريخها ، عندما عمَّتها موجة التَّعصُّب الحاقد قبيل وأثناء وبعد الحروب الصَّليبيَّة ، التَّعصُّب الدِّيني هو الَّذي أعمى قادة وملوك أُوربة ، فضلاً عن رجال الكنيسة وعلى رأسهم البابا أُوربان الثَّاني ، فساقوا شعوبهم إلى القتل والنَّهب والاعتداء على أرض ليست لهم ، وعلى شعوب آمنة بينهم وبينها أُلوف الأميال .

التَّعصب الدِّيني هو الَّذي أخرج الأُوربيين عن جوهر رسالة المسيح عليه السَّلام ، رسالة المحبَّة والسَّلام ، وجعلهم وحوشاً ضارية ، يفاخرون بأنَّهم يخوضون في بحار من دماء البشر ، لا يفرِّقون بين طفل وامرأة وشيخ .. كل ذلك باسم المسيح والمسيحيَّة ، فهي « حرب مقدَّسة » ليس فيها تعصُّب ديني ، ولا نيران العصبيَّة الدِّينيَّة ؟!!.

إنَّ الذي كان يجري في الجزائر ، وفي بيت الأمير عبد القادر الجزائري ، إنَّما

هو تدارس أعمال الاستعمار الفرنسي وتعصُّبه الديني ، وصليبيته الحاقدة ، وكيف يمكن للمجاهدين لا المتعصِّبين ، الرَّد عليها ، والوقوف في وجهها ، ويا سبحان الله ، كيف يقلب « الموضوعي » بروكلمان الحقائق ، وكيف يقلب التَّعصب الحقائق ، وكيف يعمي الأَبصار فضلاً عن البصائر .

ويا ضياع وقت من بحث في التَّاريخ الإسلامي ، ولم يستند أو يتَّكئ على بروكلمان في مصنَّفاته .

☆ ☆ ☆

وفي ص ٧١١ يقول بروكلمان : « لم تعد أَقدار مصر ، بعد احتلالها من قبل البريطانيين سنة ١٨٨٢ م ، مرتبطة بالأقدار المشتركة الخاصَّة بسائر الدُّول الإسلاميَّة » ، « وليس يحق لنا ، دون شك ، أَن نعدَّ من باب الرِّياء السِّياسي تلك التوكيدات الَّتي أكثر السَّاسة البريطانيُّون من ترديدها ، والَّتي تنصُّ على أَنَّهم لا يهدفون إلى المحافظة على مصالح الإمبراطوريَّة في تلك البلاد فحسب ، بل إلى رفع مستوى المصريين من الوجهتين الماديَّة والفكريَّة أيضاً » .

وفي ص ٧٤٠ : « وليس من شك في أن زعامة مصر في الحقول الثَّقافيَّة ، وفي الدَّوائر الإسلاميَّة ـ تلك الزَّعامة المعترف بها منذ عهد طويل ـ خليقة بأن تنمو تبعاً لتعاظم سلطانها السِّياسي لتحقِّق ، آخر الأمر ، أيضاً هدفاً ما فتئت ترنو إليه من زمن بعيد ، أعني التَّحرُّر من وصاية أُوربة العقليَّة » .

العقليَّة الاستعماريَّة الصَّليبيَّة لابدَّ أن تكشف عن نفسها في كتابات المؤرخين الأُوربيين ، يضاف إلى هذه العقليَّة تعصُّب الغرب عامَّة ضد الشَّرق ، وبصورة أخص التَّعصُّب الأُوربي المسيحي ضد الإسلام والمسلمين .

لم تعد أقدار مصر بعد الاحتلال البريطاني مرتبطة بالأقدار المشتركة الخاصَّة بسائر الدُّول الإسلاميَّة ، لأن المعتمد البريطاني اللُّورد « كرومر » مبشِّر حاقد ،

قدم كتاباً من تأليفه حمل العنوان التّالي : « مصر الحديثة » ، شطّ به القلم إلى الكلام عن الإسلام والمسلمين ، فوصفهم ووصف دينهم كما شاء ، وشاء هواه ، بما يخجل منه وجه الحقيقة ، وتحمرُّ له وجنة الصّدق ، ثمَّ حكم بأنَّ المانع الأعظم من ترقّي المسلمين هو دينهم ، « ولا أدري ما الباعث له على ذلك سوى التّعصّب الذّميم ، والانتقام والتّشفي من المسلمين ، وإغاظتهم بتحقير دينهم ، ولا أراه كتب ما كتب معتقداً بصحّة ما كان يُمليه عليهِ تعصّبه الوخيم ، ولا يقصد بذلك سوى التّبكيت وإهانة الإسلام وأهله ، لأنّ سموم الحقد والعداوة كانت جارية على أسلات قلمه الّذي خطَّ به ذلك الكتاب ، فشوّه بذلك وجه الحقيقة وسوّد جبين الإنصاف ، ولو كان يروم بما كتب النّصيحة والموعظة لاستعمل غير ذلك الأُسلوب الّذي أودعه (مصر الحديثة) ، وجرى في التّحرير مجرى آخر يظهر الحقيقة في ثوب مقبول لدى مَنْ طالع كتابه ، ولكنه أبى .. حتّى ترك نفوس المسلمين في جميع الأقطار ساخطة عليه وعلى كتابه ، بل إن جميع العقلاء من المسيحيين هم ساخطون أيضاً على ما كتبه اللّورد من الطّعن بالإسلام والمسلمين ، لأنّه خلاف الحقّ ، بل ليس فيه حبّة من الحقيقة »[(١)] .

قال السيد الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي في مقالاته الّتي نشرها في (المؤيّد) ما نصّه : « لم ينشر اللّورد كرومر كتابه ليؤثّر به على نفوس المصريين ، أو ليقنعهم بصحّة ما يقول عنهم أو ليجعلهم يعتقدون في دينهم ما يعتقده هو ، فالرّجل أذكى من أن يتطلّع إلى مثل هذه النّتيجة ، وإنّما أراد به أن يشوّه سمعة المصريين في العالم الغربي انتقاماً منهم لبغضهم إياه ، واتّحادهم على معاكسة أغراضه ، وإفساد سياسته ، وتشفياً من دينهم دين الإسلام الّذي يعتقد أنّه العروة الوثقى الّتي ألّفت بين المصريين ، وجمعت كلمتهم على مقاومة كلّ مشروع

---

(١) الإسلام روح المدنيّة ، أو الدين الإسلامي واللورد كرومر ، تأليف : مصطفى الغلاييني ، طبع سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م ، ص ١٠

إنكليزي يمسُّ بجامعتهم الدِّينيَّة ، والرَّجل عظيم في قومه ، موثوق بينهم بصدقه ، وصحة إرادته ، فلا غرابة أنَّه يبلغ بنشر كتابه هذا أُمنيتهُ من تشويه سمعتنا في ذلك العالم ، وتصويرنا بالصورة الَّتي أرادها وقدَّرها »[1] .

حتَّى صحيفة « العدل » الإنكليزيَّة الَّتي تصدر عن لندن قالت في مقال عنوانه : « كرومر ومصر » بعد أن ذكرت ثناءَ مَنْ مدح الكتاب ورضي عَنْهُ ما نَصُّه : « والَّذي نفهمه من كلِّ هذا الإطراء من هذه المصادر أنَّه كتاب لا يضارعه كتاب آخر في المطاعن والأكاذيب الَّتي يؤلِّف منها أقوالاً مختلفة »[2] .

فاللورد كرومر ، الحاقد ، الكاذب ، الطاعن .. هو الذي أراد إبعاد مصر عن سائر الدُّول الإسلامية[3] ، وليس هذا مطلباً من مطالب الشَّعب العربي في مصر ، وخاب كرومر ، وخاب بروكلمان في رأيه أيضاً ، فأرض الكنانة جزء لا يتجزأ - مهما تألَّبت الظروف - من أُمتنا العربية ، وشعبها شعب مسلم أصيل ربطته الأقدار بسائر الدُّول الإسلاميَّة .

(١ و٢) المرجع السَّابق ، ص ١١

(٣) نظم الشيخ الغلاييني قصيدة عنوانها : « الإسلام وكرومر » جعلها في مقدّمة كتابه « الإسلام روح المدنيَّة » ، منها :

كرومُر هل يُجْدي العِتَابُ المهذَّبُ ... وهل أنتَ مُولي النَّصفَ مَنْ جاءَ يطلبُ
عدوتَ على الإسلامِ في الحكم ظالماً ... ولا مُرشدٌ يَهْديك إلاَّ التَّعصُّبُ
كتبتَ عن الإسلامِ مالو قصتَّهُ ... على الصخر قال الصَّخرُ: «يالورد» تكذبُ
فزورٌ وبهتانٌ وإفكٌ مُضَلِّلٌ ... وأشياءُ أَملاَها الهوى المتشعِّبُ
كذبتَ على الدِّين الحنيفيِّ كذبةً ... ينوءُ بها الطودُ الأشمُّ فيُشعَبُ
فهل بك مسٌّ من جنونٍ وخفَّةٌ ... بعقل فقمتَ اليومَ تهذي وتصخبُ
وهل جئت مصراً داعياً لديانة ... لترشد قوماً عن هداهم تنكَّبوا..
فخضتَ كمن خاضوا من الفحش أبحراً ... فعدتَ وعادوا مثلما عاد أشعبُ
فلو كنت قسّيساً يُصارحُ جهرةً ... عذرنا ولكن للسّياسةِ تُنسَبُ
بدا الحقُّ فارتاعَ الضلالُ وَحِزبُهُ ... كذلك (يعلو الحقُّ) والحقُّ أغلبُ

يريد بروكلمان أن يقنعنا ، بأنَّ أقوال السَّاسة الاستعماريِّين البريطانيِّين حول هدف بريطانية في احتلالها لمصر ، هو تحسين أوضاعها المادِّيَّة والفكريَّة ، أيصل به الحقد والدَّجل والافتراء إلى هذه الدَّرجة ؟! ويصل به الاستهزاء بعقول النَّاس إلى هذا الحدِّ ؟!.

بريطانية استهدفت في غزوها مصر رفع مكانتها وتحسين أحوال شعبها المادِّيَّة والمعنويَّة ، أمَّا أبطال المقاومة في مصر ، ورجال حركتها الوطنية ، أمثال : أحمد عرابي ، ومحمد عبده ، وعبد الله النَّديم ، ومصطفى كامل .. فإنَّهم كانوا يريدون لمصر الدَّمار والفقر والتخلُّف المادِّي والفكري عندما قاوموا الاستعمار البريطاني ، هل يمكن لعاقل في الدُّنيا أن يصدق ذلك ، ويقبل هذا المنطق ؟!.

ونسأل بروكلمان سؤالاً واحداً لتفنيد رأيه ، وإثبات افتراءه وتجاهله عن الحقائق ، كيف تركت بريطانية الشَّعب المصري ؟ وهل ترضى لبلادك وشعبك حكماً كالحكم البريطاني لمصر ؟ وهل ترضى لبلادك وشعبك حاكماً مثل كرومر ؟.

☆ ☆ ☆

وفي ص ٧١٨ يقول « العلاَّمة الموضوعي » بروكلمان : « وكان لحادثة غير ذات أهمية في حدِّ ذاتها أن تكشف للشَّعب كافة ، لأوَّل مرَّة ، عن مركزه الحقيقي ، ذلك المركز الَّذي لا يليق به ، ففي ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٠٦ م ، كان بعض الضبَّاط البريطانيين يصطادون الحمام في قرية دِنْشَواي في الدَّلتا ، فأصابوا امرأة مصريَّة ، فلم يكن من الفلاَّحين ، الَّذين أهاجهم الحادث هياجاً كبيراً ، إلاَّ أن هجموا عليهم بالهراوي والنَّبابيت ، فقتلوا واحداً منهم فيما هو يلوذ بأذيال الفرار ، وأمر كرومر بإنزال أشد العقاب بأولئك الفلاحين ، فشنق أربعة منهم على رؤوس الأشهاد في ٢٨ حزيران (يونيو) ، وجُلِدَ سبعة عشر بالسِّياط ،

ثمَّ حُمِلوا إلى السِّجن ، والواقع أَنَّ هذا القصاص الوحشي أثار عاصفة من الاستياء لا في مصر وحدها ، بل في أُوربة وفي البرلمان البريطاني أيضاً .. » .

إن من يقرأ أحداث « دِنْشَواي » كما كانت ، وكما وقعت ، يبكي الموضوعيَّة والمنهج العلمي عند بروكلمان .

كُتَيِّب صغير مزوّد بالصور الحقيقية للحادثة[1] ، عنوانه : « صحيفة من تاريخ إنجلترا في مصر » ، طبع في القاهرة في أوَّل أيار (مايو) سنة ١٩١٥ م[2] ، جاء في مقدّمته : « يتحتَّم على المرء الَّذي يريد أن يتصدَّى لتسطير ما أتاه ويأتيه الإنكليز من الجرائم العديدة ، والمخازي والنَّصب والتزييف في وادي النِّيل ، أن يفرد لذلك الفصول الضافية ، والمجلَّدات الضَّخمة ، وأن يعزِّز أقواله بالحج والبراهين الدَّامغة الَّتي تفقأ أعين الخونة والدُّخلاء والمأجورين ، الَّذين تتخذهم إنجلترا عادة لترويج بضاعتها ، وتبرير أعمالها وفظائعها » ، وبدءاً من الصفحة الرَّابعة بدأ الكتيِّب بسرد تفاصيل حادثة دِنْشَوَاي ، ومما جاء فيه :

الضُّباط والعساكر الإنجليزيَّة ذهبوا لصيد الحمام في قرية دنشواي بمديريَّة المنوفيَّة ، فحذَّرهم شيخ من الفلاحين تقدَّم إلى المترجم الَّذي يرافق الإنجليز وحذَّره عاقبة الدُّنو من القرية قائلاً له : إنَّ الأهالي في غاية الكدر والتَّهيُّج من تردُّد هذه العساكر عليهم وقتل طيورهم ، كما فعلوا مثل ذلك في العام الماضي ، فلم يعبؤوا بهذه النَّصيحة ، وبدؤوا في إطلاق بنادقهم بسرعة وكثرة في وسط القرية ، فأصابت رصاصة منهم امرأة فلاحة ، وسبَّبت أُخرى حريقاً في إحدى المزارع ، فلم يكد الأهالي ينظرون إلى تلك النتيجة المحزنة ، حتَّى تراكضوا من جميع الجوانب ، وفي الحال ابتدأت المشاحنة بين الطَّرفين ، ولعدم فهم الواحد الآخر

---

(١) نشرنا بعضها في « أطلس التاريخ العربي » .

(٢) المؤلِّف : د . منصور مصطفى رفعت .

جيِّداً ، انتهت تلك المعركة بجرح ثلاثة من العساكر الإنجليز ، ومثلهم من أهالي القرية ، وكان من ضمن الجرحى الإنجليز ، ضابط يدعى الكابتن « بُول » ، انسحب من وسط المعركة خوفاً على حياته ، وأخذ يعدو مسرعاً في الشَّمس المحرقة ، فكانت العاقبة أن سقط ميتاً من ضربة الشَّمس ، فسارع العساكر الإنجليز إلى الأهالي الأبرياء ، فأوسعوهم ضرباً ولكماً ، ثم ختموا ذلك الفصل المحزن بأن حطَّموا رأس أحد الفلاَّحين الأبرياء ، وقتلوه شر قتلة .

هذه هي الحقيقة بتمامها ، تشرح بأجلى بيان ، فمن الذي حرَّك مسألة دنشواي ؟ ومن هو المعتدي الأثيم ، الَّذي يستحق صارم التَّأديب والعقاب ؟.

لقد رُميَ الشَّعبُ الآمن قاطبة بالتَّوحش ، والتَّعصُّب ، وآن إنزال الصَّواعق على دنشواي ، فأُرسلت المشانق إليها قبل انعقاد المحكَمة بأسبوع ، وتشكَّلت « المحكمة المخصوصة » ، وقدَّم طبيب إنجليزي شهادته بعد تشريح جثَّة الكابتن « بُول » ، قائلاً : ثبت لدي بالدليل القاطع بأن موته قد نشأ من تأثير حرارة الشَّمس المحرقة ، وأن ما به من آثار الجروح الطفيفة الَّتي أصابته عقب المشاجرة ، لا يمكن أن تكون سبب وفاته .

ومع ذلك أصدرت « المحكمة المخصوصة » في الخامس والعشرين من شهر حزيران (يونيو) أحكامها التَّالية :

١ ـ أربعة من المتَّهمين تنفَّذ بهم عقوبة الإعدام في الحال[(١)] .

٢ ـ اثنان آخران حكما بالأشغال الشَّاقة المؤبَّدة[(٢)] .

٣ ـ متَّهم آخر بالأشغال الشَّاقة لخمسة عشر عاماً[(٣)] ، وستَّة آخرون بنفس

---

(١) وهم : حسن علي محفوظ ، ويوسف حسن سليم ، وعيسى سالم ، ومحمود درويش زهران .

(٢) محمد عبد النَّبي (مؤذِّن القرية) ، وأحمد عبد العال .

(٣) أحمد محمَّد السِّيسي .

العقوبة لمدة سبع سنين ، وثلاثة آخرون بسنة حبس ، وعلاوة على ذلك فقد أضافوا جلد كل منهم علناً خمسين جَلْدَة .

ونفِّذت الأحكام بقسوة ووحشية : « كانت أجسام المجلودين تتمزَّق وينبجس الدَّم منها ، وينقطع المجلود عن الكلام بعد الضربات الأُولى من شدَّة الألم » .

ونعود بعد هذا إلى بروكلمان لنراه أخطأ في الفقرة الَّتي أوردناها من وجوه أربع :

١ - « وكان لحادثة غير ذات أهميَّة في حدِّ ذاتها ، أن تكشف للشَّعب كافة ، لأوَّل مرَّة ، عن مركزه الحقيقي ، ذلك المركز الَّذي لا يليق به » .

الحادثة غير ذات أهميَّة لأنَّها في بلد عربي ، وضد شعب عربي مسلم ، أما لو كانت في ألمانية بلد بروكلمان ، أو في إنجلترة بلد كرومر لكان لحقوق الإنسان شأن آخر ، ولأصبحت ذات أهميَّة كبرى ، أما الكشف « لأوَّل مرة » عن مركز الشَّعب الحقيقي ، فلا لهذه العبارة أيضاً ، لقد عرف مركزه ، وما زال يذكره ، منذ أن قصف الأُسطول الإنجليزي الإسكندريَّة ودمَّرها ، ومنذ مذابح التَّل الكبير ، ورمي أطفال المصريين برصاص عساكر الإنجليز ، ومنذ أن أغلق كرومر المدارس ، وأهمل الصَّحة عمداً .

٢ - « كان بعض الضبَّاط البريطانيين يصطادون الحمام في قرية دِنْشَوَاي » ، وصوابه : كان بعض الضبَّاط البريطانيين يصطادون « حمام الأهالي » في قرية دنشواي ، وحذَّروا من عواقب فعلتهم ، ولم يعبؤوا بأملاك المواطنين ، فأصابوا بطلقات بنادقهم امرأة ، وأحرقوا بيادر في القرية .

٣ - « هجموا عليهم بالهراوي والنبابيت فقتلوا واحداً منهم فيما هو يلوذ بأذيال الفرار » ، وصوابه : لم يقتلوا واحداً ، فالكابتن بُول مات حسب تقرير الطبيب الشرعي الإنجليزي ، نتيجة ضربة شمس .

٤ ـ « والواقع أن هذا القصاص الوحشي أثار عاصفة من الاستياء ، لا في مصر وحدها ، بل في أوربة ، وفي البرلمان البريطاني أيضاً » . وصوابه : إن الّذي حرَّك الضّمير الإنساني قُبالة جرائم بريطانية ورجلها الحاقد كرومر ، إنما هو قلم مصطفى كامل ، وأمثاله من أصحاب الضّمائر الحيَّة ، الّتي حركت المشاعر الإنسانية لدى كل إنسان ، فأحسَّت الدُّنيا بعمق وحشية جريمة كرومر في مصر .

☆ ☆ ☆

وفي ص ٧١٩ : « حمل ألدون جورست ـ الّذي حلّ محلّ اللّورد كرومر ـ الخديوي على إسناد هذا المنصب إلى رجل قبطي هو بطرس غالي باشا ، ناظر الماليَّة السَّابق ، فما كان من الوطنيين إلاّ أن شنُّوا عليه حملة شعواء ، أدَّت إلى مصرعه في ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٩١٠ م .. » .

شنَّ الوطنيُّون حملة شعواء أدَّت إلى مصرعه ، لا لأنَّه بطرس غالي باشا ، بل لأنَّه صنيعة بريطانية في مصر ، لقد نقم عليه الوطنيُّون المصريون إمضاءه اتفاقية السُّودان ، وترؤسه محكمة دِنْشَوَاي ـ وهذه وحدها تكفيه ليلقى مصرعه ـ وإعادته قانون المطبوعات ، ومقاومة الجمعية العمومية ، فانبرى له إبراهيم الورداني (شاب من أقباط مصر) فقتله ، فقُتِلَ به .

☆ ☆ ☆

ويقول بروكلمان في ص ٧٣٣ : « والواقع أن سعداً هو صاحب الفضل الرئيسي في إيقاظ المصريين ، بعد عبودية تطاولت ألف سنة ، في ظل الحكام الوطنيين والأجانب ، وتنبيههم إلى حقّهم في تقرير مصير أُمتهم وبلادهم » .

العبوديَّة الَّتي يتحدَّث عنها بروكلمان ، أراد بها أن يغطّي استعباد أوربة لشعوب الشَّرق عامَّة ، وبلاد المسلمين خاصَّة ، مصر لم تعرف عبودة في ظل

الإسلام ، عرفتها قبله ، في ظلِّ حكومة الرُّوم . قال توماس أرنولد ، في كتابه « الدَّعوة إلى الإسلام » ، ص ١٢٣ : « كان القبط في مصر ، يُعَذَّبُ أحدهم ، ثمَّ يلقى به إلى اليَمِّ » ، ويقول في الصفحة ذاتها : « ويرجع النجاح السَّريع الَّذي أحرزه عزاة العرب ، قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين ، الَّذين كرهوا الحكم البيزنطي ، لما عُرِف به من الإدارة الظالمة ، ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاَّهوت » .

الفتح العربي الإسلامي ضمن حياة تقوم على الحريَّة الدِّينيَّة الَّتي لم ينعموا بها من قبل ، وبذلك خلَّصهم من التَّدخل المستمر الَّذي أنُّوا من عبئه الثَّقيل في ظل الحكم الرُّوماني . أمَّا النَّاحية المالية ، فباعتراف عدد كبير من مؤرخي الغرب ، أن الشُّعوب الَّتي فتحت بلادها لم ترهق بالضرائب :

« إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلاَّ شيئاً ضئيلاً من المال ، لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية »[1] .

« ادفعوا جزية يسيرة ، تُسْبَغُ عليكم حماية كاملة »[2] .

« جزية زهيدة تقل عمَّا كانت تدفعه إلى سادتها السَّابقين من ضرائب »[3]

بروكلمان مؤرّخ « موضوعي شامل عميق » ، فمن العار أن يتجاهل الحقيقة ، ويعمي بصيرته عنها ، عندما حُرِّرت مصر من عبوديَّة الرُّوم ، أصبح ابن مصر ـ مسلماً أو ذميّاً ـ كابن الجزيرة العربيَّة سواء بسواء ، وإنَّ أجمل عبارة قيلت في حقوق الإنسان ، ونُفِّذ مضمونها نصّاً وروحاً ، قالها الفاروق عمر رضي الله عنه ، لعمرو بن العاص واليه على مصر ، عندما ضرب ابنُهُ ابنَ قبطي تجاوزه

---

(١) القول لدريبر ، روح الدين الإسلامي ، ص : ٣٩٢

(٢) لورا فيشيافا غليري في كتابها « دفاع عن الإسلام » ، ص ٣٢

(٣) غوستاف لوبون « حضارة العرب » ، ص ١٣٤

في سباق جرى : « متى استعبدتم النَّاس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً ؟ » .

العبوديَّة عرفتها مصر ، وذاقت كثير من شعوب الأرض ويلاتها وجرائمها ، تلك العبوديَّة الَّتي تمثَّلت في استعمار الدُّول الأُوربيَّة للشُّعوب الضَّعيفة في العالم ، فنهبت خيراتها ، وقُتِل مناضلوها ، طالبو الحريَّة من أبنائها .

أنسي بروكلمان ، أَمْ تَناسى العبوديَّة الَّتي مارستها دول أُوربة ، وفي مقدِّمتها إنجلترة ، حين أخذت تحمل الآلاف من بنات وشباب إفريقية ، مكبَّلين بسلاسل الحديد ، لبيعهم ، أو لدفعهم إلى العمل تحت جَلْد السِّياط في أمريكة . وعرفت مصر العبوديَّة عند حفر قناة السُّويس ، حيث سخَّر الفرنسيُّون عشرات الألوف من فلاحي مصر ، بظروف معاشية وجويَّة ونفسية أسوأ من سيئة ، اضطرَّت مصر خلالها أن تطلب إيقاف العمل ، لرفع السِّياط عن ظهور الفلاحين العراة ، ولتحسين أوضاعهم المعاشية .

وإن سعد زغلول نبَّه شعبه حقّاً ، ونشر بين صفوفه الوعي الوطني ، ولكن فات بروكلمان أن يذكر أن هذه التَّوعية ، وذلك التَّنبيه ، إنَّما كان ضد عبودية المستعمر البريطاني الدَّخيل ، المستعبد لشعب مصر ، وسارق خيراتها .

ويظهر أن الاستعمار الأُوربي في قاموس بروكلمان وأمثاله من المستشرقين « الموضوعيين » هو النَّهضة والرُّقي ، ومحاولة رفع الشَّعب إلى مصاف الدُّول الرَّاقية ، وأن الحريَّة والنَّهضة والرُّقي حين تأتي على أيدي المسلمين ، فهي في قاموس هذا الصِّنف من المستشرقين المبشِّرين « الموضوعيين » عبودية وتخلُّف ، ولله في خلقه شؤون .

☆ ☆ ☆

وفي ص ٧٦٧ : « وتعهدت فرنسة بأن تساعد الدَّولتين السُّوريَّة واللُّبنانيَّة على الانضمام إلى عصبة الأُمم ، وقد كان هذا خليقاً بأن يحقِّق للوطنيين السُّوريين

مطالبهم الأكثر إلحاحاً ، وأن يمهد السَّبيل لتطوُّر الدَّولتين تطوُّراً حرًّا ، من غير أن يكلِّف فرنسة الانقطاع عن أداء رسالتها الثَّقافيَّة في الشَّرق » .

نعود إلى قاموس بروكلمان العجيب ، والَّذي نجد فيه أنَّ استعمار فرنسة لسوريَّة وتجزئتها بعد الحرب العالمية الأُولى ، إنَّما هو تأدية لرسالة ثقافيَّة في الشَّرق ، وهل استؤذنت سورية ووافقت على تأدية فرنسة لرسالتها الثَّقافية في الشَّرق ، من تبشير ، وفَرْنَسَة ، وطمس لتاريخها العربي ، ومحاربة للُّغة العربيَّة ؟

وهل يقبل بروكلمان من دولة أجنبية مهما زاد رقيُّها عن دولته ، أن تدخل إلى بلاده بالنَّار والحديد ، وأن تهدم المدن ، وتحرق الأحياء السَّكنية ، وتقتل الآمنين بالعشرات والمئات ، هل يقبل بذلك ، ويطلق عليه اسم تأدية رسالة ثقافية ؟

متى كانت الرِّسالة الثَّقافيَّة تقوم على كم الأفواه ، وملء السُّجون ، وسحق الإنسان ؟

وإذا أراد بروكلمان أن يعرف ـ وما أظنه لا يعرف ـ الرِّسالة الثقافيَّة ، فليقرأ بموضوعيَّة ، وبمنهج علمي ، وبتجرُّد مفتِّشاً عن الحقيقة ، تاريخَ الفتوحات الإسلامية ، ليطَّلع على الرِّسالة الحقيقيَّة للحريَّة والثقافة ، وليرى كيف كانت تنقلب تلك الشُّعوب من الجهل إلى العلم ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العبوديَّة إلى الحريَّة ، وما وصل العرب المسلمون الفاتحون إلى أرض إلا فتحت المدارس ، وقامت بها نهضة علمية شعبيَّة ، وما وصلت فرنسة وبريطانية .. والاستعمار الأُوربي إلى أرض إلا أغلق مدارسها ، ونشر الأُميَّة والجهل والمرض ، فأي رسالة ثقافية لفرنسة في الشرق ؟!

☆ ☆ ☆

ومن الأُمور البدهيَّة ـ التَّاريخيَّة والجغرافيَّة ـ الَّتي أخطأ بها بروكلمان ، نورد :

« الرَّصافة على الفرات » ، ص ١٥٦ ، وهذا خطأ ، رصافة بادية الشَّام ، ليس عندها نهر ، ولا عين جارية ، إنَّما شربهم من صهاريج عندهم داخل السُّور ، (معجم البلدان ٤٧/٣) .

« جُنْدِيسابور » ، ص ٢١٨ ، وصوابه : جُنْدَيْسَابور .

وفي معرض حديثه عن المرابطين ، قال ص ٣١٨ : « واعتزل بهم في جزيرة السَّنغال حيث ابتنى لهم رباطاً » ، وصوابه : واعتزل بهم في جزيرة في نهر السَّنغال حيث ابتنى لهم رباطاً .

« حصن العُقاب » ، ص ٣٣٠ ، وصوابه : « حصن العِقَاب » ، من العَقَبَة .

« عين جالوت قرب الناصرة » ، ص ٣٩٠ ، وفي حاشية الصَّفحة ذاتها « في الأصل ـ عين جالوت ـ قرب نابلس » ، وعين جالوت لا هنا ولا هنا ، هي قرب بيسان على أطراف الغور الشمالي .

وفي ص ٥٤٧ أورد مدينة أضنة على الشَّكل التَّالي : أطنة .

وفي ص ٥٦٥ : « في مؤتمر لندن تقرَّر انتقال الحكم انتقالاً وراثيّاً إلى أكبر أبناء محَّد علي سِنّاً » وهذا خطأ فعاد بروكلمان في ص ٥٧٧ ليصوِّب : « ينتقل الحكم انتقالاً وراثياً ، حسب اتفاقية لندن الثانية ١٨٤١ م ، إلى أكبر أفراد أُسرة محمد علي سِنّاً » .

وفي ص ٥٦٦ : « ومات محَّد علي سنة ١٨٤٩ م ، وإذا كان إبراهيم قد توفِّي قبله بثمانية أشهر ، فقد خلفه ابنه عباس باشا » ، وهذا خطأ أيضاً ، صوابه :

عباس الأوَّل الَّذي تسلَّم حكم مصر بعد وفاة إبراهيم بن محمد علي ، هو عباس بن طوسون بن محمد علي ، وليس ابن إبراهيم ، واستلامه للحكم كان تنفيذاً لأحد بنود التَّسوية الَّتي تقرَّرت في مؤتمر لندن الثاني ، ونحن إذ نذكر ذلك إنَّما ندلِّل به على قلَّة الدِّقة العلميَّة ، فإن مدرِّساً عادياً لمادة التَّاريخ ، لا يقدم على قول عباس بن طوسون إلاَّ بعد أن يكون قد تأكَّد من ذلك ، ولو كلَّف « الموضوعي » بروكلمان نفسه عناء الرُّجوع إلى أيِّ مصدر لتاريخ محمد علي وأُسرته لتوصَّل إلى الحقيقة .

وفي ص ٥٧٨ أورد مُصَوَّع ، الميناء الشهير على شاطئ البحر الأحمر ، جنوبي أرتيرية ، خطأ على الشَّكل التَّالي : مَصَوَّع .

وفي ص ٦٣٩ أورد تُنْبُكتو « تُنْ بُكْت » المدينة المعروفة في السُّودان الغربي خطأ على الشَّكل التَّالي : تِمْبَكْتُو .

وفي ص ٨٠٤ قال معركة القادسية سنة ٦٣٥ م ، واليرموك بعدها ، وذلك سنة ٦٣٦ م ، وهذا قطعاً خطأ ، فاليرموك أوَّلاً ، وذلك سنة ١٣ هـ بين خلافتي أبي بكر وعمر رضي الله عنه ، والقادسية أيام خلافة عمر سنة ١٤ هـ .

☆ ☆ ☆



خَاتِمَةٌ

☆ « لا يُؤخَذُ العِلْمُ مِنْ أربعة ، ويؤخذ ممن سِوَى ذلك ، لا يؤخذ من سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو النَّاس إلى هواه ، ولا من كذَّاب يكذب في إحاديث النَّاس .. ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدِّث به » .

« الإمام مالك بن أنس »

هذه أَهمُّ الملاحظات والرُّدود الَّتي يمكن أن نوجِّهها إلى كتاب « الإمام » في التَّاريخ الإسلامي ، « الموضوعي » كارل بروكلمان . ولا ندَّعي أنَّها كل الملاحظات ، ولكن يمكننا القول إنَّها أَهمُّ الملاحظات ، وهي كافية لتكوين فكرة كاملة عن النهج الَّذي كُتِب به « تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة » .

وكنا قد ألمحنا في مقدِّمة هذا الكتاب ، أن خطأ بروكلمان الكبير ، ابتعاده عن مصادرنا ، وطرحه جانباً الطَّبري ، وابن الأثير ، وابن سعد .. عندما وضع كتابه ، واعتماده كتب المستشرقين ، ولا عذر له بذلك مطلقاً ، لأَنَّه يتقن العربيَّة قراءة وكتابة . ومن يتصفَّح حواشي « تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة » يجد فيها اسم البلاذري ص ١٤٠ لحادثة ثانوية ، ويجد اسم البخاري ولكن لتعليقات المعرِّبَيْن ، وكذلك اسم أبي داود ص ١٨ و ٢٠٣ ، والإمام أحمد ، وأبي يعلى والحاكم والسيوطي .. مرَّة أو مرَّتين من استخدام المعرِّبَيْن ، والطَّبري ص ٣٥ ، ١٩٤ ، ١٩٦ . ٢٠٥ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٣٣٧ ، ولكن من توظيف المعرِّبَيْن والمُرَاجِع ، وكذلك مالك بن أنس والموطَّأ .. أما بروكلمان ، فلم يعطِ مناهل تاريخنا المعتمدة قيمة تذكر .

أمَّا كتب المستشرقين الَّتي اعتمدها فكثيرة ، وهـذا إحصـاء بهـا حسب أحرف الهجاء :

آدمز ٦١٨ ، أبوت ١٨٥ ، أثنـاسيوس ١٣٥ ، أغنهـاردي ١٨٨ ، أُوبرت ٣٧٧ ، أُوديسيو ١٨٥ ، أوكلي ٣٢٨ ، ايڤـانوف ٢٨٢ ، إيرلنـد ٦٠٤ ، ٧٤٥ ، ٧٥٩ ، ٧٦٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ .

بابنجر ٤٥٠ ، بارتولد ١٦٧ ، ١٨٩ ، ٢٠٠ ، ٢١٨ ، ٣٨٣ ، ٣٩٢ ،. بـالاسيوس آسين ٣٠٠ ، بتلر ٩٩ ، براس ٦٤٠ ، براون ٤١٩ ، ٦٧٧ ، ٦٨٢ ، بـوفـــا ١٨٦ ، بوليـاك ٣٧٢ ، بيكر ١٠٣ ، ١٢٦ ، ٢٣٥ ، ٣٧١ ، برانكوفتش جورج ٤٣٦ ، برستر ٣٧٧ ، برشام فون ٣٨١ ، بيل ١٠٣ .

تنشز ٣٧٨ ، ٤١٣ ، توري ١٢٦ ، تيللو ٦٥٠ ، تو يازن ١٤٣ .

ديز ١٤١ ، ١٥٣ ، ١٩٩ ، ٢٢٥ ، ٢٩٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٤٠٥ ، ديسو ٢٠ ، دي غو يه ٩٣ ، ٢٢١ ، دنبار ١٣٨ .

جب ١٣٦ ، ٣٣٩ ، ٦١٨ ، جبونز ٤٠١ ، جورخـان ٣٧٧ ، جولـدز يهر ١٣٠ ، ١٩٢ ، ٣٠١ ، ٣٤١ ، جو يدي ١٧١ ، جلزر ٤٩١ .

روتشتاين ٢٠٠ ، روز ٥٠٣ .

زارنك ٣٧٧ .

سـايكس مـارك ١٩٩ ، ٦٨٣ ، ٧٤٦ ، ستروثمـان ١٩٩ ، ٧٤٨ ، سكالي آشيـل ٧٥٣ .

شاخت ١٠١ ، شاك الكونت فون ٣٠٠ ، ٣٤٣ ، شميث ١٨٩ ، ٣٣٨ .

غابر ياني ١٩٦ ، غبر يال ١٥٦ ، ١٥٩ .

فلهـــاوزن يـوليـوس ١٧ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، فـون لكنهاين ٦٠٥ ، فان جـالـدر ١٣٢ ، فـان فلوتن ١٣٢ ، ١٦٦ ، فنسنـك ٤٦ ، فون وبر ١٩١ ، فوندرهـايـدن ٢٤٨ ، فيشر أويغن ١٥ ، ٥٩٨ ، فون أرنـدونـك ٢٢٨ ، فون كريمر ١٣٥ ، فون شـاك ٣٠٠ ، ٣٤٣ ، فون أُوبنهـايم ٦٥٥ ، فـون نيـدرمـاير ٦٨٣ ، فون فسندونك ٦٩٨ .

كاستـانييـه ٦٠٦ ، كابغماير ٧٥٨ ، كريموفون ٢٣٥ ، كـوديـل ١٢٦ ، كيتـاني ١٥٢ ، لوبريلي ٤٠٤ ، كريست ٦٠٦ .

لامـانس ٢٠ ، ٣٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، لاووست ٣٧٠ ، لوكهارت ٥٢٨ ، لويس برنارد ٢٣١ ، لويد اللورد ٧٢٢ .

المنتفك ٧٧٥ ، ميدنيكوف ٨٥ ، ميليـه ٣٢٣ ، ميبرهوف ٢٠٢ ، مـاير ٣٦٥ ، ٦٤٠ ، مولر ٣٩٤ ، مينورسكي ٤٣٨ .

نـولــدكــه ٢٣ ، ٣٨ ، ١٧٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، نيكل لـويس ٣١٢ ، نيكلســون ١٩٠ .

هارتمان ٧٠٥ ، هنز ٥٠٢ ، ٤٩٦ ، هورجرونيه سنوك ٧٥ ، هيوز ١٩٠ .

وبستر ٦٩٦ ، وسترمـان ٦٤٠ ، وليــدي ٢٠٣ ، ويتــك ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، واختر ٤٨٧ ، ياشكه ٦٩٠ ، ٧٠٨ .

بـالإضـافـة إلى جورج أنطونيـوس ، وفيليب حتّي ، وقسطنطين زريـق .. فلماذا لم يرجع بروكلمان إلى الأُصول ؟ مع أننـا وإيـاه نعلم « إذا ضـاعت الأُصول ضاع التّاريخ ، هذه قاعدة لا موضع للجدال فيها ، وذلك أن التّـاريخ لا يقوم إلا على الآثار الّتي خلّفتها عقول السّلف أو أيديهم » .

وأخيراً .. إنَّ معظم نتـاج المستشرقين ، مظهر من مظـاهر الغـزو الفكري ، الَّذي يستهدف الجذور لا القشور ، ويحاول القضـاء على الجوهر لا العَرَض ، ويصر على الأُصول لا الفروع ، وتشويه تاريخنا العربي الإسلامي مظهر من مظاهر هـذا الغزو ، فالاستشراق له سببه الدِّيني ، ألا وهو إعداد المبشِّرين « فقبلَ الرِّماءِ تُملأُ الكَنَائِن » ، ومن ثَمَّ إرسالهم إلى العالم الإسلامي .

الغـزو الفكري ، معركـة تمضي في صمت وهـدوء ، مـع أنَّـه حرب ضروس ، يُريد ألاَّ يَضَع أوزاره ، قبل أن يترك ضحاياه بين أسير أو قتيل ، أو جريح ، أو كسيح ، سلاحه الفكرة ، والكلمـة ، والرَّأي ، والنَّظريـات ، وتحريف الكَلِم عن مواضعه ، وغير ذلك مما يقوم مقام السَّيف قديماً ، والصَّاروخ حديثاً .

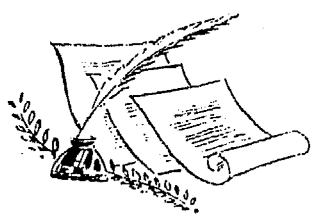
والاستشراق حركة علمية ـ في ظاهرها ـ لدراسة التُّراث الشَّرقي في معتقداتـه وآدابـه ، ولكنهـا تريـد صرف أهلـه عنـه ليولُّوا وجوههم شطر الغرب ، ويتعلَّقوا بركاب مدنيَّته ، ومن هنا جاءت ضرورة رصـد كلِّ مـا يطرحـه الغرب في سـاحـة الإسلام من أفكار مضلِّلـة ، وآراء منحرفـة ، وكتـابـات مشـوَّهـة ، ونحن في هـذه السِّلسلـة ، سلسلـة « في الميزان » ، لا نبتغي تجريح أحـد ، ولا تحقير أحـد ، وكل ما نريده التنبيه إلى حملات التغريب ، والـدَّس والتشويـه ، كي لا نصل إلى تحقيق المقولة : « إن الرَّميَّة تحتفي بالرَّامي » .

هـذا جهـد من جهودي في دفـاعي عن تـاريخنـا المجيـد ، وفي دفع الشُّبهـات والدَّسائس من حوله ، وهو جهد خالص لله ، يطيب لي ، فأسأله تعالى القبول .

والحمد لله رب العالمين

☆ ☆ ☆

المحتوى



كتب للمؤلف

١ ـ الإسلام في قفص الاتهام	الطبعة السادسة
٢ ـ مَنْ ضَيَّع القرآن ؟	الطبعة الثانية
٣ ـ الإنسان بين العلم والدين	الطبعة الرابعة
٤ ـ هارون الرشيد	الطبعة الخامسة
٥ ـ غريزة ... أم تقدير إلهي ؟	الطبعة الخامسة
٦ ـ آراء يهدمها الإسلام	الطبعة الرابعة
٧ ـ الإسلام وحركات التحرر العربية	الطبعة الثالثة
٨ ـ عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي	الطبعة الثالثة
٩ ـ الهجرة « حدث غيَّر مجرى التاريخ »	الطبعة الثالثة
١٠ ـ جرجي زيدان في الميزان	الطبعة الثالثة
١١ ـ أطلس التاريخ العربي	الطبعة الثالثة
١٢ ـ موضوعية فيليب حتي	الطبعة الأولى
١٣ ـ حضارتنا العربية الإسلامية	

☆ ☆ ☆

سلسلة « غزوات الرسول الأعظم »

١ ـ **بدر الكبرى** « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » .
٢ ـ **غزوة أُحد** « عاقبة المخالفة » .
٣ ـ **غزوة الخندق** « غزوة الأحزاب » .
٤ ـ **صلح الحديبية** « الفتح المبين » .
٥ ـ **غزوة خيبر** « الفتح القريب » .
٦ ـ **غزوة مؤتة** « فإنما هي إحدى الْحُسْنَيَين » .
٧ ـ **فتح مكة** « الفتح الأعظم » .
٨ ـ **حنين والطائف** « لن نغلب اليوم عن قلة » .
٩ ـ **غزوة تبوك** « غزوة العسرة » .
١٠ ـ **حروب الرِّدّة** « من قيادة النبي ﷺ إلى إمرة أبي بكر » .

☆ ☆ ☆

سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام »

١ ـ **القادسية**	بقيادة سعد بن أبي وقاص .
٢ ـ **اليرموك**	بقيادة خالد بن الوليد .
٣ ـ **نهاوند**	بقيادة النعمان بن مقرّن المزني .
٤ ـ **ذات الصواري**	بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
٥ ـ **فتح الأندلس**	بقيادة طارق بن زياد .
٦ ـ **بلاط الشهداء**	بقيادة عبد الرحمن الغافقي .
٧ ـ **فتح صِقِلّيّة**	بقيادة أسد بن الفرات .
٨ ـ **الزّلاقة**	بقيادة يوسف بن تاشفين .
٩ ـ **الأرك**	بقيادة المنصور يعقوب الموحدي .
١٠ ـ **العقاب**	بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحدي .
١١ ـ **مصرع غرناطة**	« أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر » .

☆ ☆ ☆

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٠/١١/١٩٨٧م
عدد النسخ (١٠٠٠)